صورة وأيقونة وعهد قديم

obeikandl.com

دار الجندي للنشر والتوزيع

❋

القدس
009722340035
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

❋

صورة وأيقونة وعهد قديم
سحر خليفة

❋

الطبعة الثالثة (2014).

❋

لوحة الغلاف: الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر
All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

obeikandl.com

رواية

صورة وأيقونة وعهد قديم

سحر خليفة

دار الجندي للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

بقلم الدكتور فيصل دراج

هذه رواية عن مآل القدس، المدينة المقدسة التي لا "يفرط" بها العرب، والمدينة الجليلة التي لا "يتنازل" عنها المسلمون، والتي، رغم "النوايا الكبيرة المجلجلة،" تتهود يوما وراء يوم ويقضمها المتعنت الصهيوني قليلا قليلا، كما لو كانت تنزف "عروبتها" و "إسلاميتها" وتسير إلى التهود والأسرلة، رغم قتال فلسطيني مجيد، وحيد وشريف ومخذول، كانت تغرقه "أدعية مباركة" إلى أن جاء زمن "الإرهاب الدولي،" بعد الحادي عشر من سبتمبر الشهير، وفرض الاقتصاد في الدعاء وتقنين الكلمات.

هذه رواية عن القدس العربية التي تقترب من الأفول. حكاية في رواية ورواية في حكايات وتأملات ورموز وذكريات غاربة، تقول ما رأت وترى ما لا تريد قوله كاملا، تاركة للقارئ أن يردم الثغرات ويكمل السطور الناقصة. ولعل هذا القول الذي يأتي واضحا وملتبسا وناقص الوضوح في آن، هو الذي جعل الرواية تستولد المعنى الذي تريد، من طبقات متعددة، تبدأ بعشق موؤود وتنتهي إلى مدينة مقدسة ضائعة.

تبدأ الرواية، في مستواها الأول، بعشق "مستحيل" بين ذكر وأنثى ينتميان إلى دينين مختلفين. ومع أن العشق حق إنساني، فإن في بؤس العاشق، في رخاوته، وهشاشته، ما يحوّل العشق إلى خطيئة، كما لو كان على الجميل البهي أن يسقط في مأساته المنتظرة. غير أن تأمل نص سحر خليفة، في لغته الواضحة والمضمرة، وفي رموزه وإشاراته، ما يعمق

obeikandi.com

المعنى السابق ويزيده كثافة. تنزاح الحكاية عن معناها اليومي المألوف، الذي يحدّث عن تخلف الوعي وسلطة العادة والقهر الصهيوني، وتستدعي معنى آخر، أكثر اتساعا والتباسا، قوامه "إبراهيم،" الاسم الذي يحيل على الأنبياء، و"مريم،" الاسم الذي يُردّ إلى سيدة مقدسة حملت من غير جماع وأنجبت نبياً.

في الرواية، التي تحدث عن حب عاجز وعن ولد مجهول الأب، ما يحيل على قصة دينية من قصص الأنبياء، حيث السيدة مريم وعيسى عليه السلام وإرادة الله التي لا تردّ. غير أن في زمن الرواية المسكون بالفساد، وحدوده اتفاق أوسلو ومطلع القرن والحادي والعشرين والغطرسة الصهيونية والهوان العربي، ما يخلع عن الحكاية هالة النبوّة الأولى ويكسوها بقماش رخيص. يخلق الزمن المريض منارات كاذبة وأنبياء كاذبين، مبتعدا عن زمن المعجزات الحقيقية، ومكتفيا بما يخدر الأرواح ويتركها مريضة. فالأب، الذي أراد أن ينجب نبيا، فلسطيني غريب يتداعى تحت وطأة تناقضاته المتعددة، لا يقتصد في الكلام ويجهل اقتصاد الزمن، معتقدا أن الكلمات تساوي مواضيعها، وأن الاحتفاظ باسم المعشوقة يملي عليها الانتظار، والصبي النبي، وهو ثمرة الخطيئة ولا يسأل عن أبيه، صورة عن زمن مريض وعن "كفاح مقيد،" مزيج هو من الصدق والشعوذة ومن المحبة والأنانية ومن الزهد والفضول، نبي بلا نبوة ونبوة بلا رسالة، لا يشفي أحدا رغم إيمانه ب"الطاقة" وحوار الأرواح. أما "مريم الزمن الفلسطيني" فسيدة "عذراء" أخرى، مجهولة ومخذولة تلتف ببركاتها ولا تدعو إلى إصلاح أحد. إنها "المهزوم المقدس" الذي ترك لمصيره وساعد نفسه، رغم الشقاء، ولم يساعده أحد. ولذلك تبدأ باسم "مريم" المليء بالإيحاءات الدينية المألوفة

وتنتهي باسم "ماري أيوب" حيث "أيوب" رغم صبره، لا يعيد إلى الاسم الأول وجهه العربيّ. تدور الرواية في حواري القدس وكنائسها ومساجدها وصلبانها وقساوستها، مسائلة فضاء مقدسا موروثا يتداعى، تاركا المدينة، التي فتحها عمر بن الخطاب، للسياح ومختزلا الموروث القديم إلى أماكن عبادة ناقصة.

لا تتوسل الرواية، قدر ما استطاعت، الرموز الدينية، إلا لتستولد منها تأويلا تاريخيا مشخصا، لينفتح على الراهن والمعيّش والملموس. ليست "مريم الفلسطينية" التي تذوي في الفضاء المقدس وتسير إلى النسيان والموت إلا: القدس، التي خذلها، ذات مرة، عاشق قديم، وليس العاشق، الذي خذل مدينته، إلا الفلسطيني، الذي آثر الهرب بعد حرب ١٩٦٧. ذلك العاشق الغريب الذي هاجر وكافح واغتنى وناضل، واعتقد أن الذكريات تحمي الأماكن المقدسة، وأن النوايا الطيبة تنجب الأنبياء. ولهذا ينتهي وحيدا بلا وريث، يذهب إلى الموت عاجزاً، مشاركا "مريم" عجزها ويتمها وانحدارها إلى النهاية.

صورة وأيقونة وعهد قديم رواية عن القدس الغاربة. قد يبدو المنظور الروائي متشائما، لدى من يقدس الجهاد والشهادة والشهداء. ولدى من يُعلي من شأن الرغبة ويُعرض عن الوقائع. بيد أن خليفة، وكما في كل رواياتها، تبني عملها الروائي على الوثيقة، فاصلة بين الوقائع المشخصة و"الرغبات الوطنية،" ومشتقة من الحاضر المعلوم مستقبله القريب. ولعل هذا المنظور، المشغول بالقدس قبل فلسطين، هو الذي أملى على سحر خليفة صياغة "فلسطيني هجين" ليس بينه وبين "الفلسطيني العادي" قرابة وثيقة.

يخترق "الفلسطيني الهجين" الرواية من البداية حتى النهاية، معلنا عن

الهجين الذي يسكنه قبل أي شيء آخر. فهو العاشق الذي آثر الفرار، والفلسطيني الذي "عرّبته" الأموال الخليجية، و"العربي" الذي أثري في حرب الخليج الثانية، و"العربي – المتأمرك" الذي "يغسل أمواله" بمشاريع خيرية، ورجل الأعمال المثقف، والمثقف الكاذب الذي يبحث عن نبي صادق. . . مزيج التناقضات والتداعي، لا ينقذ أحدا ولا يستطيع حتى وإن حاول. . . ولذلك يبدو شبيها باليهودي الروسي المهاجر، الذي ترك مسرح تشيكوف وراءه، وجاء وراء غانية لا تلتفت إليه. وبهذا المعنى، تكون مريم مجازا للقدس المخذولة، ويكون إبراهيم مجازا واسعاً لأمة تحدّث عن أمجاد العرب وعزة المسلمين.

يقف في الضفة الأخرى "الفلسطيني العاديّ" أو "الفلسطيني المضمر،" الذي ظل واقفا فوق أرضه، بعيدا عن الثروة والخليج وأميركا، يجدد الانتفاضات اللاحقة، يعيش صامتاً ويموت صامتاً، كما لو كان الكفاح قدره، وكان في قدره أحزان كثيرة وأفراح قليلة ورهان كبير.

تحكي صورة وأيقونة وعهد قديم عن روح فلسطين المتغيرة وعن شعب بسيط يصمد راضياً مطمئناً، وتتأمل ما تبقى من القدس، وترصد أرواحا ميتة تتاجر بأحجار فلسطين وبأخرى تحول الحجر سلاحاً فريداً، وذلك في نص مفتوح متعدد المستويات، يرى البشر في حياتهم اليومية، ويرى إلى التاريخ الذي لا يلتقي به أحد. بل إنها رواية عن تاريخ مراوغ، يعطي أنبياء حقيقيين في زمن، ويستولد آخرين يثيرون السخرية في زمن لاحق ويعطي البيت الفلسطيني القديم ليهودي أميركي مارق، ويترك اليهودي الروسي قتيلا في زمن الانتفاضة. كأن التاريخ حاكم مستبد قديم، يصوغ مصير البشر كما أراد، دون أن يلتفت إلى رغباتهم المقموعة.

تتأمل سحر خليفة مصير شعب ومآل مدينة، وتترك الإجابة معلقة في فضاء الاحتمال، كي تحدّث عن المجتهد الحزين، الذي يعرف هدفه ويخدعه الطري.

obeikandl.com

obeikandl.com

صـــورة

obeikandl.com

obeikandl.com

مريم كانت أجمل صورة، أغلى تاريخ، أحلى صورة. كانت في الغربة تحضُرني فأحس بروحي تسحبني لأجواء القدس وعقود من كارب وقرنفل تحيط بعنقي وتغلفني فتحيل القلب إلى عاشق في العشرينات. ذاك الزمن كان صديقي، بل كان الحب، وكنت أنا مثل الدوري لي أجنحة من ذهب ومرايا تكتشف العالم من حولي وقباب القدس.

القدس الآن قدس أخرى، قدس التاريخ. لكن القدس كانت مريم، أو أنّ القدس وذاكرتي وحبي الأول كان التاريخ! وأنا في الحاضر ابن اليوم، لا لي حاضر ولا لي مريم ولا لي تاريخ. أسقطت وجودي فتناثر حبي الأول وشظايا الروح. وبحثت طويلا عن حبي والذكريات والمستقبل فما وجدت إلا الماضي وصورة قديمة وصدى أجراس مكتومة في ساحة دير. أهناك القدس؟ أهنا مريم؟ أهناك الحب وذاكرتي وحنين الروح؟ لكن الروح معلقة في طرف الخيط، طيارة ورق تسبح في الأفق ولا تعلو أو تصل الأرض. طيارة ورق، قصة حبي، وأنا والروح وذاكرتي في طرف الخيط.

ابتدأت القصة حين هربت من زواج عائلي رتبه خالي فتمردت وقبلت وظيفة في قرية منسية على حدود القدس. لكن ضميري وحنيني لخالي الفنان جعلاني أحس أني المسؤول عن أحزانه وخيبة أمله ورجائه فيّ. كان قد وضع آماله فيّ وهو يراني أراقب تخطيطه ورسومه وعزفه للعود بفم مفتوح فيقول بحزن: "كان لازم أنت تكون ابني، أنت الفنان. " ولأنه أراد التعويض عن أولاده شبه المعاقين، فقد أراد تزويجي من ابنته ذات العينين الزرقاوين مثل الزجاج في صحن حليب. كانت حلوة، مثل اللعبة، مثل الجبصين، فهربت من خالي وابنته ولعب الجبصين. وتركت أمي المهجورة وأختي سارة في قلب القدس، واستأجرت غرفة كئيبة في

القرية وما عدت أزور دار العيلة إلا في العطل المدرسية والأعياد.

*****

كانت غرفة واسعة تكاد تتسع لمنزل بأسره، فقد كانت من العقد القديم مبنية بالحجارة الضخمة المثبتة إلى بعضها بمواد طبيعية اغلبها الروث، لأن الإسمنت ما كان قد اكتشف بعد، وكان لها سقف مقبب كسقوف المساجد ونوافذ مرتفعة صغيرة لا يكاد ينفذ منها النور، ولهذا كنت أضيء اللمبة ليلا نهارا حتى لا أظل أرى طريقي بالتحسس. أما المصاطب والأجران التي كانت فيما مضى أحواض ماء وأوعية لعلف الدواب والدجاج وديك الحبش، فقد غطيتها بألواح خشب وطراريح واستعملتها كمقاعد ورفوف وخزائن. وعشت في ذاك الخم عيشة الكفاف لا اخرج منه ولا التفت حولي حتى جاء الربيع ودفئت الدنيا واخضرّت الأرض وانفجرت البراعم. حينذاك خرجت وبدأت اتفتّل في إنحاء القرية استكشف الهضاب والوديان المحيطة وأطل من قمة الجبل وصخوره على الأفق الممتد فوق شواطئ نتانيا ويافا وتل أبيب، وأحلم بكتابة رواية طويلة ترصد هذه الأرض وما مر عليها من تاريخ. وأتخيل كم ستكون فرحة خالي بي وهو يراني محلقا في عالم الفن، الذي سقاني أولى قطراته. لكني أعود وأتذكر عبوسه وشؤمه وتعاسته حين رفضت الزواج من ابنته البلهاء، فأرجع إلى غرفتي اختبئ فيها أياما حتى تزول كآبتي ويناديني الربيع وفوح البساتين، فأخرج ثانية لأهيم في دروب القرية وأحلامي وشدو العصافير.

وفي يوم ما، قادتني قدماي إلى الطرف الجنوبي من أنحاء القرية، فاكتشفت مقبرة جديدة لم أكن قد تنبهت إليها، وكانت قبورها واطئة مسطحة ومزدانة بالصلبان والأسماء الغريبة: ميشيل وانطون

وانطوانيت وسيمون. وبدأت انتبه لأجراس الكنيسة، واختفاء نصف سكان القرية، وإغلاق نصف الدكاكين كل يوم أحد، بل واكتشفت أيضا أن هناك مدرسة أخرى لا هي حكومية ولا تتبع لوكالة الغوث، بل تتبع لكنيسة لها قسيس بلحية مدببة كالفنانين، ويحكي العربية ولا يلحن أو يكسّر، بل يعظ بلغة تكاد تفوق لغتي أنا، ويتغنى بتاريخ العرب والشعر الجاهلي، ويعلم تلاميذ مدرسته أغان وأناشيد لها طابع وطني حنون، فأخذت عنه تلك الأناشيد وحفظتها للأولاد في مدرستي. وهكذا، بدأت أتعرف على مجتمع داخل مجتمعي له سماته وقسماته وبصماته، وهي والحق يقال أرقى وألطف، فوددت لو كنت بلا تربة؛ لأدق جذوري في تلك الأرض. واعتدت الذهاب كل أحد والجلوس على صخرة فوق الهضبة المطلة على ساحة الكنيسة والمقبرة ومراقبة الصبايا والشباب، وهم يتجهون إلى الصلاة بملابسهم الزاهية وضحكاتهم المرحة، وعلى بعد مسافة خلفهم تسير العجائز بملابسهن السوداء، وطرحاتهن المخرمة، يتمايلن على الجانبين كأفواج بط مليء الحواصل. ثم ينطلق الإنشاد بصوت جماعي تختلط فيه أصوات النساء بأصوات الرجال، مكونة حبلا شعاعيا ينساب من قرميد الكنيسة، وينتشر بعيدا فوق الزيتون وغمام الصنوبر، وينطلق محلقا في أفق الكون. فأحس بروحي تسحبني وأطير مع الطير فوق السحاب.

2

لا أدري متى وكيف أحببت مريم. أو ربما ما بهرني هو ذاك الجو وما يمثله من سحر وغموض! أو ربما كانت مريم وما أحاط بها من قصص غريبة هي المسؤولة عما انتاب مخيلتي من أحلام. بت عاشقا بدون تسلسل. أفقت فجأة وإذا بي متيم لا اقوي على التركيز على شيء ما. بت مشتتا ملهوفا مليئا بالشوق والأحزان بدون سبب منطقي استطيع فهمه. لم أرها عن قرب، لم أسمعها، لم أحدثها، لم أر في عينيها نظرة حب وتجاوب، بل لم تعرفني على الإطلاق طوال شهور.تلك الأشهر، وذاك الربيع، تلك الأزهار والأشعار وأغاني الكنيسة والأرغن، ربما كانت المسؤولة عما أصابني ووقعت فيه. أو ربما كان سحر الغروب فوق الهضبة ولون السماء واحمرار الشفق وهي كالطيف الأسود يأتي مع الظل وانسحاب الضوء من الدنيا وقبور الأمس. كانت كالنقطة في التاريخ من غير زمن. مقبرة مليئة بالصلبان وبقايا أعمدة الرومان وزيتونة عتيقة من عمر المسيح قيل استظل بها نور الدين زنكي أثناء فتوحاته لتحرير القدس. كيف اختلطت كل الأشياء حتى بدا العالم جنة، معبد أسرار، وهي كالحلم وأشعاري وأساطيري وقصص أدباء الخمسينات.

بدأت القصة يوم أحد. جلست كالعادة على الهضبة أرصد طقوس المصلين، فبعد مرورهم في شعاب القرية وتجمعهم في باحة الكنيسة ودخولهم لأداء الصلاة، ثم الأرغن وهدير موعظة القسيس والترتيل وعبق الربيع وظلال الصنوبر، ثم خروجهم مع بدء الغروب، لمحت

طيفا ينفصل عن الجماعة ويسير إلى المقبرة وحيدا، ثم الوقوف أمام قبر ما. كانت كالنقطة في نظري، نقطة سوداء تتحرك بصمت مطبق. اختفت الأصوات والأشكال وجماعات المصلين وبقيت هي، نقطة سوداء تتحرك في احمرار الشفق. أحسست بنوع من الفوضى في أعماقي. أهو الإحساس بأني على حافة هاوية ما؟ أهو الغموض وسحر الجو وشجن الوحدة وأشواق الشباب؟ أهو خيالي؟ لم تكن تبكي، كانت تقرأ في كتاب صغير ومسبحة دقيقة تنسدل من معصمها. ورأيت الصليب، صليب صغير بحجم فراشة، وطرحتها السوداء من الدانتيل المشغول بتخريم الإبرة. ابنة راهبات، هذا ما ظننت، أو ربما راهبة لم تكمل نذرها بعد وما زالت في أول الطريق. أردت أن اقطع عليها الطريق، أن اقفز إليها من الهضبة وأواسيها وأقول لها أنت صورة، أنت قصيدة، أنت ملاك وقصة حب تستحق الحياة، فلنهرب. لكن إلى أين وممن وكيف؟ وهي، من هي؟ ما قصتها، ما صفتها ؟ ومن فقدت؟ اسمها سلمى؟ اسمها فدوى؟ اسمها نجوى؟ بل اسمها مريم. هذا ما عرفته بعد بحث طويل. وما عرفته أيضا أنها تبكي أخاها الأصغر وأنها شبه وحيدة لأن أخوتها الكبار في البرازيل، وهي هنا في القرية مع أمها شبه العمياء والمدعومة بأخوة وأقارب وحمولة. عائلة ضخمة، ولها أملاك تمتد حتى الجبل. كروم زيتون وعنب وتين وسفرجل وتين ورمان. وهي هناك في طرف الجبل في بيت جديد بنته أموال الغربة محاطا بأجواء القرية، عريشة كثيفة، وأجمة رمان وصنوبر وبقرة ودجاج ومخزن حبوب ومعصرة زيتون لا تعمل. هاجر الأب منذ زمن طويل بعد أن زوجوه ابنة خاله. أنجبا العديد من الصبيان وابنة وحيدة. مات الأب وبقي الأولاد، فاستلموا عنه أشغاله ومحاصيله. وحين بلغت

البنت اتفقوا على إعادتها مع الأم والابن الأصغر إلى القرية، وبقوا هناك في سان باولو. كل تلك التفاصيل من أين أتت؟ من البقال ومن فوج طويل من المتبرعين من كل أنحاء القرية. فما عليك إلا أن تجلس هناك على الرصيف أمام دكان البقال تشرب قهوة وتطلب أرجيلة وتقرقر وتفتح إذنيك لأقوال الناس. فلان مات، فلان عاش، فلان تزوج على فلانة، فلانة طلقها بسبب البنات، أما فلانة، حاشاك الله، فيكفيك شرها، لو كانت أختي أو بنتي لوضعت يدي في رقبتها وقطعت نفسها على الآخر. هيك الأصول، هيك بلدنا. لا نحن أميركا ولا البرازيل. بلد البرازيل بلد كبيرة أخذت منا عشرات ومئات، أما أميركا، خليك ساكت. يعني ما بقي إلا الخردة. نساء وأطفال وشيوخ وعجائز وبعض العمال المضروبين. لمّا يمرض يرجع عندنا! طول ما هو نافع وزنده حديد يقعد برة، ولما يخرب يرجع عندنا. يعني القرية الله وكيلك زي دار العيله المهجورة، ناس في ديترويت، وناس في الكويت، وناس في البرازيل. حتى السودان أخذت منا والسعودية، وما بقي بالبلد إلا الزيتون. هالزيتونات والمشمشات وتين وبرقوق وجبنة وزعتر. أرزاق البلد بمطرحها. وتلاقيهم رغم الغربة، ما بنسى الواحد أرزاقه. الزيتونات والسمسمات والملوخيات وتنكات الزيت والفريكة تلحقهم لآخر الدنيا. هيك الدنيا، هيك بلدنا. انفخ وكيّف، بدك نارة؟ هات يا محمد، وقهوة مظبوطة عالريحة.

ثم مريم، من هي مريم؟ وابتدأت قصص غريبة حول مريم. ناس يقولون رجعت لتتزوج من قريب في القرية، وناس يقولون، رجعت لتترهبن وتدخل الدير، وناس يقولون، رجعت للبلد حتى تنضبّ، لأن البنت فلتانة هناك، وناس يقولون، رجعت مع أمها لأن الأم

صارت عمياء والغربة صعبه على المفتحين، فكيف العميان! المهم أني حملت اسمها وصورتها في كل مكان، وطبعا واظبت على رصد الفتاة والجلوس على الهضبة ومراقبة الكنيسة والمقبرة. بت عاشقا من غير سبب سوى أن خيالي هيأ لي صورة جميلة، صورة فخمة لقصة حب أسطورية ذات أبعاد. وكلما جمعت المزيد عنها اعتقدت أني أعرفها أكثر. وما كنت أعرف في ذاك الوقت أن للناس مخيلة تشبه مخيلتي إلى حد ما، وأن كل واحد يراها من زاويته، ولهذا تضاربت الأقوال والقصص والتحليلات. لكن مخيلتي وشبابي، والفراغ الذي كنت أعاني منه وضيق القرية وحدود حياتي، هيأوا لي أن ذاك التضارب في الأقوال ما هو إلا دليل على غنى شخصية صاحبتي وتعقيدها الدرامي وزخمها. ثم ذاك الأسود، والطرحة السوداء، والعنزة، وصوت الأرغن والكنيسة، لا، لا، أكيد أن القصة، قصة حبي، هي شيء مقصود ومدبر من قوى علوية ترصدنا وتخطيط قدر. وعدت إلى الروايات انهشها وأغوص فيها وابلعها حتى امتلأت بما كتبوا وما عاشوا وما تمنوا أن يعيشوه في الواقع من خلال الكتب. وفي ذاك الوقت، وكنت ما زلت في العشرينات، ما كنت اعرف ما اللعبة، لعبة الفن وخلق الصور. إذ كنت أظن أن القصة، أية قصة، هي قصة تجربة مرت بصاحبها بأرض الواقع، أو استقاها من الواقع، أو أن الواقع في القصة هو صورة لواقع عايشناه. المهم أني في ذاك الجو، وبتلك النفسية والأحلام وذاك الواقع، بت متيما حتى الجنون مع أني لم أرها عن قرب، أو اسمع صوتها، أو التقي بها في أي مكان بين الناس. لم تكن من الناس. كانت طيفا. كانت صورة.

*****

ثم جاء اليوم، يوم التقيت بها، وسمعت صوتها ورأيتها عن قرب من

مسافة أمتار. في عيد ما، دعانا القسيس إلى الغداء، وكانت هناك. كنا ثلاثة أو أربعة أشخاص نجلس حول طاولة يتصدرها القسيس وتنتهي بزوجته ايفون. ايفون، قالت: "فلنبدأ، لأن الباقين كما يبدو لن يجيئوا." قال القسيس برحابة صدر: "ألا ننتظر بضع دقائق؟"، قالت ايفون: "لو أرادوا المجيء لما تأخروا هذا التأخير." وبدأنا الأكل. كان هناك نبيذ على الطاولة. عرض القسيس علي كأسا بتردد، فقلت: "نعم، لم لا؟"، قال بلهجة اعتذارية: "قليل من الخمر يفرّح قلب الإنسان." فهززت رأسي، وقلت: "بلى." وشربت جرعات كبيرة.

قال احدهم: "في ذاك الوقت في الصحراء كانوا يشربون خمر التمر، وهو فتاك قاتل، يسطل ويدّوخ من أول كأس، ومع حم الصحراء... يا حبيبي!" ابتسم الجميع وابتسمت أنا، وشربت جرعات أخرى وبدأت أدوخ. ما كان النبيذ من خمر التمر ولا كان النسيم من الصحراء، لكن الدنيا بدأت تدور، لأني ما كنت قد ذقت الخمر ولا عرفته. عرفته في أفلام السينما وفريد شوقي يدق الكأس بكأس صعلوك آخر وراقصة لهلوبة تهز الخصر. تلك أفلام الخمسينات، وأنا طبعا ابن تلك المرحلة وما كناه، وأبي وأمي، كانا محافظين، وبيتنا كان مقيدا بقيود حارات القدس حول الأقصى. لم يدخل الخمر دارنا وما عرفناه ولا احترمناه، بل كنا نخافه كما نخاف الزنا والميسر وأعمال السياسة. كنا بالعربي "مستورين" ، ثم كان الطلاق وزواج أبي، وصرنا نسمع انه يشرب حتى يفقد الوعي ويصبح خرقة. هذا ما سمعناه وما صدقناه، أو ربما كنا بين مصدق ومكذب، فما يدرينا ما حل به بعد زواجه؟ ألا يتغير الإنسان بتغير ظرفه؟ وهل نظل نعرف الناس إلى ما لا نهاية؟ وهل

نعرف الناس بكاملهم أم على أجزاء؟ المهم أن أبي ما كان يشرب، ولم أر المشروب في حياتي إلا في السينما واستفان روستي يضحك ويقول: "هات يا خريستو، إدي له كمان. "

*****

دق الجرس وانفتح الباب، وسمعنا كركبة بعيدة في الخارج. قال القسيس: "يمكن هي." همست ايفون: "الكنافة." وعدنا للأكل. وفجأة وقفت ايفون وكانت في مقابلة الباب، وقالت: "أهلا، تأخرت! خير انشا الله؟!" التفت لأراها بكاملها، على بعد أمتار خلفي، فاندفع الدم إلى رأسي وكدت أموت. ضربة صاعقة أصابتني، فأحسست بقلبي يتوقف بضع لحظات، ثم يعود الدم بضخة قوية أغرقت أعضائي والدنيا بفيض احمر. أحسست الأرض تتزلزل. انحجبت الرؤية عن عيني لثوان، وما عدت أرى أو اسمع شيئا. وحين استعدت الوعي وإحساسي كانت قد جلست أمامي، وبدأت تنشر فوطتها. أمامي هناك، بضعة أمتار، بل متر ونصف على الأكثر، أي عرض الطاولة لا أكثر. أمن المعقول؟!

في مثل سني أو اصغر. بشرة بيضاء حليبية، وحلة سوداء، وشعر متموج يصل الكتفين. وجه بيضاوي أقرب إلى الطول بسبب نحافته ودقة عظامه، وشفاه مدفوعة قليلا فتبدو أغلظ بسبب نتوء في الأسنان. أما عيناها فشيء عجيب، أهداب سوداء كثيفة تنسحب عن بياض صاعق وسواد مشحون بالأسرار. وحين نظرت أحسست بقلبي يتهاوى وكدت أدوخ، أو ربما هو فعل الخمر وصعقة اللقاء المفاجئ!

قال القسيس مازحا:

- مريم تريد دخول الدير، من يصدق؟

قالت زوجته بعتاب رقيق:

– ألم نتفق على عدم ذكر الموضوع؟

انسحب معتذرا، وقال: "بلى" والتفت إلي:

– وأنت يا إبراهيم، ماذا تريد أن تفعل؟

ارتج السؤال علي ولم افهم، فرددت سؤاله ببلاهة:

– ماذا أفعل؟

أعاد السؤال مفسرا:

– أقصد حياتك، أقصد المعنى لحياتك. أقصد دنياك، ماذا ستفعل؟

قلت وأنا أسترق النظر حولي ثم إليها:

– لا شيء كبير، أظل أدرّس.

ونظرت إليه فوجدته يبتسم مشجعا وينتظر مني الاستمرار وإضافة ما هو أكثر فقلت بخجل:

– وأراسل جامعة في لندن.

قال القسيس،

– وتكتب شعرا.

قلت بخجل:

– ليس شعرا، بل قصصا وحكايات وأسرار الناس.

قالت ايفون،

– إذن تتصيد أسرار الناس لتكتبها؟

أحسست بأذني تحمران، وقلت متلعثما:

– لا لا، بالطبع لا، إنما اكتب عن خفايا النفس لأعرفها. أريد أن أعرف، فقط، لا غير.

قال أحدهم مماحكا،

obeikandi.com

– لا يعرف أسرار النفس إلا الخالق. أليس كذلك يا قسيس؟
تفكر القسيس، وقال:
– بلى.
وصمت قليلا، وقال همسا، كأنما لنفسه قبل الناس:
– وهناك كتّاب أيضا، بعض الكتّاب.
صاح المماحك، وكان قد شرب قليلا، أو ربما ليلفت نظر الفتاة الجميلة:
– كتّاب؟ أي كتّاب؟ وماذا عن المنجمين والفلكيين والشيخة فاطمة وخوري الرام؟ كله باطل، كله تدجيل. لا يعرف النفس إلا الخالق.
ابتسم القسيس، وكان معجبا بالأدب الروسي حتى الإدمان، وقال بلطف:
– أقرأت دستويفسكي وشيخوف؟ أقرأت الحرب والسلم؟ أقرأت الأخوة كرامازوف؟
وبدأ محاضرة طويلة عن عظمة دستويفسكي، وما أبدعه في تحليل النفس وخباياها. وأحسستني انتقل لذاك الجو. جو قاتم، جو كئيب، جو مشحون، جو مليء بالحياة والشخصيات والمشاهد، وايفان وديمتري واليوشا، وأنا معهم. أنا وهي، أنا ومريم في ذاك الجو. أنا لست هنا. أنا هناك. أنا منهم. ونظرت إليها أتمعن. وهمست روحي: "أنت البطلة، أنت القصة، أنت التجسيد لما أحلم." وجرعت الكأس.
وها هي مريم، على طرف المائدة أمامي، على بعد بوصات مني، تسمع بهدوء ولا تتكلم، فقط تسمع، وتسرح بعيدا ثم تعود بعينيها لتلتقط الجو والكلمات ولا تبتسم، ولا تهز الرأس كما نفعل، بل تتأمل، وترخي عينيها وتضيع كأنما في غيبوبة. ولم اسمع صوتها إلا همسا. وطبعا أضاف ذاك السكوت بعدا جديدا إلى غموضها والهالة التي كنت قد نسجتها

حولها وأجواء المقبرة والأسود واحمرار الغروب. وعدت لأتابع دور المتربص والجاسوس، فكل لفتة أو بسمة أو رمشة عين أرصدها وأفسرها بألف تفسير، وما جاء ذاك إلا بنتيجة واحدة، اتساع مخيلتي ووقوعي في الأسر المضاعف، أسر العواطف والعشق المكبوت، وأسر مخيلتي وما تنسجه من أحلام وتفسيرات ومشاهد.

سأل القسيس:

- ذاك الكتاب ألم تقرأه؟

أفقت من ذهولي وتساءلت:

- أي كتاب؟

ضحكوا وضحكت وابتسمت هي، فبانت أسنان ذات بريق، فتزلزلت.

قالت ايفون:

- غدا تعال إلى المكتبة وستجد الكتاب.

وكان لمدرستهم مكتبة تقع خلف الكنيسة مباشرة، وفي كوخ مسقوف بالقرميد يعلوه الصنوبر وشجر السرو. وكانت ايفون هي المشرفة على المكتبة وتصنيف الكتب. فإذا أشار القسيس علي بقراءة كتاب ما يلتفت إلى زوجته، ويقول: "عليك به،" فتقول بحماس: "صباح الغد." وفي الصباح أتسلل من مدرستي وأذهب هناك فأجد الكتاب على الكاونتر بانتظاري. وبات من عادته أن يشير علي، ومن عادتي أن اذهب إلى المكتبة بين الحصص واستعير الكتاب وأعود به قبل قرع الجرس.

obeikandl.com

وفي يوم ما، كما تخيلت، أو كما خططت، وجدت المقصودة أمامي، وكانت تعيد كتابا قرأته، فتحينت فرصة اختفائها بين الرفوف والتقطت الكتاب واستعرته، وهرعت به إلى مدرستي ثم بيتي وغرقت فيه وفي عالمه كما لو كان عالمها هي، عالم مريم.

كان الكتاب لفرنسوا ساجان، وكانت تلك قد انفجرت في عالم الأدب كالقنبلة وهي ما زالت دون العشرين، وكان الكتاب خليطا عجيبا من الأفكار والأحاسيس والرغبات والتخبط. وكان الكتاب مستعملا ومستغلا إلى أقصى حد. ولا بد أنه قد مر عبر أيد عديدة وتناولته الأقلام والتعليقات، بعضها ممحو وبعضها ما زال ماثلا للعيان، لأنه كتب بحبر يصعب محوه. وكنت أعرف أن تلك الكتب هي حصيلة ما جمعه القسيس من مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، وأن تلك الخطوط والتعليقات قد تكون لفريق من الطلاب، إلا أني، وبسبب التمادي في دور العاشق والمخبر، وجدتني أفسر كل خط وكل تعليق كما يحلو لي، واعتبره اكتشافا ودليلا على نواح وزوايا من شخصيتها ذات الأبعاد. فهذا خط يشير إلى فكرة فلسفية ذات علاقة باكتشاف الذات، فأقول هي، هي من تبحث عن معنى الذات. وإذا وجدت خطوطا تحت فقرة تصف المشاعر والأحاسيس، أقول هي، هي من يغرق في لجج الإحساس، فتلك النظرات الناعسة الهائمة المشبوبة لا يمكن أن تصدر إلا عن فتاة تحس الأشياء بشكل حاد. وإذا وجدت فقرة تشير إلى انعتاق الروح الفردية من قيود المجموع، أقول هي، هي من تهرب من دنيا الناس إلى المقبرة ودخول الدير. وإذا بكت البطلة من أمر ما أفسر المشهد بشتى التفاسير، فهذا دليل على ما تحب، وهذا دليل على ما تحس،

وهذا دليل على ما تريد، وباتت مريم هي البطلة أو أن البطلة هي مريم. وما عدت أعرف مع من أعيش ومن أعشق، أعيش مريم من خلال الكتاب، واعشق مريم من خلال الكتب وجو المكتبة وصور الأدب. ولم يخطر ببالي على الإطلاق أن المشكلة في ذاتي وليست مريم. ولم اكتشف تلك النقطة، أو تلك الجنحة أو المثلبة إلا ما بعد، بعد عشرات السنين، عشرين سنة، ثلاثين سنة، أو ربما أكثر بقليل، وظلت علاقاتي بدنيا الناس تتخبط، لأني أتعامل مع أشخاص من صنعي، أصنعهم من الكتب ومخيلتي، وأحللهم حسب ذوقي واجتهادي، وأفسر طوابعهم وطوالعهم بما يحلو لي وما يعجبني أو ما يدور في رأسي من فكر وأحلام وخواطر. فأعلو وأرتفع مع التحليل ثم اغرق، وأرى زوايا ليست هناك، وأبني توقعات على ما أرى، ثم تأتي الصدمة كالانفجار حين اكتشف أن المرأة، أو ذاك الرجل، أو ذاك الحدث قد خيب أملي وغرر بي. وأقضي أياما أتوجع، أو أسابيع، ومع المرأة عدة أشهر، لأن قلبي ينجرح بعمق، لأن أحلامي ذابت كالملح، لأن روحي هبطت كالظل وكالظلمة، لأني أعود إلى ما كنت قبل القصة، وقبل اللقاء، أعود وحيدا اجتر الكتب وأرمم ما انهار من الأحلام.

سألتني ايفون وهي تراني أراقبها خلف رف الكتب:

- أنت معجب؟

قلت: "ماذا؟" ونظرت بعيدا عبر الشباك أهرب منها. قالت همسا:

- احذر وابعد.

التفت إليها ورأيتها تتشاغل بتصنيف كتاب، لكنها تبتسم بلطف.

كانت قد لاحظت ملاحقاتي ومتابعاتي ودخولي المتعمد للمكتبة حين تأتي الفتاة. في البداية بدا وكأن الأمر مجرد صدفة، وحين تكرر باتت تشك، وها هي اليوم تنوه، بل تندد، بل تحذر، وتقول بلطف:

– احذر وابعد.

ثم أضافت:

– مريم يكفيها ما هي فيه. أخوتها السبعة كالحراس، وهي وحيدة. لولا القسيس لكانت في الدير.

قلت بدهشة:

– قسيس ودير؟ أنا لا افهم!

ابتسمت بلطف:

– لا لا، طبعا، لكن مريم، أقصد يعني، دير اللاتين، على كل حال هذا كتابك.

أخذت الكتاب وانطلقت به، ومن ساعتها وأنا مذهول لأن الممنوع صار أحلى، لأن الأحلى صار جنونا، لأني ما عدت أرى نفسي إلا ضحية، وهي القاتل.

3

obeikandl.com

"اهرب بجلدك يا ولد. "هذا ما فكرت فيه بعد ليلة مضنية من الهواجس والآلام. "أنت لست أكثر من حالم، فمن هي مريم بالنسبة لك؟ مريم لا شيء. مريم من صنع أحلامك. ماذا تعرف عن دنياها؟ ماذا تعرف عن مزاياها؟ هل تعرف إن كانت تريدك أنت أو حتى تريد أي رجل؟ تريد الدير، فما معنى ذاك؟ وحتى لو كانت تريدك أنت فهناك الدين، وهناك الفقر، وأنت لا تملك شروى نقير. ثم أمك، وكذا أختك، والأهل والناس والحارات حول الأقصى. فكر في الأمر، واصح من غمرة أحلامك."

وهكذا، حملت حقيبتي الصغيرة وهربت إلى أمي مع أول خميس. دخلت الدار وكانت هناك تطبخ في المطبخ المعتم للبيت القديم – دار العيلة. البناء قديم عريق، اشتراه الوالد من عائلة هاجرت لأميركا مع بدء النزوح وإقامة دولة إسرائيل. البيت فخم، كان كذلك، وعفشه غال متعوب عليه. كل قطعة فيه اشتراها أبي من أحسن محل في يافا، هذا ما كان يفاخر به. وبيانو قديم اشتراه من يهودي مهاجر كان يعلمه دو ري مي وكيف يستمع لبتهوفن. وما افلح أبي بدو ري مي، وظل يستمع لأم كلثوم. كان يحب الموسيقى ويحب الغناء، ويحب السينما و"التياترو"، ويحب الحياة، وهكذا حين وجد فرصته في جو جديد أكثر شبابا وإثارة، رمى أمي ورمانا نحن وتزوج من عازفة العود. لكن أمي كانت جميلة، أحلى البنات في عائلة ذات أصل عريق مضى وانتهى. فبعد جدي قاضي القضاة في الآستانة زمن الأتراك جاء أخوالي المنكوبين وما ورثوا إلا الجعصة. لكن أمي ظلت تحلم بالمجد القديم وتتباهى باسم العيلة،

وتتباهى أيضا أن أبي حين خطبها ورفضه الجد أول مرة وثاني مرة لأنه ليس قد المقام رغم الثروة، حلف يمينا أمام الأقصى ومئات الشهود أن وداد بنت المفتي ستكون له وإلا فالموت. وأصبح يتهدد كل عريس يخطبها حتى هربوا وما بقي إلا "الإجير ابن الحجار"، كما كان جدي ينعت أبي في ساعات الغضب والتحدي، لأن جدي كان قاضي قضاة ذو لفة، وجدي الثاني دقاق حجارة، ذو شروال بحجم البراشوت.

لكن جدي ذو الشروال اشترى منشارا من يافا وما عاد يدق الحجارة، بل صار يقطع صخور الجبل حتى هفاها، وهكذا صار غنيا. أما الآخر، ذو اللفة والختم والمقام الرفيع في الآستانة، وكان ضليعا في أمور اليهود والثقافة، فكان يقول: "ذاك الفاجر يبيع اليهود أرض بلدنا!" وكان يقصد أن جدي ومن بعده أبي كانا يبيعان صخور الجبل لبناء الدور في حي يهودي غرب القدس. ما علينا، أبي تزوج من أمي بعد صفقة ما زال يتغنى حتى الآن بطرافتها. إذ ان جدي ذا اللفة مات فقيرا، وورثه أبناء بلهاء لا أحد منهم لديه شيء يفاخر به إلا خالي ذو الخط الجميل. اشتراها بمئة مجيدية، أي ليرة ذهب من عيار ثقيل، تقاسمها الأخوة وابقوا لأمي فقط خمسة شكّتها بشريط من مخمل ووضعتها في رقبتها كدليل على منسوب الجمال وارتفاع الثمن.

وانظر الآن فلا أرى إلا صورة لامرأة كانت ذات جمال. شعرها مهمل وخطه الشيب، وجسم مليء مترهل ورقبة تتهدل في طبقات. ما زالت بيضاء كالملبن، لكنه بياض شمعي يخلو من الدم. ذهبت أمي تلك المرأة ذات الجمال والكبرياء والحيوية، وحلت صورتها الجديدة ذات

الثنيات والفجوات والتجاعيد. أهو فعل الزمن أم فعل الهمّ؟ كلاهما فعل فعله، لكن الهمّ هدّ ما بقي من الصحة والكبرياء والحيوية، وباتت رخوة بالكاد تقوى على الحركة. وها هي الآن تراني فتهتف: "إبراهيم! تأخرت!" وطوقتني بذراعيها فأحسست برجفات جسدها والعظم الهش. مسحت دمعتها وسحبتني، وسألت بقلق: " ها خبرني كيف الأحوال؟ احك أخبارك من الأول." وجلست وحكيت لها ما استجد من أمر الوظيفة والتدريس وأمر الغرفة وأكلي وشربي وغسيلي ومراسلاتي مع الجامعة وكيف سأحصل بعد بضع سنين على شهادة، قد تؤهلني لمنصب مدير. سألت بلهفة: "وترجع للقدس؟" أحسست بحزن لا أفهمه وهوى قلبي.

قبل المغرب رجعت أختي، كانت ما زالت تتجهز. همست ونحن نتعشى أن الوالد فعل شيئا، ولم افهم بقية الكلمات، لأن أمي سألت بغيظ: "ليش الوتوتة؟ هاتوا لنسمع." سكتت أختي، وقالت بخوف: "يعني ممنوع أسأل سؤال؟ ها يا إبراهيم كيف القرية؟ قادر تعيش وتتكيف؟" همست أمي: "الله يسامحك يا محمد!" وهي تقصد خالي ذا الخط الجميل، لأنه سبب رحيلي.

قالت سارة:

– هبّولته خطبت وخلصنا، ليش ما ترجع؟

قالت أمي بصوت آمر:

– لازم ترجع، يعني معقول أبقى وحيدة؟ خطبت وراحت وانتهى الأمر، وخالك مبسوط وطاير عقله، يعني خلصنا، لازم ترجع، الدار

obeikandi.com

فضيت، وبكره أختك تترك الدار، وأبقي وحيدة، لازم ترجع.

حزنت كثيرا لأن الأمر جاء هزيلا. أمي ما عادت ما كانت! أيام العز، أيام الجمال، أيام الشباب، كانت أمي ذات صول وجول. تقول الكلمة فتهزّ الدار، ونبدأ نتراكض في الممرات وعلى الأدراج، ونختبئ تحت الأسرّة وخلف الخزائن وفي الحمام. ما كانت تضرب أو تصرخ، فقط تنظر وتحدجنا بنظرة قوية كنظرات النسر فنتربّط، يربطنا الخوف ويخرسنا الحزن. كنا نحزن رغم صغرنا، لأن أمي كانت في حداد مستمر على مر السنين. ضربها القدر في أعز الناس وفقدت ابنا كان شعلة. هرب من المدرسة، وهو صغير والتحق بالحسيني وجيش الإنقاذ ثم استشهد على باب القدس ولم تعوضه إلا بي، إذ بعد استشهاده أصيبت بنزيف ومرض غريب يميت الأجنة فتجهضها. وهكذا بقينا قلة، عائلة صغيرة محدودة لا تشبع رجلا عربيا يطمع في العزوة وتكديس النسل. وهذا طبعا كان عذره حين تزوج. قال للناس: "أريد امرأة تلد رجالا." وأنا ما أنا؟ ألست رجلا؟ لا لم أكن، فقد كنت طفلا صغير الحجم شاحب الوجه ضعيف البنية فقير الدم. وكان أبي ينظر إلي وفي عينيه نظرة شك، وأظنه كان يتساءل عما إذا كنت سأعيش لأحمل اسمه. ولهذا قال حين تزوج: "لازم لي ولد يحمل اسمي. يعني إسماعيل يموت مقطوع؟!" "طيب وأنا؟" نشجت مرة فالتفت إلي وتفاجأ، ما كان يعرف أني هناك اختبئ وراء قطع العفش. قال بذهول، "أنت؟! أنت!" ونظر إلى الضيف بحيرة وأسف وهز برأسه، فدمدم الضيف: "لا حول ولا قوة إلا بالله!"

أما أختي فما كان لديها ما تقول، لأنها ليست رجلا، ولا حتى مشروع

رجل. كانت تسمع وتغض النظر وتهز كتفيها وتهمس بهزء: "هه، بدينا!"

أمي وأختي هما همي، فلو لم تكن أمي حية، للجأت إليه وعشت معه، ورضيت به وبأحواله وزوجته الجديدة، ودق العود، ولربما كان أرسلني إلى الجامعة الأميركية في بيروت ككل أبناء الوجهاء، ولكان أعطاني مما لديه ووفر علي هم القلة والعيش في غرفة قبيحة، لا تعدو أن تكون غرفة راع وزريبة غنم. لكني وبرأسي الحامي، وكتبي وتربيتي ومثال أخي، وقفت مع أمي وأنكرته، ومع الأيام تناسيته وتناساني وبتنا غرباء.

قالت أمي:

– أختك تريدك أن تذهب إليه (تقصد أبي)، وعدها بنقوط مهول وغرفة نوم.

وصمتت ولم تكمل ونظرت إلي، فنظرت بعيدا ولم أنطق.

قالت بغيظ:

– غرفة نوم! قال غرفة نوم! واحد مثله عنده أملاك وبيوت ومخازن وعمارات كان لازم يعطيها شيء محرز، على الأقل قدام الناس. لكن أبوك، اخص على ذكره...

وبدأت تكرج تلك الدعوات فهمست سارة، "هه، بدينا!" سمعتها أمي، فحدجتها وحملت إناء وذهبت به نحو المطبخ.

التفت لسارة أسألها:

– وما رأيك أنت؟

لم تنظر إلي، وقالت ببرود:

obeikandl.com

- رأيي أنا؟
قلت أذكِّرها:
- غرفة النوم؟
- أي غرفة نوم؟

في مواقف كهذه وحين تتبلد سارة أفقد عقلي وابدأ بالصياح، "أي غرفة نوم؟ ألا تعرفين أية غرفة؟ ألم تسمعي؟ ألست هنا؟" فتحملق في وجهي لثانيتين وتهز كتفيها وتهمهم، "هه، بدينا!" لكني الآن أحس بالخجل لأني غبت عن الإثنتين عدة أسابيع، ولأن مريم تملأني وتراقبني، ولأن سارة ستتزوج، ولأن أمي ستبقى وحيدة، وأنا لن أعود من القرية لحارات القدس، لأن روحي ظلت هناك، وحياتي هناك، والأدب هناك. باتت القرية بالنسبة لي ملجأ سحريا أهرب إليه واختبئ فيه من الدنيا ومشاكلنا، مشاكل أبي، مشاكل أمي، تمسحة سارة وأخوالي وعقد العيلة.

- قلت بهدوء وأنا أغيِّر دفة الموضوع،
- تريدين أن نذهب لزيارته؟
زيارة من؟
ابتسمت بصبر، ولم اغضب:
- زيارة الوالد.
صمتت لحظات ،وهي تفكر كأنما بشيء مهم وصعب جدا:
- إذا أردت.

راودتني الفكرة كلمح البصر: "لو كانت زوجتي لطلقتها من ثاني يوم، فكيف إذن يحتملها الزوج؟" هي لا تعرفه ولا يعرفها، يعرفها على الصورة والتلفون. أبي دبر الموضوع عن طريقه وعلى طريقته وأسلوبه. قابله في إحدى الرحلات، وتغذى معه، وسأله ماذا وكيف وأين وعرف منه أنه بثلاثة أولاد وبلا زوجة. أرمل أم مطلق، لا أذكر، لكنه بدون زوجة. سأله: "أُزَوِّجُك؟" قال الآخر: "ألديك عروس؟" قال الوالد: "بنت مليحة، كبيرة شوية، ٣٥، لكن ناضجة وتنفع أولادك وتقوم بك، لأتها ما شاء الله، من جميعه، حلوة وبنت ناس ومحترمة، ست بيت وخياطة وطباخة على كيف كيفك." ، قال الآخر: "وبتاخدني؟ عندي أولاد زي العفاريت." قال الوالد وهو يبتسم: "وهي عفريتة على كيف كيفك." حملق الآخر، وسأل: "نعم؟!" قال الوالد: "ذكية ومقتدرة وفنانة. اسمع مني بتشوف الخير." وصار النصيب على الصورة. قرأوا الفاتحة وكتبوا الكتاب على الصورة. أعطى العريس توكيلا لقريب له، وكتبوا الكتاب على التلفون وعلى الصورة. وحين احتجّت، قال الوالد، على التلفون: "كبرت يا سارة، عندك بديل؟ "سكتت سارة ثم همست: "على ٣ أولاد؟" قال الوالد: "طيب وماله؟ مدير شركة وشغله ممتاز وابن عيلة." قالت بوجل: "يعني أتغرب للصحرا؟" قال الوالد، وهو ما زال على التلفون: "أي صحرا؟! بحر بترول ونهر دولارات وشوية حر نتحملهم وأنا من عندي، ألك عندي أني أجهزك من البابوج حتى الطربوش، ها شو قلت؟" بدأت تلين وتستعيد عقل الشروال وتساوم: "ومع غرفة نوم؟" ابتسم الوالد على التلفون: "طيب وماله، ومع غرفة نوم. لكن الغرفة كيف توصل؟؟ أو أقول لك؟ تاخدي الفلوس على الناشف وأنتِ حرة، غرفة نوم غرفة سفرة أنتِ حرة، ها شو قلتِ؟"،

قالت: "طيب." وكتب الكتاب . . على الصورة.

تأملتها وأحسست بحزن، خفت عليها من غدر الزمن، خفت عليها من غدر الرجل، خفت عليها من مثل أبي، فماذا تفعل لو طلقها؟ ماذا تفعل لو لم تعجبه؟ ماذا تفعل لو وجدت أولاده كالعفاريت؟ هي لا تعرفه! على الصورة! أية زيجة؟ أي تفاهم؟ كل ما رأته من ذاك الزوج كان صورة.
أمسكت يدها، وقلت بحزن، "أنتِ متأكدة يا سارة؟"

نظرت إلي نظرة طويلة، ورأت حزني، فذاب البرود، وظهر الباطن، وقالت بخضوع واستسلام: "عندك بديل؟" قلت باندفاع: "وتعيشي حياتك على الصورة؟" قالت همسا: وكأنما تفضي بسر: "ومين منا عايش حياته؟" وسحبت يدها، ووقفت ببطء، وقالت بتأمل واستسلام: "صورة بصورة!"

*****

ضربتني الفكرة وسط الليل وأصابني أرق مطبق. صورة بصورة. تلك الفكرة، أي واقع! أية صورة! أمي صورة! وأبي صورة! وسارة صورة، وخالي صورة، وابنة خالي. وأنا أيضا مثل الباقين، أعيش وأموت على صورة، وأحب وأعشق وأتعذب وأذوب وأفنى في صورة. فمن هي مريم؟ لا اعرفها، لا تعرفني، لكني أموت على امرأة اسمها مريم. أسمع الاسم، فأتغنى وينطلق الفؤاد كفراش الصيف، أبيض مندوف

obeikandi.com

يتطاير مع نسيم الصبح وعبير الورد. أستيقظ صبحا، وأردد: "مريم، مريم" وأتخيل مريم في حضني بين ذراعي، فأكويها بتباريحي، وأنا أتمرغ وأتنهد وأشهق، وأئن، وأقبِّلها بملء شفتي، ملء ذراعي، ملء ساقي وأعصابي. ذاك هو الحب لشاب مثلي، وذاك هو العيش لمثل سارة، ومثلي أنا ولأمثالي ومثل الجميع ...مثل سارة. لا نحيا حياة في الواقع ونستبدلها بصورة حياة في صورة. صورة بصورة.

4

عدت إلى القرية يوم السبت، ويوم الأحد صعدت إلى الهضبة لأرقبها، ويوم الاثنين تحينت فرصة دخولها المكتبة، وذهبت بكتاب لأعيده. حييت ايفون وحييتها وأعدت الكتاب. قالت ايفون إن القسيس سأل عني، يريد الذهاب إلى بيروت، فهل أتمكن من إعطاء دروس بدلا عنه؟، سألت بتردد: " أمَا من بديل ؟" قالت ايفون إن الدروس بالعربية وان العربية ليست لها. . لغتها مكسرة وركيكة. والتفتت إلى مريم، وسألت بمزاح: "يمكن أنتِ!" ابتسمت تلك ونظرت إلى ايفون ثم إلي: "أنا، موش ممكن." وسمعت اللكنة الغريبة وصوتا عريضا مهروسا فيه بحة فطار صوابي. أية موسيقى كانت تلك؟! أية بحة! والتفتت إلي: "ممكن أنت تعطيني دروس؟" كلمات واضحة سليمة، لكن اللكنة الغريبة زادتها سحرا وغموضا.

حاولت ايفون التدخل لمنع الأمر ونظرت إلي وحدجتني، ففهمت النظرة وتجاوبت، وقلت بتهرب وبلا تحديد: "ممكن، يمكن، خلينا

obeikandl.com

نشوف." قالت بالحاح: "ممكن إيمتي؟" قلت بتردد، وقلبي يدق: "ممكن بعدين، خليني أشوف."

وفي يوم الأحد التالي، وكنت أرقبها من الهضبة، رفعت رأسها ونظرت إلي نظرة طويلة كما لو كانت تقول: "انا أراك، أنت موجود. أنا أحسك." فاضطربت نفسي وأحسست بخجل من ضبطوه يتلصص على أسرار الناس. تلك المقبرة عالمها، مكان لقصة حزن كبير تحسه هي، قبر أخيها، وربما شخص آخر غير أخيها، فما دخلي أنا؟ ولماذا أتلصص عليها. وذاك المساء جفاني النوم لا من الحب، بل من الخجل، لأني ضبطت، ولأني أرى نفسي بعينيها هي، وهي تراني لصا مختلسا يتطفل على عالمها من غير خجل. وقررت قرارا حازما وعدت النفس بتنفيذه، ألا أراها وألاحقها، وان أكف عن التردد على الهضبة ومراقبة الكنيسة والمقبرة. لكن دروس العربية وما أوصاني به القسيس! أو ربما كان ذاك مجرد عذر اختلقته حتى أبرر لنفسي كسر وعودي ومروري المتعمد من المقبرة. لكني بالطبع كنت أمر في أيام غير يوم الأحد. أمر كما لو كنت أمر بأطلال ليلى وقصة حب طواها الزمن، لكن صداها ما زال في عمق القلب ويوجعني.

وفي يوم ما غير يوم الأحد، وكنت أقطع ممر الكنيسة، رأيتها بجوار القبر تحت اللزاب في احمرار الغروب، وبالأسود ووشاح الرأس. كانت تبكي. وسمعت نحيبا موجوعا ينسحب كخيط رفيع حاد من صدر أثقله الحزن. وقفت هناك كالتمثال أتأملها وأنا مذهول. فاجأني الموقف، وهزني المشهد وجمال الصورة والتكوين. قبور ولزاب

وصلبان، وباقات زهور ونباتات ذات أوراق مسحوبة من الصبار، وزهور بيضاء ذات شذى ورائحة المساء وفوج حمام، وسكون شامل إلا النحيب وزقزقة عصافير وخشخشة هنا، وارتطامة هناك، تصدر عن ورقة أو رفة جناح. ظللت واقفا بضع دقائق، ثم اقتربت فأحست بي والتفتت إلي. رأيت الدموع، فغضضت النظر، ووقفت هناك رهن إشارة. بقيت واقفة أمامي، مكشوفة الوجه، وكأنما عارية الوجه، عارية الصدر، عارية الجناح والخفايا. اقتربت أكثر فلم تتحرك، أكثر وأكثر، فهبطت أمامي على حافة قبر، وجلست وانطوت وعادت تبكي. بقيت واقفا أمامها بضع لحظات لا اعرف ما أقول وما افعل. وأخيرا جلست على قبر آخر قريبا منها. وطال الجلوس وانقطع البكاء وحل سكون، وبدأ الليل يرخي سدوله، وهي هناك ووجهها في كفيها. ثم تجرأت ومددت يدي، فأحست بي، ومدت يدها، فأمسكت بطرف أصابعها، وأنا انهض، فنهضت مثلي، ثم مشينا وأصابعها ما زالت معي، وأنا أمشي وهي تمشي بصمت واجم، حتى وصلنا مفترق طرق، فوقفت هناك وضغطت كفي، فوقفت أتابع ما تريد وما تأمر به. ولم تتكلم، فقط أشارت بإيماءة خفيفة من رأسها أن الفراق سيكون هنا، هي من طريق، وأنا من آخر. ومشت، فبقيت أتأملها، حتى ابتعدت ثم استدرت، ومشيت في الدرب الآخر.

ذاك المساء جفاني النوم، عدت أتخبط في حالة عشق لا يرحم، وصور ومشاهد وأحاديث وقُبل وعواطف تتفجر. حكت لي سبب فجيعتها، حكيت لها سر غرامي، قصَّت علي قصتها، قصة الدير، قصة الهرب، قصة الموت وأخيها، قصة الغربة وأخوتها والبرازيل، وعالم غريب

لا أعرفه بل أحلم به، غابات خضراء استوائية، ومزارع قهوة وموز وهال، وقرود تقفز بين الشجر، وأناس عراة وشبه عراة، ورقص وحب وموسيقى على الأرصفة وفي الطرقات وفي الغابات والشوارع. أين كانت؟ كيف عاشت؟ هل أحبت؟ ولماذا الدير؟ ومع كل سؤال وجدار مغلق من الأسرار يزداد العشق. ومع الصباح وصياح الديك ورنين الجرس من المدرسة انتبهت لوضعي الغريب العجيب، فانطلقت أسابق قرع الجرس، ووصلت صفي، فوجدت المدير يضبط الفوضى ويضبطني متأخرا مشوشا بوجه مصفر غير حليق، فتساءل: "مالك؟ مريض؟ ساخن محموم؟ خذ إجازة." فهززت رأسي بحنق وغيظ، وقلت همسا: "لا، معلش" وأمسكت فورا بالطبشورة، وبدأت أكتب درس اليوم.

وفي اليوم التالي في نفس الوقت، قطعت الممر وراء الكنيسة، ورأيتها في نفس المكان تنتظرني، هذا ما تخيلته في ذاك الوقت، ولهذا اقتربت، وجلست هناك على نفس القبر في نفس المكان مثل الأمس، ومثل الأمس لفتنا السكينة واللزاب وهدوء المكان وظلال المغرب والعتمة.

قالت همسا:

– أخي هذا مات بسببي.

رفعت عيني، فالتقت عيناي بعينيها. ورأيتها تهرب مني وتلوي يديها ورقبتها كما لو كنت أحاكمها.

قالت بأسى:

– أنا لم اقصد، أمي تعرف، لكن الناس يقولون أشياء مخيفة. ألم تسمع؟.

وحين لم أجب واصلت:
– أكيد سمعت، أكيد، أكيد. أنا اعرف، لا بد سمعت.
قلت بارتباك:
– أنا لم اسمع.
ونظرت إليها، وقلت بتأكيد:
– لكني هنا أسمعك أنت. المهم أنت. ماذا تحسين؟
ضمت كفيها إلى صدرها، وقالت بحيرة وتهدج:
– أنا لا أعرف. أحيانا أحس أني المسؤولة عما جرى، وأحيانا أحس أني ميتة مثلي مثله. أنا ميتة، وهو ميت. أنا فوق الأرض، وهو تحت الأرض، لا فرق كبير. هو كان مريضا وضعيفا، وكان سيموت على أية حال. قال الأطباء لنا هذا. أمي تعرف، وأنا اعرف، وأخوتي يعرفون، وأنا، وأنا، أنا أعرف، لكن لماذا أحس بأني السبب؟
ونظرت إلي بانتظار جواب، وحين رأتني صامتا لا أجيب، قالت بغضب:
– أنا لست السبب، كان مريضا، فلماذا أحس بأني السبب؟
قلت مهدئا:
– أنت لست السبب. إن كان مريضا كما تقولين ومهددا بالموت كما قالوا، إذن بالطبع أنت بريئة.
ابتسمت بسخرية واستنكار:
– أنا بريئة؟

ونظرت إلي نظرة غريبة. عيناها فيهما شيء غريب، فيهما تحد أبعد ما يكون عن البراءة والطيبة. عيناها، عيناها، أو ربما هذا ما تخيلت. إذ أن

الجمال، وسواد العين، وارتفاع الحاجب واختباء البؤبؤ في الأهداب... شيء غريب. أحسست بشيء لا أفهمه. شيء ساحر، شيْ مبهم، لكنه ملك حواسي وأجج فضولي وأشواقي.

قالت بشك، وهي تتفحصني وتحاول جاهدة أن تعرفني:
– أنت كاتب، ألست كذلك؟
ابتسمت بأسى:
– أنا كاتب؟ أنا مدرس، أُدَرِّس فقط، ولا أدَّعي عكس ذلك.
تفحصتني بعدم تصديق:
– لا، لا تنكر، أنت كاتب. القسيس قال، وايفون تقول إنك كاتب.

أحسست بشيء من الارتياح، أو ربما أرضي غروري أن اعرف بين هؤلاء الناس أني كاتب. وشيء آخر هام جدا أني أريد أن أبدو لها شيئا هاما، شخصية قوية، ورجل كبير لديه قدرات رغم فقره، ورغم التدريس في مدرسة حكومية لا شيء فيها يثير الحماس، زجاج مكسور، والحمامات، وتراب الساحة، وسقف يسيل، وتلك الغرفة – بيت الراعي! ومع كل ذاك أنا كاتب! شيء جميل، دعنا نحلم.

قالت باهتمام فيه سذاجة:
– كيف تكتب؟

حرت جوابا. كيف أكتب؟ أنا لا اعرف كيف أكتب. أمسك بالقلم

obeikandl.com

وأكتب أشياء أعرفها وأحس بها وألاحظها. أرسم الناس، أرسم الشجر واللزاب وصوت العصافير، وهذا القبر وهذا الصليب، وأنت هنا أسمع صوتك، وأرى الأشياء من خلالك. أنا أرسمك. ارسم ما أرى. أرسمك لي. أرسمك فيّ. أرسم نفسي.

قالت بعتاب:

-كيف تكتب؟ ألا تريد أن تقول لي كيف تكتب؟ أنا اقرأ. أقرأ كتبا بثلاث لغات أو أربع.

التفتّ إليها مبهورا:

- أربع لغات؟!

سارعت بالقول لتفحمني، وتجعلني أصدق أنها مثلي ذات فهم وذوق، فأنا كاتب، وهي تقرأ، تقرأ كتبا بثلاث لغات أو أربع.

- ثلاث ونصف.

وأخذت تعد على أصابعها:

- عربي وانكليزي واسباني وبرتغالي.

قلت باسما،

- وأيها النصف؟

حدجتني باسمة،

- تسخر مني؟

هززت رأسي نفيا:

- لا، لم اقصد، لكني فعلا أغبطك. يا نيالك!

-يا نيالي؟!

ابتسمت بحزن ورددت بأسف:

obeikandi.com

– يا نيالي!

– طبعا يا...

ونظرت إليها، فأجابت بسرعة:

– ماري، ماري. أقصد مريم. هناك فقط اسمي ماري، وهنا بالطبع اسمي مريم. اسمي مريم.

قلت باسما:

– إذن نيالك يا مريم!.

حدجتني بشك:

– أنا نيالي؟ ليش نيالي؟

تأملتها، وبدأت أعد على أصابعي كما فعلت هي:

– عربي وانكليزي واسباني وبرتغالي، ولك اسمان: ماري ومريم، ولك وطنان، هنا وهناك، ولك عينان، ولك هذا الوجه، أنت جميلة.

نظرت إلي تتفحصني بنفس النظرة:

– تسخر مني؟

هززت رأسي، وقلت باندفاع، وقد بدأت كبوتاتي تطفو على السطح:

– أنا اسخر منك؟ أمن المعقول أن أسخر؟

قالت بشك:

– أنت كاتب، وبعض الكتاب يسخرون من الناس، فأتضايق.

هززت رأسي:

– لكني أنا لست بكاتب. أنا هاو فقط.

رفعت يدها:

– لا، لا تنكر، أنت كاتب. قال القسيس أنك كاتب، وأنا أصدق ما قاله. هذا القسيس رجل فهمان، وأنا أصدقه.

obeikandl.com

– فهمان، فهمان؟!

لوت كفيها وغرّبت عينيها، وهي تحاول إيجاد الوصف:

– يعني، يعني، يعني رائع، يعني ممتاز، يعني يفهم. يفهم الناس، ويفهم الحياة، ويفهم الموت، ويقول أشياء جميلة. رجل فهمان، يعني يفهم، هل تفهمني؟

هززت رأسي أوافقها:

– طبعا أفهم، فهو ممتاز.

–وهل تصدقه؟

– طبعا أصدقه.

– إذن لماذا تنكر ما يقول؟ يقول القسيس أنك كاتب، وأنك تكتب أشياء جميلة وعظيمة.

– عظيمة؟ ما هذا الوصف؟

أحسست بالغبطة وملأني الغرور، لكني ادعيت التواضع أمام المرأة، أمام الفتاة، أمام الأنثى.

قالت باقتناع:

– هذا ما يقول، وأنا أصدقه، وهو يقول أنك ستكون كاتبا هاما. هذا مهم. مهم جدا. ألا تعتقد أن هذا مهم؟

بدت ساذجة وصغيرة، وبدأت هالتها تتلاشى، لكن جمالها ازداد كثيرا، وهي تتحدث بتلك اللهجة والرطن الخفيف، فازددت اندفاعا للوصول إلى طرف الخيط.

وعادت تسألني بإلحاح:

– كيف تكتب؟

obeikandl.com

ابتسمت ثانية ولم اجب، فاندفعت بحماس:

– لو أني اعرف لغة الناس لكتبت للناس أفظع قصة. سأكتب لهم قصصا ضخمة، لكن يا خسارة! لا أعرف.

قلت باندفاع:

– لدي الحل. أنت تحكين، وأنا اكتب. ها، ما رأيك؟

نظرت إلي، نفس النظرة المتشككة الحائرة ولم تجبني.

أعدت بإلحاح:

– لن أحكي لأحد، فقط أكتب، وأكتب بابهام دون أسماء ودون أماكن ولن يعرف أحد ما أكتب. ها، ما رأيك؟

ابتسمت أكثر. اتسعت الابتسامة حتى كادت أن تصبح ضحكة، ونسينا أين نحن وما كنا نقول وكيف بدأنا. بدأنا بالحزن وبقصص الموت وكلام الناس وتهم الناس، وها نحن نتبادل الابتسامات ونتعارف ونحكي ونحكي بدون انقطاع. لحظات كهذه كيف تمر! لو أن الزمن يتوقف. لو أن الدنيا تتوقف. لو أن الناس والقرية وجبال القدس وهذا الصليب وقبر الأخ وهي أمامي. هذا المهم، هي أمامي في لحظة عمر.

5

بت أراها في كل مكان، في المكتبة، عند القسيس، عند البقال وفي الممرات

obeikandi.com

وأنّا ذهبت. هل كانت هي تتقصدني؟ طبعا أنا كنت، ولكن هي؟ هل كانت تقصد أن تراني؟ لم اعرف أبدا ولن اعرف. بت أعرف أين تروح، وأين تجيء، ومن تزور، ومن تتجنب. وأحسست أيضا أنها هي تعرف عني وعن عاداتي ما لا يعرفه أحد آخر، إذ بت أراها من الشباك في مدرستي، وأراها أيضا عند البقال، وأنا أجلس ساعات العصر، وأراها في المكتبة عند ايفون، وأراها بالطبع في المقبرة، وهي تراني فوق الهضبة، فأدعي القراءة والانشغال بكتاب ما. بتنا عاشقين على البعد، أو هكذا تهيأ لي. وفي يوم ما، وكنت في طريقي نحو سيارات القدس وجدتها هناك أمامي. ابتسمت وابتسمت، وقالت ستنزل القدس لتتسوق. ستشتري ثوبا فلاحيا تلبسه في عرس فلانة. وسألتْ برجاء: "تذهب معي؟" قلت: "بالطبع." وجلسنا متلاصقين في المقعد، فأحسست بروحي تكاد تطير، والسيارة تطير، فيطير الشعر الحرير ويلطم وجهي كرف سنونو، وفراش الصيف، وعبير القمح والصنوبر، ونسيم الصبح، وهي هنا تلتصق بي، كتفها لصق كتفي، وحضنها لصق حضني وفخذها لصق فخذي، أي إحساس! وكدت أموت من النشوة. أنا لا اذكر بعد كل السنين وقصص الحب التي مررت بها أن امرأة استولت علي كما فعلت. أهي الشهوة؟ أهو الحرمان؟ أهو الممنوع؟ أم لأني كنت بعد بريئا إلى حد ما. طبعا في العمق قلبي ما كان، لأني دست في الخفاء كل محرم. مارست معها كل خيال، وكل وضع يخطر بالبال. لكن على الأرض وفي الواقع ما كنت أكثر من مكبوت، مراهق كبير في العشرينات ولا يعرف إلا الأحلام والقراءة وحارة كئيبة في قلب القدس حول الأقصى ثم التدريس في القرية. أما هي، فأربع لغات، وسبعة أخوة، والسبع

بحور، والبرازيل، وفيلا جديدة بنتها أموال الغربة، ومال وفير.

وصلنا السوق، ودخلنا من باب العامود. وبمجرد أن وطئت قدماها عتبة البوابة والزاروب صارت مريم مريم أخرى، صارت ماري. سائحة مجنونة مذهولة تشهق وتصيح وتناديني "إبراهيم، إبراهيم، شوف ما أحلاه!" "إبر هيم، إبراهيم، عمرك شفت هيك؟" "إبراهيم، إبراهيم، ادخل من الباب، تعال تفرج." وكنت أذوب في جلدي وأحس بالعرق يغطيني وأنا أرى الناس يلتفتون، والباعة هذا ينادي، وذاك يؤهل، وثان يسهل، وثالث يقول: "welcome welcome". ورآني زميل كان معي في الثانوية، فضحك لي وغمز بعينه: "صايد صيدة؟ شقفة نظيفة!" فتجهّم وجهي ولم أجبه، ودخلت وراءها أتدارى بين الأثواب والجلديات وزجاج الخليل. التفتت إلي وهي تمسك بثوب نبيذي مطرز بألوان النار: "شوف يا إبراهيم، لايق عليّ؟" هز البائع رأسه بانشداه، وقال بحماس: "إلا لايك! والله العظيم أليَك من هيك لا عمره صار ولا عمره بصير." فوقفت في الزاوية أمام المرآة، وهي تتمايل بالثوب وترفعه حتى كتفيها، وتميل برأسها لهذا الجانب، ولذاك الجانب، وتسترق النظر إلى وجهها، فتقوّس حاجبيها، وتضم شفتيها، وترفع ذقنها كما لو كانت تتخيل أنها تمشي في موكب أميرات وملكات جمال. كانت مشدوهة بذاك الثوب، ومشدوهة أيضا بصورتها. فصاح البائع مبهورا: "مثل الصورة!" وأشار لصورة امرأة تلبس ثوبا فلاحيا مطرزا وتضع على رأسها الغطرة والمجيديات. فضحكت بغنج، وكشفت أسنانها الجارحة، وسألت بدلال: "زي الصورة؟" والتفتت إلي، وكنت أراقب ما تفعل: "ها يا إبراهيم، زي الصورة؟" ولم أجبها، فقد كنت

أقارن وأراجع كل ما رأيت وما سمعت وأتساءل، أية صورة؟ صورتك الباكية أمام القبر؟ صورتك الشاردة عند القسيس؟ صورتك المختلطة عند الناس؟ أم صورتك هنا في هذا الثوب ومخيلتي؟

ودخلت وراء الستارة، لتقيس الثوب وخرجت إلينا كالملكة. شعر حالك، بشرة بيضاء، وعنق مسحوب كغزالة، وخصر دقيق كالخيزران تحت زنار الصايا، وذاك الحيوان ما زال يصيح: "زي الصورة! زي الصورة!" فنسيت خجلي، وابتسمت، وهمست مسحورا مبهورا: "فعلا صورة!" وكدت أخرّ على ركبتي.

منذ تلك اللحظة، فقدت الحياء، وبت عبدا طيّعا أسايرها وأجاريها وأنفذ كل أوامرها. تقول لي: " يا الله ناكل" فأقول لها: " يالله ناكل." تقول: "يالله نشرب" فأقول لها: "يا الله نشرب." تقول لي: "يا الله نفوت هون ونتفرج." ، فأدخل وراءها من غير نقاش. دخلنا دكاكين لا تحصى، واشترت أشياء لا عد لها، اشترت صلبانا خشبية وصدفا ومسابح وفضيات. تخرج محفظتها وتنعف دولارات. أحيانا نتوقف عند الصراف لنصرف دولارات لدنانير، وأحيانا نشتري بدون تصريف. في البداية، حاولت أن أدفع عنها، أو تظاهرت، ثم أمسكت، إذ كان من الواضح أن النقود لا تعني بالنسبة لها شيئا هاما، وكانت تصر على الشراء، وتقول بتشف وشماتة: "يا الله، خليهم، لا حدا حوّش." في البداية لم افهم ما تعنيه تلك الجملة، فسألت بفضول: "خليهم؟ من خليهم؟" فوقفت في الخان وسط الزاروب، وضحكت بنزق: "لا تعرفهم؟" المردة السبعة وسنو وايت، ألا تعرفها؟ ألا تعرفهم؟" قلت

بحيرة: "المردة السبعة أم الأقزام؟" ضحكت بخبث: "فعلا، فعلا، سبعة اقزام"، قلت محققا: "وانت سنو وايت؟" حدجتني بإغراء وتحد، وقالت بنزق: "انا سنو وايت؟ أنت قرر." احترت جوابا ولم أنطق، أهي سنو وايت أم جبينة؟ قلت أداور: "سنو وايت بالعربي هي جبينة." قالت بذكاء: "وماري بالعربي هي مريم." حملقت في وجهها وأنا أكاد آكلها: "وأنتِ سنو وايت أم جبينة؟" قالت: "احزر." هززت رأسي ولوحت يدي، وقلت ملخوما: "لا أعرف!" لكن لخمتي ازدادت أضعافا مضاعفة حين ضاعت مني في القيامة. دخلنا مع فوج السياح، وغرقنا في طوفان الناس. شمع وبخور وأعمدة كثيرة وأدراج رفيعة ملتوية وعتمة وسقوف شاهقة لقباب تعششها عصافير وأسراب حمام. قال راهب لفوج السياح: "هذا الطريق إلى الجلجلة." فمشوا ومشيت اتبعها، أو هكذا خيل إلي. رأيتها تلحق بالفوج، فسرت ببطء في الخلفية أتأمل هذا وأتأمل تلك، وأسمع اللغط المهموس والرطن الغريب بكل اللغات. أسبان يونان وأميركان، وفوج حجاج من الحبشة، وآخر من مصر. عالم واسع في هذا الكهف! كهف وكهوف وسراديب وقباب وأعمدة من مرمر. أمن المعقول أن هذا العالم في بلدي وأمام عيني ولا أعرفه؟! طوال عمري وأنا أمر من أمام هذا المعبد، ولم يخطر لي في يوم ما، إن من حقي أن أدخله. ربما لأني اعتدت على فكرة أن الكنيسة ليست لنا، بل لهم هم. لنا الأقصى ولهم هذه. دخلت الأقصى مئات المرات حتى بت أعرفه عن ظهر قلب، أما هذه، أما هذا، هذا الفيضان والطوفان والعالم، هيئة أمم، أنا لم أدخلها حتى الآن! وسرت بطيئا مع الفيضان، وإنا أحس أني أغوص في جو غريب، جو قصصي والتاريخ، وكهوف الزمان، وقصة مريم وابنها المصلوب على الجلجلة، وخشب

الصليب. وناديت همسا: "يا مريم." لكن مريم ما كانت هناك، لا بين فوج من اليونان ولا الأقباط ولا الحبشة. "مريم، مريم." وصعدت الدرج، واخترقت صفوفا تضيء الشموع، وخوري يفسر لثلة رهبان عن المصلوب، ودرب الصليب وأمه تتبعه إلى الجلجلة تبكي وتنوح وتتوارى من الرومان وأفراد الجيش. "مريم، مريم!" بهذا الممر، بذاك الدهليز والسرداب والمذبح، ثم مذابح، هذا لذاك وذاك لهذا وأمم وطقوس وطوائف، وملابس غريبة لرهبان برؤوس حليقة، وراهبات بأغطية رأس كأجنحة الحمام، والأرثوذكس بلحى وشعور في كعكات. ما هذا الجو؟! كأني غريب في عالم مسحور، أتوه فيه ولا أعرف أين طريقي، وأين أبحث، وكيف أصل. "مريم، مريم." ثم كانت هناك في زاوية ما فيها تمثال للعذراء. كانت هناك على بنك خشبي، ووجها نحو العذراء، ويداها مشبوكتان وتصلي. مشيت على رؤوس أصابعي، وجلست على بُعد خطوات منها. كانت الزاوية خالية تماما، وسكوت مهيب ونور شحيح ينساب من زجاج ملون قرب السقف، وشموع خافتة ترتجف من الرطوبة وتيار الهواء. وسمعتها تنشج وتقول: "يا أم يسوع، يا أم يسوع." لكن العذراء لم تجبها، وظلت صامتة واقفة لا تبدي التفاتا ولا حركة، وظلت تبتسم بلا تحديد. وسمعت مريم تشهق وتئن، فاقتربت بخوف، وجلست بجوارها، ومددت ذراعي على المسند، وبدون كلام ولا مقدمات ولا تمهيد، وجدتها لصق صدري، تخفق وتنوح وتهمس بكلمات لا أفهمها. فضممتها بنفس الذراع، وبقينا هناك بدون حراك، حتى سمعنا صوت الأجراس وجوقة إنشاد تهدر في السقف وتهز أركان المعبد. فمشينا معا، وخرجنا بصمت، وهي لصقي وكأنها جزء مني. ومن هناك صعدنا الأدراج إلى الحارات

والأزقة، ودخلنا ديرا للأرمن، وفي إحدى الزوايا تعانقنا حتى ارتطمت فجوات العظم. وكان لي أول عناق مع امرأة غير أمي، وبالنسبة لها، هل كنت الأول أم الثاني؟ لست ادري، ولهذا بقيت بلا تحديد ولا اعرف كيف أتصرف، هل آخذها بطلة قصة أم استوعبها كبني آدم؟ لكني في ذاك الوقت، وكنت أكتشف عوالمها، غرقت فيها بكل خلاياي، وما ترددت ولا لحظة أن أعيش التجربة حتى الموت.

دخلنا الدير ومنه إلى حارة غريبة. هي حارة فقط ضمن حارات لأقليات من كل الجهات، أرمن، يونان، روس، ألمان وأديرة كثيرة وكبيرة، حين تدخلها تصبح حارات. أدخل من دير وأخرج من دير، وهي أمامي ولصق ذراعي. أكتشف عوالم سحرية تختبئ بعيدا تحت الأرض. وأحيانا أراها مغروسة على قمة جبل بين الزيتون. وفوق قمة جبل الزيتون والقدس تنداح ككف اليد، حكت لي قصة غربتها، فهي غريبة في أرض الوطن، وهي غريبة في تلك الأرض. وهي وحيدة بين الأخوة، وهي وحيدة بين الأغراب. لا تجد نفسها إلا في القدس، ودير مظلم تختبئ فيه من الدنيا، ورقابة الأهل والأخوة. تحب الرقص، وتحب الله، وتحب أن تلبس كل جميل، وتشاهد صورتها في المرآة. أحبت راهبا في تلك البلاد، وكادت تخرجه من ديره.

"كان جميلا،" قالت بهدوء وكأنها تروي قصة قرأتها منذ سنين. "كان أجمل من أي رجل ومن أي شيء في العالم. يحس الأشياء ويتفاعل حتى البكاء وأرى الدموع في عينيه ولا أصدق، أهو رجل؟ أهو امرأة؟ أهو ملاك في شكل رجل؟ واستولى علي، بات الكابوس والهاجس. بات

حلما ورديف الدير. أدخل وأراه من خلف الزجاج يعزف البيانو أو الأرغن، فأطير معه. أدخلني عوالم سحرية وما عدت استطيع العيش بدونه. أتصدى له وهو في طريقه لصلاة الصبح، وأتصدى له وقت السياح. أدخل صفوف تدريسه، وأحضر حصصه بدون استئذان. يراني جالسة بين الطلبة، فيغض النظر ويدعي عدم الرؤية. دخلت في جوقة الإنشاد لأجل عيونه. يسمع صوتي، فيصغي بخشوع كما لو كنت ملاكا أثيريا لا ملمس له. أشعرني أني مجرد لا شيء، تجاهلني، وإذا حدث مرة وتقابلنا وجها لوجه يحكي بهدوء وبصوت رقيق مؤثر، كحمل وديع. أثار جنوني. كان الجميع يتوددون إلي ويطلبون رضاي، إلا هو. كنت أراه تحت الشجرة يقرأ الكتب ويتأمل. يقرأ ويتأمل ويصلي ثم يعزف. يخرج أشواقه ويطفئها حين يعزف. أسمعه، فأهرب من صفي وأتلصص خلف زجاج الباب. رآني مرة أسترق السمع وأسترق النظر، فقال بلطف: "تحبين باخ؟" فكرهته. ألا يشعر بي؟ ألا يحس؟ ألا يفهم؟ ثم أرسلت له رسالة صغيرة، وضعتها في كتاب النوتة فلم يرها. أعدت كتابتها، وغيرت التاريخ، ووضعتها على كرسي البيانو، فأزاحها دون قراءة. أمسكها بيده ووضعها على البيانو فوق الكتب. وضعتها في كتاب قدمته له، فأعاد لي الرسالة، وقال بلطف: "رسالتك هنا لا تنسيها." كرهته أكثر وقدسته، بات قديسا، وأنا تاييس. قرأت تاييس فهجت ومجت وحاولت أن أفعل ما تفعل. ثم أرسلت الرسالة مع ساعي البريد، فاختبأ في الدير وتحاشاني طوال أيام. طوال أيام لم يره أحد. قالوا مريضا، فذهبت إلى المشفى لأتجسس، وما كان هناك. ثم جاء المهرجان، وكان يرأس مسابقة للزهور. دخلت المسابقة دون علمه، وفاجأته بأجمل باقة. أجمل باقة رأتها عيناه وأروع أزهار، هذا ما قال،

لكنها خارج المسابقة، لأن الأزهار من الخارج. ورأى الجميع يلتفون حولي يواسونني، ويبدون الإعجاب، رغم عدم الفوز، فانتظرهم حتى انفضوا، ووقف يتأمل ويتفحص، ثم فسر: "جميلة فعلا، بل الأجمل، لكن الأزهار من الخارج." وأمسك بصليبه وقبَّله ثم استدار واختفى بين حشود الناس. ثم ضبطته. ذهبت إليه قبل العشاء، وكان يقرأ في مكتبه، والساحة خلو من الطلبة ومن الرهبان. نقرت الباب، ودخلت عليه. ضبطت أعصابي وواجهته. قلت المسيح له مريم، وأنا مريم. فوجئ بوجودي وكلماتي، وحملق يستوعب ما يسمع، فأعدت عليه: "المجدلية كانت له." كيف تجرأت؟ لا أدري. لكني كنت مشدودة من رأسي حتى قدمي. كنت أشد أسناني وقبضتيّ وعضلاتي. كنت أحس برأسي خاو مليء بالقطن. ثم ركعت عند ساقيه، وقلت له: "أنت حبي الكبير، أنا أحبك." كانت المفاجأة كالصدمة، فكسرت ما بقي من جَلَده، وبات طريا مثل عجينة. أمسكت برأسه بين يدي، وقبَّلت عينيه وخديه، ثم شفتيه، فاحتواني بين ذراعيه وقبَّلني. لم يكن تقبيلا بل نهشا، بل وحشية. كان يريد أن يكرهني وأن يلقي بي في جهنم، لكني كنت بين ذراعيه. وذاب وذاب مثل الشمعة ثم انفرط مثل عنقود. انهار بكاء مثل الطفل وأخذ يرتجف كالعصفور. أحببته أكثر وعاهدته أني سأظل على حبه، وإن أراد، أصبح راهبة من أجله. ابتسم بحزن، وتساءل: "أنت راهبة يا ماري؟" قلت بإصرار: "بل المجدلية، أنا مريم."

وكان ما كان، رأونا نتعانق في الظلمة، فنقلوه إلى دير في أقصى الجنوب عند الهنود وثكنات الجيش. وأنا طردت من ذاك الدير، واعتقلوني في قبو البيت. وبعد أشهر أدخلوني ديرا آخر تديره أقسي الراهبات.

حاولت أن اهرب وألحق به، لكني فقدت كل اثر له. فقدت الرغبة في الحياة، وجئت هنا رغما عني. قالوا كَبُرت، والبلد هناك أحسن وأستر. هناك تتزوج مثل كل البنات وتحبل وتلد وتنشغل عنه. وها أنا هنا، رغما عني، لكني هناك، ما زلت هناك، بعقلي وقلبي وإحساسي، وليلا نهارا أفكر فيه.

"تحبينه؟" سألت بحزن، لأني تأثرت من قصتها، ولأني أحسست أنها تعانق فيّ رجلا آخر، رجلاً شفافاً، طيف أثيري لا أراه ولا أقدر عليه.

قالت بأسى: "سأصبح راهبة من أجله." تأملتها، وتذكرت تقوس حاجبها أمام المرآة، وهي تتمايل بذاك الثوب تحت الصورة، فسألت بخبث: "أنت راهبة يا ماري؟!"

مدت نظرها عبر الزيتون، والقدس أمامي ككف اليد، وقالت همسا: "بل المجدلية، أنا مريم!"

6

إذن مريم ما كانت لي، وكل الأحلام والأوهام والهواجس ما كانت إلا زاد المحروم. قصتها الحزينة هزتني، دراما حية، وأنا كاتب. لكن الرجل تحرك فيّ وبت مجنونا من الغيرة. حاولت أن أبعد، ففشلت، لأنها في كل مكان. في كل مكان أذهب إليه، كانت مريم حتى شككت في عيني وفي أذني وفيما سمعت. اعترفت لي أنها ما زالت تفكر فيه، لكني أراها تفكر فيّ! أهذا معقول؟ تفكر فيّ! إذن بالله كيف أفسر مرورها اليومي أمام الشباك؟ وكيف أفسر دخولها المكتبة بعد لحظات من دخولي؟ وكيف أفسر سؤالها عني عند البقال؟ "هل رأيته؟...هل جاء اليوم...إن رأيته، فقل له مريم أيوب بانتظار الدروس. فتساءلت في نفسي: " أية دروس؟ تقصد دروس العربية؟ لا، لن افعل، يكفيني همي وما أنا فيه".

وبدأت أتهرب كي أنجو من الغرق وانشغال الفكر. ثم التقينا في ذاك العرس والكنيسة. إذ بعد الإكليل كان احتفال ودبكة وزفة وطبل وزمر. خلعت فستان الكنيسة ولبست الثوب الفلاحي المطرز بألوان النار. اقتربت مني وحيتني، وقالت بعتاب: "لماذا اختفيت؟ في كل مكان أسأل عنك." قلت: "لماذا؟" قالت: "ولو! أنت صديقي. ألست صديقي؟" وحدجتني بنظرة ذات معان، فاكتسحتني. وسألت ببراءة، وهي تقترب مني أكثر: "هل أنا مخطئة أم ماذا؟" قلت: "لماذا؟" حنت رأسها، وقالت همسا: "لأني أودعتك أسراري." وتركتني.

وبدأت أفكاري تفتك بي. أنت عصابي. أنت مجنون. أنت أبله. ذاك الراهب، كان يا ما كان، وأنت هنا ابن الحاضر. هو في الماضي، وأنت الحاضر. لكنها ذات ماض. أي ماض؟ ماضي مراهقة غريرة. ماضي مراهقة في الغربة، وحيدة، حساسة وتحب الحياة. أحبت فيه الموسيقى. أحبت فيه القدسية. أحبت فيه المحرم. وأنت ما أنت؟ أنت مراهق. أنت مكبوت. أنت شرقي. أنت منافق. تريدها مثل جبينة؟ تريدها مثل سنو وايت؟ تريدها مثل أمك. تريدها مثل سارة. تريد ماري في أمك. تريد ماري في سارة.

وبدأنا نتبادل الابتسامات والنظرات عبر الزفّة وأكتاف الناس. وعاد الخفقان إلى صدري، ويوم نزولي لزيارة القدس يوم الخميس، وجدتها عند السرفيس. وجلسنا كما المرة الأولى، ودخلنا السوق كما فعلنا تلك المرة، وأكلنا هنا وشربنا هناك، وضحكنا ودرنا وشربنا النبيذ، وأخذتني معها لدير الأرمن عند أصدقاء تعرفهم. وهناك في الدير كان احتفال بعيد ما، وأكل ورقص وموسيقى، ورجل أسمر يرقص وينط ويدق الأرض مثل الأسبان. ورقص مع كل البنات ثم معها، أمام عيني. وأخذت تتمايل كالوشاح في مهب الريح. جسمها ينساب كالأفعى، ووجهها مرفوع لوجه القمر كأنما بانتظار اللثم، والأرمني بنظراته وحركاته يوحي بذئب يتربص بفريسته ويداورها حتى تتعب ثم ينقض. والمغني يصرخ بكلمات لا أفهمها، لكنها ذات دلالات، لأن الناس من حوله كانوا يهللون ويصفقون لإشاراته. ورأيتها تقترب مني وتشد قامتها حتى برزت عضلات الصدر. واندفع البروز إلى الخارج، وارتد البطن إلى الداخل، فبدت كاللبؤة ممشوقة في حالة تحفز قبل القفز.

يا رب الكون، أي جمال! أي إغراء أي شبق! ذاك الراهب دفع الثمن ونفي إلى دير في الجنوب عند الهنود وثكنات الجيش، وأنا هنا في هذا الدير بين الأقصى والقيامة وأخوتها السبعة في الغربة، وكلام الناس في القرية وتحذير ايفون. ماذا افعل؟ ماذا نفعل؟ بل ماذا تريد أن نفعل؟ الآن أنا ملك يديها، عبد لكل أوامرها ونواهيها، وما عليها إلا أن تشير، لأنفذ وأقول شبيك لبيك.

قالت ننام هنا في القدس. قلت بالطبع، أنا أنام عند أمي، ولكن أنت؟ نظرت إلي وابتسمت، كأنما تسخر مني. وجرّتني من يدي وخرجت بي إلى الدهليز، ثم الشارع تحت الأقواس، ثم أدراج ملتوية، وبلاط حجري ومصاطب، ثم بوابة حديدية لدير آخر. وسألت بخوف، ننام في الدير؟ همست باسمة، بل هوستل.

ودخلنا الهوستل وجه الصبح، وكان الآذان في الأقصى يعلن القيام وصلاة الفجر، وبائع الحليب يجر حماره، وينادي: "حليب" في جوف الليل، وأجير فران الزاروب يفتح الفرن ليوم جديد. ووقفنا في الساحة العلوية ورأينا القدس تغرق في الندى وضباب الفجر، والياسمين يصل إلينا متعربشا شجر الزنزلخت والمجنونة، وينضح شذاه وأنسامه، فيعطر الجو ويطير بنا فوق القباب والجرسيات. ومع الظلمة اكتشفت النور، وظلال الجنة في امرأة جبلت من نار. تلك المرأة باتت ملكي، لكن لماذا كنت أحس أني الآخر، أو أنها تستبدل بي ذاك الآخر، ذاك البعيد والمبعد، ذاك الأثيري المنفي، ذاك الجلاد؟
بكت، فبكيت، وبقينا معا متعانقين، تواسيني، وأواسيها، ونحاول أن

نجبر ما انكسر في قلبينا. وغفونا على جرس القداس.

بعد الإفطار، قلت لها إني سأتركها ولو ساعة. سألتني أين؟ قلت أذهب لأرى أمي، إذ لا يمكن أن أصل القدس ولا أراها ولو ساعة، لكن للحق والحقيقة أني كنت أنوي زيارة أبي، لآخذ منه بعض الدولارات. إذ قبل الفطور غافلت مريم ومررت بزاوية الاستقبال، وفهمت من الرجل أن المبيت في الهوستل بكذا دولارات، وأنا لا املك من المبلغ إلا دنانير، بضع دنانير، فما بالك بالرقم المطلوب!

وتركتها ومشيت في الزقاقات المكتظة بطوفان البشر. سيّاح ورهبان وقرويون وحجاج وتجار من كل الجهات، وبسطات محمولة على عجلات يجرها باعة لكل الأصناف، موز وتمر ومشمش وتفاح وسفرجل وذرة وحاملة وتمرية. ثم بسطات بلا عجلات، حلاوة سمسم وحلاوة لوز وبيض وفلافل وشعر البنات. وأحسست بالقدس هي غير القدس. كان رأسي ما زال يهيم بتجربة الأمس والليلة، وحزن شديد يعصر قلبي، لأني أحسست أن مريم ستضيع مني وأضيع أنا. ستعود حتما للبرازيل أو تدخل ديرا وتترهبن. وفي الحالتين، مريم ستضيع وتضيعني. وطفرت الغصة من حلقي، وأحسست بدمعي يتجمد فلا أرى إلا خيالات. ودفعني مد بشري في ضيق الزقاق فكدت أقع لولا أمسكت بعربة خوخ. لكن المد البشري والسياح سحبوني، ووجدتني في خان الزيت أمام الأقصى من جهة الغرب. وهناك انهرت وأحسست أني قد دفعت بيد عليا هي يد الله، حتى أواجه ما فعلتُ وما فعَلَت. فجلست على أسفل درجة، ووضعت رأسي بين يديّ. ومر

بي شيخ يافع، فتخطاني وفشق عني وكأني كلب أو قطة. ومر شحاذ متسول انهال على بدعواته، فأخرجت شلنا وأعطيته بدافع التكفير لا الإحسان والصدقة. كنت أحس أني مذنب، وأني ارتكب عملا بشعا استحق عليه العقاب، فأنا زان، وأنا كافر، وأنا خائن، وها أنا ذاهب لزيارة أبي؛ لأكمل ذنوبي وأكذب عليه، لآخذ منه بضع دولارات، من أجل ماذا؟ من أجل الخطيئة وليلة فسق. أنا مخطئ، أنا مجرم، أنا خائن، لأني خنت ذاك المغلوب على أمره، ذاك المنفي بين الجنود والعسكر في أقصى الجنوب. فما يدريني بماذا يحس ذاك المسكين؟ ما يدريني بأي عذاب وأي شقاء وأي ندم! أهو نادم؟ إن كنت أنا الرجل العادي وأحس بهذا، فبماذا يحس ذاك الراهب؟ أي ندم وأي خجل وأي ضمير! وأردت أن أدخل الأقصى، وأبحث عن شيخ متعبد، وأقص عليه ما اقترفته. أقول له يا سيدي الشيخ أنا مخطئ. زنيت وتلوثت ولوثت امرأة ليست ملكي، وصارت مهتوكة على يدي. يا سيدي الشيخ، تلك المرأة لا من ديني ولا من أصلي، وتختلف عني في كل شيء. هي مسيحية وأنا مسلم، هي غنية وأنا فقير، هي تعرف الدنيا والقارات والمسافات، وركبت طيارة وسفينة ووصلت أوروبا وأميركا والبرازيل، وأنا لم أصل حتى بيروت. وتعرف لغات، وتعرف أرمن، وتعرف كنائس ومساجد زارتها في كل بقاع الأرض من الفاتيكان حتى اسطنبول. وأنا لا اعرف يا سيدي الشيخ، حتى القيامة في بلدي! هي من طينة وأنا من أخرى. وهي لا تحبني يا سيدنا الشيخ، بل تحبه، تحب رجلا في المنفى وأنا البديل. وأنا أحبها حتى الموت، واشتهيها حتى الموت. هي ما أملك. بل لا أملك. لا أملك نفسي وأملكها. ماذا أفعل؟ هل أتزوج من امرأة ملك غيري؟ امرأة ليست من ديني؟ امرأة تفصلني عنها تلك القارات

والمسافات وأربع لغات، وسبعة أخوة، والقيامة، يا سيدنا الشيخ؟

ودخلت الأقصى لثوان ثم تقهقرت. رأيت شيخا في الساحة يجلس في ظل جدار الحرم، وحوله مجموعة رجال بحطط وعمائم وطرابيش، بعضهم سافر ويغطي الرأس بجريدة ويسمع الشيخ، وهو مغمض أو ينوس جفنيه من ضوء الشمس. الشيخ الجليل على مصطبة، وهم على الأرض تحت الشمس. وكان يقول لا حول ولا قوة إلا بالله. هو الإنسان ضعيف ضعيف، لا يملك حولا ولا قوة إلا بالله. نحن خلقنا من ماء وطين. الله يحيي والله يميت، ولا تدري أي نفس بأي ارض تموت. هو العالم وهو القادر وهو القيوم. لا يخرج شيء عن علمه، قولوا آمين. فيقول الرجال بخشوع شديد، "آمين، آمين." ويهدر الشيخ ويهلل: "من ماء وطين،،" فيردون عليه: "آمين، آمين" فيقول: "ونار ونور،" فيجيبونه: "آمين، آمين." ويستمر الشيخ: "لا يخرج شيء عن علمه،" فيرددون وراءه: آمين، آمين."

لكزني رجل في ظهري: "اجلس واسمع." فالتفت إليه، وكان فقيرا وضعيفا بثياب ممزقة وطربوش مبعوج ومبلل من أثر الوضوء. أحسست أني أقف في مكان غريب وبين أناس لا أعرفهم ولا أمت لهم ولا أفهمهم. هو الإنسان ضعيف، ضعيف. يعيش ويموت دون علمه. لا يدري بأي أرض يموت. لا يدري من أي طريق يأتيه الخير، لا يدري من أين الشر. لا يدري كيف وأين يموت، لكن الله هو العالم. هو العالم، وهو القادر، وهو القدر، وهو المكتوب. إذن كل شيء كتب علينا وما علينا سوى التنفيذ. لو لم يرد أن يحدث شيء ما اختاره. إذن ماذا؟ كيف

ولماذا؟ لماذا أنا. ولماذا هم؟ ونظرت إليهم تحت الشمس، ولم أجد نفسي فيهم. أحسست أني لا أفهم. أحسست أني لن أفهم. فماذا أقول لسيدنا الشيخ؟! وماذا سيقول؟

قال الرجل وهو يسحب قمبازه لهذا الجانب، ثم لذاك، فيبدو شرواله من تحته بلون التراب: "تريد الجلوس أم لن تجلس؟ إذن وسع." وسعت له، ومشيت رجوعا، وظهري لهم، وأنا أسمع كلمة "آمين" ولا أنطق.

وخرجت للشارع ثانية، وأنا أحس أني ضائع. أهو نقص المال أم الإيمان؟ لو كنت غنيا وقويا هل كنت أحس بهذا الضعف؟ ماذا أفعل لو قال أبي اغرب عني، ألا تذكرني إلا بحاجة؟ ماذا تحتاج؟ وماذا أقول؟ طبعا أكذب. فإذا صدّق هل يعطيني؟ وإن لم يصدق ماذا أفعل؟

وذهبت إليه مهزوزا مطحون الرأس والكرامة. استقبلني بالبيجاما، إذ كان اليوم هو الجمعة. قال: "اجلس، ما أخبارك؟ لكن اسمع قبل أن تبدأ بأخبارك، دعني ألبس لصلاة الظهر." وخرج وتركني في الصالون انتظر حمّامه ولباسه لصلاة الظهر. أبي يصلي؟ شيء غريب. ما كنت أعرف أن أبي صار يصلي. كنا نسمع أن الوالد يدور مع "الست" يتطوح في ليل القدس. كنا نسمع أن الوالد اشترى لزوجته ذات العود عودا رصعه بالياقوت. كنا نسمع أن الوالد كان يعلم زوجته فن السواقة في منتصف الليل، يضعها في حضنه وهي تسوق، هو يقبِّل وهي تدحل ولا تضرب بريك بل تصرخ حتى دهست رجلا يعمل في جريدة القدس. كيف عرفنا؟ عرفت القدس، فعرفنا نحن ونشروها في جريدة القدس.

ونظرت حولي وتأملت دار العريس الأفندي. تلك النعوت وغيرها مما تيسر كانت تطلقها أمي عليه وتفش بها قلبها المحروق. كانت تقول "العريس" و "اليهودي" و "الأفندي" فنعرف فورا أن المقصود هو الوالد. وأحيانا حين يفيض الكيل ويعصرنا الفقر كانت ترسلني "للشروال" لأسحب منه. كان الشروال بالنسبة لها، وبالنسبة لي، رمز الغنى من مال حرام، هو مال القدس وجبال القدس المبقورة والمحاجر.

ورجع أبي، كان مغتسلا نظيفا، شعره يلمع ويلبس البذلة والكرافة ويحمل مسبحة من كارب. وجلس يطقطق بمسبحته ويتأملني باهتمام شديد. قال فجأة:

- لماذا لا تترك مدرستك وتعمل معي في المحاجر؟

أصابتني اللخمة ككل مرة أفاجأ فيها بسؤال غريب أو موقف، لم يخطر لي. فهمهمت بهبل: "المحاجر؟"

قال بسرعة: "آ، المحاجر. مالها المحاجر يا أستاذ؟"

ونطق "الأستاذ" بمطة طويلة كما لو كان يسخر مني ويسخر من الأستذة والأساتيذ، على أساس أن "الأستذة" لا تنفع ولا تطعم خبزا ولا تغني. "الأستذة" بنظره كانت سخافة وفقر وبهدلة وتخزيق عيون. "الأستذة" تعني كتابا رخيصا وعيشا رخيصا وعرقا أرخص. "الأستذة" تعني رمز الفقر والقلة، لكنها من جهة أخرى تعني التعليم والثقافة وهي أشياء لا يملكها بل يتمناها، لأنه حجّار ابن حجّار رغم البذلة والبيانو والعود المرصع بالياقوت. لكن أصابعه من المنشار كانت أيبس من أن تعزف، فاشترى امرأة تعزف له، وهذا دليل على انه يحب الكيف والموسيقى،

ويحب العلم والتعلم. انتسب مرة إلى معهد لغات كي يتعلم، ثم تخرج بعد أشهر لا يعرف إلا I love you و thank you very much ، وهذه مارسها مع السائحات حتى تزوج واشترى العود، وظل البيانو على حاله.

نظرت إلى البيانو، ثم إليه، وعدت أردد بلخمة وذهول: "حجّار ومحاجر وحجارة؟"
هدر بصوته:
– مالها المحاجر يا أستاذ؟ مش عاجبتك؟

التفت يمينا وشمالا، وأنا أداري ضيقي الشديد واكتئابي. كنت ما زلت أحس بالحزن، وقلبي مكسور من مريم وقصة حبي، ثم ضياعي عند المسجد، وقلة المال والإيمان وجراح القلب. لكني في تلك اللحظة، وقد تكاتفت هموم الدنيا ما كنت بحاجة لهم جديد، فسايرته:
– لا يا أبي، ليس المقصود...

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أناديه فيها بيا أبي منذ عدة سنين. لكني سكت بعد الكلمة، لأني استعيبت على نفسي أن أناديه بهذا اللفظ بسبب المال. أنا أسايره بسبب المال! أنا أنهار بسبب المال.

قال بأناة، وكأنه يفسر درسا لولد غبي:
– شوف يا ابني. أنا عارف حالك وأحوالك. غرفة زريبة لا يرضاها رجل عاقل لابنه الوحيد. أنت وحيدي، هل تذكر هذا يا إبراهيم؟

obeikandi.com

نظرت إليه نظرة سريعة وغضضت نظري خوفا منه، بل خوفا مني ومن غضبي حتى لا انفجر في وجهه، وأقول له: "ابنك الآن، أنا وحيدك؟ وها أنت الآن، كما في الماضي، تحتاج لولد يحمل اسمك."

واصل أبي،

– شوف يا إبراهيم، لا المدرسة تنفع ولا الكتاب. معقول تعيش على كم دينار من التدريس؟ اسكت، ما تجاوب ولا تحكي. أعرف، أعرف، أنت طول عمرك ومن صغرك ما عندك هم إلا الكتاب. مصروفك رايح على الكتاب. قلنا الكتاب طب وفهمنا، بس القلم! أنا مش فاهم. بلا طول سيره. قصر الموضوع أنا ناوي أعمل مشروع جديد مع زوج أختك.

نظرت إليه بتساؤل، فرد بسرعة قبل سؤالي:

– فاهم، فاهم، يعني زوجها في المستقبل، يعني ، يعني، أنت فاهم. شركة تصدير واستيراد، ونصدر حجارة من الضفة، نبني الصحرا! الرخصة معي، مين كان يحلم! ها شو رأيك؟

– رأيي أنا؟

– آ، يا إبراهيم. تروح مع سارة تزوجها وتفتح الفرع وأنت تديره، أنا ابعث لك وأنت تسوق، وبكرة الدولارات تبقى أنهار. ها شو رأيك؟"

ما هذا الرجل، ألا يشبع؟! لديه منشار في نابلس. ولديه منشار في رام الله، والقدس والخليل، والآن ينتقل إلى الصحرا. ألا يشبع؟

قلت بجمود:

– طيب، ممكن، دعني أفكر.

– أي تفكير وأي تدبير؟ يا ابني اعقلها وتوكل. برضاي عليك ما تحيرني

وتقول لي المدرسة أو الكتاب. أنا يا إبراهيم صرت في الستين، وبنفسي أشوفك متجوز وعندك عيال زي كل الناس. وبدي أشوفك على إيدك ولد يحمل اسمي. أنا من زمان ناوي أقول لك، بس أنت بعيد وراسك يابس. قاعد لي بقرية مسخوطة وتارك القدس! والا الغرفة ...!

وحملق في وكأنه يدلي بخبر خطير:
– معك خبر أنها إسطبل؟ كانت إسطبل وزريبة غنم. أي عيشة! شو يا إبراهيم، أنت مش هون؟ مش بالدنيا؟

أحسست بهمي يتضاعف. فقصتي الجارحة مع مريم تثبت لي أني حالم، أني ضعيف، أني جاهل. أنا لا اعرف ما في الدنيا. أنا لم أخرج لبلاد الناس. أنا لم أركض في سبيل القرش. أنا لا أعرف لغة الدنيا. أنا لا أعرف إلا التدريس.
ونظرت إلى الساعة، وكانت تقترب من نصف النهار، والرجل قال عند الظهر، ومريم هناك في الهوستل بانتظاري. لا بد من تلك الدولارات.
وسمعنا المؤذن يكبر قبل الصلاة، فقال الوالد:
– يا الله نمشي، اليوم الجمعة والحرم مليان. معك وضوء؟
هززت رأسي ولم أجبه، فقال بسرعة:
– تتوضأ هناك. يا الله، يا الله.

ووقف أمامي وأنا جالس، وبدا طويلا وجميلا، وكان أنيقا، لكنه أبعد ما يكون عن أن يكون أبي. هو فعلا أبي، لكنه ليس كذلك. لا أشعر به، لا أشعر معه، لا يعنيني.

- مالك قاعد؟ ها فيه حاجة؟
قلت بسرعة، بدون تفكير، وكأنما لألقي حملا أثقل كاهلي طوال ساعات:
- محتاج دولارات.
صفن قليلا، وابتسم ابتسامته الصفراء:
- ها شو السيرة؟ زي كل مرة؟ طيب يا سيدي، وليش دولارات؟

أردت أن أقول: "قسط الجامعة في لندن" أو أي شيء من هذا القبيل، لكن إحساسي بالضياع، وصوت المؤذن والتكبير، وأنا خائف. ثم من هو حتى أكذب؟ هو ألعن مني، بل أسوأ. فلماذا أداور وأنافق وأزيد همومي وآثامي؟ أنا لن اكذب. فقلت بسرعة:
- نمت في الهوستل، والهوستل طالب دولارات.

صفن لحظة ثم قهقه، ثم سحب شهيقا وتنفس. وبدون سؤال أو تعقيب، أسرع خارجا وتركني وحيدا في الصالون، وحين عاد كان يحمل رزمة دولارات. ناولني الرزمة وابتسم ببشر:
- وكيف الأمور؟ تمام التمام؟ والله شاطر! وأنا اللي فاكرك ما بتفهم إلا بالكتاب! خذ يا سيدي، فرجيني شطارتك وتشطر. خليك قبضاي. بكرة نجوزك ونفتح لك هناك اكبر مشروع.
وقهقه ثانية، وقال بخبث:
- وأنا اللي كنت ناوي أجرّك لصلاة الظهر! روح اتحمم والحقني هناك، وأوعى تنسى، مشروع جديد، نبني الصحرا، الحقني هناك.

7

عدت إلى الهوستل ولم أجد مريم فجن جنوني. كانت قد حاسبت وغادرت ولم تترك أي خبر لي.

"ألم تقل أين ذهبت؟" سألت الرجل، فهز برأسه ولم ينظر إلي وظل ينظر في أوراقه ثم استجاب للتلفون وتركني، فأحسست بحرج شديد وخرجت من عنده بتلصص وكأني سارق أو مجرم ولا أريده أن يعرف. فبالإضافة لما يعرفه أو لا يعرفه، فهو يعرف أن امرأة دفعت عني وأنها تركتني من غير سؤال ولا جواب ولا كلمة. وبدأت أحس كم أنا مظلوم ومستضعف. فبالإضافة لإحساسي أني مخطئ وأني ضعيف وهي قوية، أحسست أني بلا رصيد ارتكز إليه إلا الوالد، وهو رصيد لا يسعدني ولا يرضيني، بل إني دفعت إليه دفعا، لأني وُضعت في مأزق. وهذا المأزق إذا استمر، فسأفقد ما بقي من ذاتي وأعيش ذليلا بلا كرامة. امرأة تدفع تكاليفي وأب أنكرني وأنكرته حتى احتجته، وها هو الآن يلوح بشروط ترعبني: يا بو إسماعيل، مشروع جديد، منشار جديد، نبني الصحرا من جبال القدس. أي ثمن فظيع! وفي سبيل من؟ في سبيل امرأة لا أملكها بل تملكني. امرأة تحب رجلا آخر. وأحسست بالنقمة تجتاحني ورغبة عارمة بالانتقام، فرجعت من فوري إلى القرية وأنا غاضب. والغريب في الأمر أني ما فكرت ولا لحظة أنها ربما تكون هي الغاضبة. ما همني في ذاك الوقت هو إحساسي. ما أحس به، ما

أتعرض له من ضغط وشكوك. أما هي، فبماذا أحست، بماذا فكرت، وما مرت به، فلم يشغلني، بل لم أعره أدنى تفكير. وما رجوعي إلى القرية إلا لأسوي حساباتي، وأعرف بصريح العبارة أين أقف. فمن أنا بالنسبة لها؟ بديل الآخر؟ وفي تلك اللحظات كرهتها من كل قلبي، حتى ظننت آن ذاك الإحساس هو ما تبقى من قصة حب قد انتهت عند ذاك الحد. وما كنت أظن، بل لم اعرف، أن للحب وجوها غريبة أولها الشك. كنت أصغر من أن أدرك أن خيطا رفيعا يفصل بين الكراهية وبين الحب وأننا أثناء الحب نتأرجح فوق ذاك الخيط بلا تحديد، أحيانا هنا، وأحيانا هناك، قبل أن نستقر على جانب، ولا نستقر. لكن لصغر سني وتجربتي كنت أقارن بين ذاك الحب النقي الذي عشته في مخيلتي، وبين التجاذب وشد الحبال حين دخلت علاقتنا حيز المحسوس والملموس. وما كنت أعرف أن العلاقات في الواقع هي هذا المزيج.

وفي الطريق إلى السرفيس رأيت القدس بشكل آخر. كل الأشكال والأشياء والأماكن باتت كابية وكئيبة. أين الألوان في الساحات والطرقات والأقواس حين كانت معي! كلها ضاعت وبدت جرداء رمادية تتهددني بجفاف الموت. يا رب الناس! أهذا العالم، ذاك العالم حين كانت مريم في مخيلتي طيفا أثيريا شفافا لا ملمس له؟ لم أسأل في ذاك الوقت ما إذا كانت تحبني أو تخلص لي، فقد كنت أحبها مهما كانت، بغض النظر عما أحست أو لم تحس. أما الآن، وحين نزلت بجسدها إلى الأرض فقد صرت أتساءل أين أنا وبماذا تحس؟ والأغرب من ذاك أن امتلاكي لجسدها لم يشكل أي انجاز يذكر، فلماذا يقولون إذن إن الجسد هو بوابة؟ وان اقتحام البوابة بحد ذاته دليل الوصول. أنا لم أصل،

فكيف السبيل لذاك الوصول؟!

مع ركوب السيارة ومرور الهواء على وجهي وجبال القدس أمام عيني، بدأت أعود إلى ذاتي، وأذكر ما كان ليلة أمس. وهي ترقص، وهي تركض، وهي تقفز درجات الزقاق، وهي تبكي بين ذراعي، وأنا ابكي. وأحسست بالدمع يفاجئني ويذيب الغضب وينسيني كل شكوكي، وذكرى الوالد ووقوفي ذليلا بين يديه ووقوفي ذليلا أمام الحرم وجموع الناس. أنا لا أطيق جموع الناس. أحس بالعالم يخنقني ويحددني ويطالبني بما لا اقدر. أنا لا اقدر على جو القدس. أنا لا اقدر على جو الحرم. أنا لا اقدر على دنيا الناس. أحس بالعجز في ذاك الجو. أعجز، أخاف، أهرب وأضيع، أنجو في القرية من ذاتي ومن دنيا الناس، هناك أحس أني شخصية بلا تحديد، كتاب مبهم، كتاب أبيض من غير حروف. أُخلق هناك خلقة جديدة وأسبر عوالم مفتوحة فيها القسيس، فيها بيروت، فيها مريم، فيها البرازيل وقصص وحكايا أسمعها عن دنيا الناس في الخارج. أعيش الحياة من الخارج، فإذا دخلت، أُصاب بدوار ثم أقع. إذن ما أحسست به هو ردة فعل للداخل، وحين خرجت عدت لذاتي ولأحلامي وأجواء الحب.

حين وصلت القرية، بحثت عنها في كل مكان، عند ايفون، عند القسيس، عند المقبرة والكنيسة، وسألت عنها لدى البقال. ثم انتظرتها بعد السياح على الهضبة، وراقبت المقبرة حتى الظلام ولم تحضر. أخذت أدور في الطرقات كالمجنون، ولا أعرف كيف أجدها. وأخيرا قررت أن أقوم بمغامرة لا يقوم بها إلا مجنون أو عاشق. ذهبت إليها في

دارهم أسأل عنها. كنت قد حضَّرت جوابا لكل سؤال. فإذا سئلت أقول مريم سألت عني من أجل دروس العربية. حسنا، مقنع، ولهذا حضَّرت أوراقي، وكتبا وأقلاما ودفاتر، ولبست أفضل ما عندي، ثم تعطرت. ونسيت في تلك الساعات كل شكوكي. كل ما همني هو أن أراها، وأحضنها واختلي بها ولو لحظات. أختلي بها! وعادت إلي كل التفاصيل، بما فيها كل الأصوات والروائح وعبير الفجر وجرس القداس وبياع الحليب. حتى بكاؤها أجّجني، وطعم الدموع زاد ولوعي، وجعلني أتخبط ولا أرى إلا مريم، أمام عيني، ووراء الشجر، وفي الطرقات، وامتداد الكروم، ثم المدخل عبر عريشة تمتد فوق ممر طويل، حتى المنزل وعلى الجانبين شجر المشمش وتوت وسفرجل وكمثرى، ثم الإسطبل ومعصرة الزيت، وفي كل ذاك، ومن كل زاوية في الكرم وفي المدخل تراءت مريم في كل وضع يخطر بالبال. ما همني لو أحبت ذاك؟ ما همني لو أحبت الراهب أو الكاردينال أو البابا؟ المهم الآن أن أجدها.

قرعت الباب. كان له جرس كهربائي لكني فضلت قرع الباب. وسمعت خشبا يتزحزح ثم نعل حذاء، بل شحاطة، وخطوات قصيرة وبطيئة، وقلبي يدق. سألني صوت خلف الباب، "مين؟ استنى." وانفتح الباب عن وجه عجوز. كانت مغموسة بالأسود، ولها شعر سكني كالخيطان مسحوب للخلف في كعكة، وعظام دقيقة ورفيعة، ونظارة نظر لفتت نظري بسماكتها. كان الزجاج يقعرها، فتبدو العينان بعيدتين خلف دوائر كهالات الماء. قالت بفضول، وهي تتفرس بلا تحديد من خلف الزجاج وهالات الماء:

– مين انت؟ مين؟
قلت لها: إني الأستاذ وإنني جئت بناء على دعوة من الست مريم.
– الست مريم؟!
وابتسمت ابتسامة مصطنعة وعادت تكرر باستهزاء:
– الست مريم؟! الست مريم، راحت مشوار مع عنزتها. تفضل فوت. البيت بيتك.
سألت بأدب:
– طيب ممكن؟
فتحت كفيها، وابتسمت:
– ولو! تفضل. البيت بيتك.

ومشت أمامي بصعوبة، ويدها ممدودة تساعدها في كشف الطريق. وتذكرت ما قالوا عنها، نصف عمياء، أو ربما أكثر من نصف.

كانت الدار من طابقين بدرج داخلي، وردهة خارجية، وزجاج عريض يكشف الكروم وجبال القدس البعيدة. ورغم الغنى الواضح في قطع العفش إلا أن اللمسات القروية ما زالت هناك، وصورة العذراء والطفل يسوع وصليب من خشب الزيتون. أما الجمال الحقيقي، فكان في النباتات المنزلية، التي ملأت الصالون والردهة بشلالات من الخضرة. ورق عريض، ورق رفيع، ورق شمعي، ورق إبري، ومدادة، وحبال تتقاطع عبر السقف من الأوراق، فتشكل سقفا إضافيا أحلى وأروع. أنا لم أر مثل ذاك الجمال، فوقفت مبهورا أتأمل، وقلت: "يا سلام!" رغما عني. ابتسمت المرأة، وسألتني:

obeikandl.com

- بتحب الزريعة؟
قلت بحماس:
- لأبعد حد.
قالت بكرم:
- إذا كنت تحب أعطيك فسخات.
قلت بأسف:
- ما عندي فراندة ولا جنينة.
قالت بمرح:
- ولو! شو السيرة؟ الزريعة تقعد في أي مكان!
قلت: "فعلا." وتذكرت الوالد، ومناشيره وبطون الجبال.

قالت بحماس:
- لو شفت الخضرة في بلاد الناس! حتى الصحرا زرعوها زهور. ونحن في بلادنا يا خسارة! شايف هناك؟ خلعوا الجوزة اللي انزرعت بزمن ستي، وزرعوا لي بدلها طوب وحجارة!
قلت مواسيا:
- لكن الدار حلوة جديدة وموقعها يكشف حدود القدس.
- اقعد، اقعد، لو شفت الدار العتيقة شو كنت تقول؟ والدار هدموها وبنوا من جديد. قلت يا أستاذ، ما عندك فراندة ولا جنينة؟ ساكن قريب هون في القرية؟

وصفت لها غرفتي بشيء من السخرية والاستياء، كي أقنعها أن ليس كل قديم جميل، فلوحت بيدها:

– بلا حكي فاضي. دارك القديمة أعرفها ودخلتها بدل المرة ألفين مرة. دار أبو سعدة كانوا جيراننا الحيط بالحيط. وظل الختيار قاعد بالدار حتى توفى. أولاده كلهم في الغربة، وابنه الكبير بنى بيت جديد وترك الأرزاق ودار ظهره. يعني أولادي كانوا أحس؟ أولادي كمان تركوا الأرزاق وداروا ظهورهم. قلنا أبوهم وتحملنا، بس الولاد! قعد أبوهم في الغربة ٤٠ سنة ويمكن أكثر، وأنا بداري ما أتزحزح. يروح سنتين ويرجع شهرين، وكل سنة يقول آخر سنة لحد ما مات. ولما مات راحوا الولاد وسحبوني. أيام أبوهم ما تزحزحت لكن أولادي حكموني. شوف الدنيا! ولادنا أهم من بلادنا، صح وإلا لأ؟

هزتني الفكرة، فتأملت ولم أجب، فعادت تلح:

– صح وإلا لأ؟

قلت بحيرة:

– يمكن مظبوط.

نفضت يدها:

– بكرة تجرب لما تخلف ويكون لك ولد أغلى من الروح. الروح غالية لكن الولاد أغلى من الروح. بكرة تجرب. لكن ما نحس بغلاوتهم إلا بالموت. لما يموت واحد من ولادك تحس بروحك راحت معه. وتقعد تتذكر وتتحسر وتقول يا ريت! يا ريت عملت، يا ريت سويت، يا ريتني مت بدل منه. إذا كان الرب لازم ياخد ليش ما أخذني؟ يا يسوع المسيح تسامحني. ساعات الواحد من همه تطلع منه أشياء غريبة. لكن يسوع مات عصليبه، وما قال أخ، ولا قال يمه. وأمه الحزينة المسكينة ما ظلت دموع بعينيها. ما قال يمه، قال يا أبت، وما قال يمه. يا حسرة

قلبي وتعتيري! وأنا كان لي ولد شايف يسوع؟ شايف صوره؟ أبيض وطويل وشعره طويل وصوته ما يطلع. حتى بنزاعه ما قال يمه. دخل المستشفى ٣ مرات، وكل مرة يقولوا خلص ودّع. الطب هناك أحسن بكتير، وأميركا قريبه مش بعيده. ساعة وساعتين وتكون في دالاس. بس رجعنا. هيك النصيب والست مريم! يا ست مريم! يا الله شو نعمل!

سألت بخوف:

- مريم بنتك؟

نفضت يدها، وقالت بفتور:

- انس الموضوع. هذا نصيبه. لو كنا بقينا وما رجعنا يمكن ميشو، يمكن ما مات، لكن مريم، الست مريم، يا الله، نصيبنه!

ونظرت بعيدا ثم إلي:

- وأنت يا أستاذ، أمك معك وإلا في القدس؟ أوعى أمك. خبيها بقلبك وعيونك. الأم يا ابني مش مزحة. مين في الدنيا ممكن يفديك غير قلب الأم؟

تذكرت أمي بكاملها. بحدادها الدائم ومصيبتها. تذكرت وقفتها خلف المجلى وقد انهدّت ولم يبق منها إلا الركام. شيء غريب، لماذا لا أحس بشيء حميم؟ لماذا لا أحس أني منها وأني أشكل عالمها؟ ربما لأنها هي من بعد أبي ... بل قبل أبي... أنا اذكرها قبل الطلاق وما كانت دافئة وحميمة. ما كنت أحس أنها معي بل مع وضاح. صورته الكبيرة في صدر البيت وأشياؤه ووجع الشقيقة والاجهاضات، ثم أبي يسمع الراديو وأم كلثوم وهي بعيدة، هي في المطبخ أو في الحمام، أو غرفة النوم

obeikandl.com

والشقيقة. تعصب رأسها بمنديل كبير، وتغلق نوافذ غرفتها لتحجب الفضاء ونور الشمس، وتلازم السرير عدة أيام. يأتي الوالد، وتعد له سارة أكله، فيأكل وحده، ثم يجلس في مقعده يسمع الأخبار وأم كلثوم. هو يحب أم كلثوم، وهي تحب عبد الناصر. بالنسبة لها صوت ناصر لا يختلف كثيرا عن أم كلثوم. تسمعه فتطرب وتنسانا وتنسى الشقيقة، وتتذكر ما كان يقول جدي القاضي في الآستانة، وتقول: "صدقت" لعبد الناصر. ألهذا كانت مع وضاح؟

– أوعى أمك. خذ بالك منها وداريها. شوف لأقول لك. أمك تلمك وترضى عليك مهما صار لك. أقول لولادي مثل هذا الكلام وما حدا سامع. أبوهم كان يسمع وما يسمع. يا لطيف ما أصعب عيشتي معه! بحياته ومماته عذبني. لكن بحياته – بصراحة – كان لي قيمة. يبعث ذهب ويبعث دولارات، ويقول لي اشتري يا أم عيسى، اشتري وبيعي زي ما بدك. وبعت، واشتريت، وربيت أولاد، وعلمت أولادي على كيفي، وكلمتي كانت زي حد السيف. لكن لما مات وأخذوا الأرزاق صارت أم عيسى على الرف. كيف الأيام بتتغير! تكون الآمر والناهي، ولما تكبر تقعد عالرف! هيك الدنيا. يعني بصراحة بموت الأب انكسر ظهري، وبموت الولد انكسر قلبي، وهيك انهديت.

قلت بسرعة وبدون تفكير:

– ومين الأصعب؟

التفتت إلي بدهشة، لأنها اكتشفت أني كنت هناك، إذ يبدو أن النظارة وضعف النظر أنساها وجودي، أو ربما عزلتها في ذاك البيت بين

الكروم بعيدا عن القرية والجيران وأقاربها جعلتها تتشبث بأي أذن تسمعها، ثم تنسى أن أحدا هناك، أو ربما هو سن العجز والشيخوخة وشيء من الخرف والإهمال، إهمال لقضايا أساسية يسقطها الزمن من الاعتبار، ذاك التحفظ والشيء الخاص مع الزمن يصبح عامّا. ينفتح القلب كعضلة رخوة، ينفتح اللسان كالحنفية، ينفتح العقل بلا صمام. أشياء أساسية أيام الشباب تفقد قيمتها وتتخثر في الشيخوخة. أمي أيضا كانت أقوى، أو بالأصح، كانت صمّاما لا ينفذ. ما كانت تصرخ أو تنهر، فقط تحدجنا بعينيها بنظرة كالنسر، فنتربط. والآن ما عادت مخيفة، صارت تحكي، صارت تدعو، صارت تئن وتتذمر. صمّام العقل أفلت فجأة أو بالتدريج. صمام أفلت أو أعطب، وباتت تحكي ما هب ودب. تحكي أشياء كانت في العمق وتقذفها، فتخرج للسطح وتفشي الأسرار. حتى الألفاظ السوقية باتت لا شيء، صارت تلفظها بسهولة. أيام الشباب كانت تنفر من أي كلام يذكرها بكلام الناس العاديين. كانت تحس أنها أرقى من كل الناس، وحين انكسرت، نزلت الأرض. لكن الشيء المميز أن الإنسان يفقد حرصه بمرور الوقت. يصبح مهذارا كثير الكلام.

نظرت إليها، كانت ما زالت تفكر، إذ فاجأها ذاك السؤال وأخذت تردده بصوت مسموع ودون التفات لوجودي:

– مين الأصعب؟ مين الأصعب؟ كله أصعب. يعني لما مات وقعدت عالرف ما كان أصعب؟ ولما مات ابني وكسر قلبي ما كان أصعب؟ كله أصعب. بالموت نموت مرة واحدة وبموتهم نموت مليون مرة.

إذن أمي انكسرت مرات وماتت مرات وقعدت عالرف. بموت وضّاح ماتت مرة، بذهاب أبي ماتت مرة، وماتت نهائيا بلا رجعة حين قعدت على الرف وصارت صورة. أمي أنا باتت صورة!

وأحسست بضيق في نفسي، فوقفت فجأة، وقلت بخوف:
- أنا لازم أروح وأشوف أمي.
نظرت إلي بدون استيعاب، فقلت بسرعة:
- أمي في القدس ما شافتني، وما سألت عنها ولا بتلفون.
سألت بدهشة، وهي تحملق من خلف الزجاج:
- ما سألت عنها!

استدرت بوجهي للحائط، فرأيت الصليب وصورة مريم والطفل يسوع. استدرت للناحية الثانية ورأيت القدس وجبال الرام. أحسست بضيقي يتضاعف وبحزن وخوف من المجهول. آه يا إبراهيم! لا أنت هناك مع أمك، ولا أنت الآن مع مريم.

قلت معتذرا منسحبا:
- لازم أروح قبل المغرب.
سألت بدهشة واستغراب:
- طيب ومريم؟
قلت بحدة لم اقصدها:
- مريم؟ بعدين!

obeikandi.com

وصافحت يدها الممدودة ثم تقهقرت. قطعت الممر وأنا ألهث حتى أصل قبل المغرب، لكن الليل فاجأني، وجاءت مريم، فنسيت نفسي ونسيت أمي ونسيت القدس.

8

انبثقت مريم من الظل، فارتج الفؤاد ووقفت مكاني أراقبها مع عنزتها ودندنات جرس تهدر في الصمت. كان الغروب يسوّدها ويحيل ملامحها الواضحة إلى خيال بلا معالم، وكذلك ظل العريشة. لكن الخطوة السباحة حين تسرح ويأخذها التأمل والتفكير تجعلني أميزها حتى في الليل من بين ألوف. تمشي ببطء وتهدل، ورأسها مائل لجهة اليمين، وتنظر للأرض ولا ترمش، وذراعاها يتماوجان كبندولين حسب الإيقاع. لكنها حين تصحو وتصبح مريم، مريم أخرى، تغدو حركتها كالحوام، وأنا ألهث، وأوسع الخطو كيلا تزوغ وأفقدها.

أحست بوجودي، لكنها ادعت عكس ذلك، وظلت تسير بنفس الإيقاع. وحين وصلت وقفت أمامي ورأسها محني للأسفل ولجهة اليمين، وقالت ببرود:

- لماذا جئت؟

فوجئت بنبرتها الباردة وانتبهت إلى أنها قد تكون غاضبة مني لأني تركتها في الهوستل حتى الظهر. ولكن، أمن المعقول أن يغضبها سبب بسيط بهذا الشكل ويجعلها تتحاشاني طوال أيام؟ أم انه عذر واه تتحجج به كي تتهرب وتعود إليه؟

رأتني صامتا، فرفعت عينيها، وقالت بلطف:

– اسمع مني، أنت صديقي، ولنبق كذلك يا إبراهيم.

قلت واجما:

– وما كان بالأمس؟

قالت بفتور:

– كان غلطة.

أحسست بقلبي يتمزق، فها هي الآن ترفسني وتلقي بي لتعود إليه، تعود لعالمها السابق وأنا أظل مجرد غلطة. إن هي عادت فأين أعود؟ إلى عالمي؟ وبدا عالمي قاحلا ماحلا لا نبتة فيه ولا شجرة. واجتاحني إحساس عارم من الإشفاق على الذات ورثاء لشبابي الضائع في وضع ميئوس منه. فها هي القرية التي كانت ملجأ لي من صخب الناس والدنيا ومخبأ لخجلي وحيائي تصبح كهفا شديد السواد. فأين سأذهب إن هي ذهبت؟ أنا لن أظل في هذا الكهف. إن هي ذهبت لن ابقى هنا. أنا لن أطيق. سأهرب من هنا وألتجئ إليه. هو ملجأي بعد القرية. هو مهربي من هذا الحب.

obeikandl.com

سألت بلطف:

- هل تسمعني؟

لم أجبها، وبقيت واقفا مشدوها أحاول أن استوعب كل ما مر من أحداث خلال أيام، أيام فقط، وانقلب العالم إلى حوام.

قالت بصدق:

- أنت صديقي، أنا لن أنساك، لكن علاقتنا مسدودة، طريق مسدود.

قلت بوجوم مرددا ما قالته بغضب مكبوت:

- كانت غلطة.

صاحت بصوت ضعيف مخنوق خوفا من أن يصل إلى الأسماع:

- آه، أترى؟ ها أنت إذن غاضب مني وترد الكيل لتعاقبني.

لم أجبها، فوقفت تنتظر بضع لحظات وحين لم أجب، قالت بإلحاح:

- أنت صديقي، أنا لن أنساك!

استدرت بوجهي بعيدا عنها، فعادت تلح:

- إسمع مني، طريق مسدود، علاقة مضروبة من الأساس، فهناك الدين، وهناك الناس، وهناك أهلي، وهناك أنا. ألف شيء وشيء... وأنت ضعيف، وأنا أضعف.

أحسست بالطعنة، فتصديت:

- أنا لست ضعيفا يا آنسة ...

ووضعت يدي فوق جيبي لأخرج الدولارات وأثبت لها أني، أني ماذا؟ أني قوي؟ أني غني؟ أني عاتٍ وأحكي بلغة الملايين وأولاد االسوق، ولا

obeikandl.com

أقيم وزنا للإحساس والعواطف وسمو الروح والهشاشة وجمال النفس وصدق القلب؟ أنا لست قويا، بل أنا ضعيف، ضعيف جدا، وأضعف ما فيّ هذا الإحساس، هذا الميراث من خالي ذي الخط الجميل.

أمسكت بيدي وشدتها:

- تعال معي، لن تخرج من عندي بهذا الشكل. أنت صديقي، وأنت ألطف من أن أُوذيك. أنت لطيف، لطيف جدا.

قلت بمرارة:

- بل أنا ضعيف.

صاحت ثانية:

- آه، أترى؟ ها أنت إذن غاضب مني. تغضب مني؟ أنا لم أُوذيك. هل آذيتك؟ ما رأيك بي؟ هل تعتقد أني غريبة؟ هل تعتقد أني مخيفة؟ فرس جامحة بدون لجام؟

لم أجبها، وبقيت أسمعها مدلي الرأس بلا حركة.

سألت بخوف:

- بماذا تفكر؟ أنت تظن أني غريبة؟

قلت ببرود:

- ولماذا أظن؟

قالت بتردد:

- لا أعرف، لكن الناس، أنا لا أعرف، أحيانا أحس أن الآخرين لا يفهمون ما أفعل.

قلت بوجوم:

- ماذا فعلت؟

obeikandl.com

صمتت برهة وتأملتني وهي تحاول أن تسبر أغواري وتكتشف أبعاد ما أقول. هل أنا ساخر؟ هل أنا غاضب؟ هل أفهمها؟ هل أكرهها؟

قالت بحيرة، وقد بدأت تأخذ دور الدفاع والمتلقي بدل الهجوم وتحديد المسار:

– أنا قلت لك كل ما عندي. أنا قلت لك إني حزينة، حزينة جدا، وما زال حزني على ميشو في أعماقي، في هذا القلب.

نظرت إليها بطرف عيني، وأنا أحس كم هي كاذبة وخبيثة. ما أكذبها! ما أجرمها! وما أكثر أنانيتها! أنا والراهب وأخوها الصغير. أنا والراهب، أنا وأخوها. أخوها المريض من قتله؟ وذاك الراهب. والآن أنا.

بدأت تنهار:

– أنا حزينة، حزينة جدا، حزني على أخي لم ينشف بعد.

هززت رأسي بعدم تصديق ودمدمت بلؤم:

– طبعا، طبعا.

صاحت بجزع:

– ألا تصدق؟ لم لا تصدق؟ لأني رقصت؟ لأني شربت؟ لأني لبست فستان النار؟ لأني، لأني، قل ما لديك.

لم أجبها، فصاحت بغضب:

– قل ما لديك، هيا قلها.

قلت وأنا افصّل كل كلمة وأجعلها تبدو مقصودة:

– ماذا تريدين مني أن أقول؟ ماذا تريدين أن افعل؟ أنا ما علي سوى التنفيذ.

صاحت بغضب:

– اسكت، اسكت. تريد أن تقول إنك لم تفعل ما فعلت إلا لأني. . .

وسكتت، واستدارت، ثم عادت تحملق بي، فأصابني جنون صاعق أخرجني عن طوري وحيائي، وجعلني أنطق بما أضمرت:

– طبعا، طبعا. فلولا تشجيعك ما أقدمت. بالنسبة لي كنت حلما، كنت صورة، وأكثر من ذلك ما فكرت ولا اعتقدت أنه ممكن. لكن أنت. أنت. أنت.

كانت تحملق مدهوشة مما سمعت، فها أنا احتج، وها أنا أواجه، ولست ضعيفا كما ظنت، فقالت بذهول:

– وكنت أظنك شبه ملاك!

واجهتها بحلاوة الروح:

– من منا ملاك يا مريم؟ لا أنا ملاك، ولا أنت. لكن هناك شيئا فينا، شيء لا أعرف كيف أصفه. لكنك أنت، أنت، أنت!

همست بذهول:

– أنا أنا؟ ماذا تقصد؟

حملقت فيها، وهي تحملق، ورأيت بياض عينيها يلمع في الظل والظلمة والبؤبؤان يتجمدان ويتسعان وصوت أنفاسها تتلاحق:

– أنا ماذا؟ هيا قلها؟

ماذا أقول؟ ما نفع القول؟ هي تعرف فعلا ما تريد، أنا لا أعرف. تريد فقط أن تتسلى وتنسى الغائب. تريد مني أن أكون ذاك الغائب. وأنا معها في عمق الحب كانت تهمس بتلك الكلمات، ما معناها؟ وبأية لغة؟ ولمن تقال؟ للحبيب الغائب في شخصي؟ أليس هذا ما أبكاها؟

وأنا كذلك ما أبكاني؟ أليس اكتشافي بأني البديل؟ وعادت إلي ذكرى الأمس، وهي تذوب بين ذراعي، وتغرز أصابعها في شعري ثم ظهري، ثم الكلمات، تلك الكلمات بتلك اللغة، ما أتعسني!

جمعت أنفاسي، وعدت إلى غضبي المكبوت:

– تريدين مني أن انسي؟ طيب، حاضر. تقولين علاقتنا مضروبة؟ طيب، مفهوم. تقولين أخاك والأخوة وفوارق الدين والخلفية؟ هذا مفهوم، هذا ما أقول فقط لا غير. ولن أقول شيئا آخر قد أندم عليه. بالنسبة لي أنت صورة لن أكسرها مهما قلت، لن أكسرها. سأذهب من هنا، وسأنساك. لك ما تريدين، وهذا وعد. لكن للحق والحقيقة أني أحببتك يا مريم، ولو كنت لي بكامل قلبك لما توانيت عن أي شيء في سبيلك. لكن الآن، بل منذ الآن، فسأنساك.

ومشيت بسرعة عبر الممر ولم ألتفت ولم أتراجع. ولم يخطر لي في ذاك الوقت إلا الانتقام من حياتي ومن ضعفي. أردت الخروج من ذاتي. أردت أن أنسى ما قالته حول ضعفي. أردت أن أصبح غير أنا، لأني أنا لا أصلح لها، لا أصلح لشيء، لا أصلح لي.

ومشيت بسرعة عبر الظل، ومشت هي مع عنزتها، فاهتز الجرس.

9

ابتدأ الكلام، وبدأت القرية تتناقل قصة حبي. كنت صغيرا، وكنت مليئا بالحب والكتب وأشواقي وطموح كبير في أن أثبت أني رجل ولا كل الرجال، وأني كاتب، وأني عاشق وأني الفدائي الجبار والمؤمن الذي لا ينكص عهدا أو وعدا ولا يرتد عن إيمانه إلا بالموت. كانت مريم بالنسبة لي أكثر من حب، كانت ذاتي. وكنت أومن أن الإنسان إذا ما اختار تخرّ له أعمدة الكون. وكنت مليئا بقصيدة شعر كتبها أحدهم في يوم ما يقول فيها:

وإرادتي قدر على اقدامه تتكسر الأيام والأقدار

وما كنت أعلم في ذاك الوقت أن الإنسان – في عمق العمق – ليس حرا، فهناك الحب، وهناك الحرب، وهناك المرض والشيخوخة، وهناك الحوادث والصدفة، وهناك الموت. أمور ننكرها ونحن صغار لفجاجتنا، ثم ندرك أن الأقدار تكسرنا ولا تتكسر.

كنت قويا، بل ضعيفا، لكني ملأت مخيلتي بقصة ضخمة عن حب أزلي خالد يجد حياته بين الأضداد في قلب الموت. وبدأت أحلم بشهادة قد تنقذني من ذاك الجو. كنت أفكر... إذا تخرجت وحملت شهادة من لندن أنتقل للقدس وأصبح مرموقا ميسورا لا ينقصني مال أو جاه أو منصب. إذا تخرجت من لندن، سأكون وحيدا بين ألوف لم يصلوا الجامعة ولو صدفة، بل بالأحرى، لم تصل الجامعة إليهم هنا في القدس ولا الأردن.

كنا الأردن، كنا ما زلنا مع عمان ومع الأردن. وفي ذاك الوقت، كنا نسمع عن جامعات في بيروت وفي القاهرة وفي دمشق، أما عمان، أما الضفة، فكنا نراسل ونكاتب إما بيروت وإما دمشق وإما لندن. وبالنسبة لي ولأمثالي، كانت لندن شيئا فخما، مستوى عال وارتقاء أكيد. فإذا سئلت قلت بأنفة: شهادة لندن وهذا يكفي. لكن في الحقيقة لا يكفي، فبالنسبة لأبي كانت دراستي في لندن رهانا فاشلا على وظيفة تافهة لا تدفع عني شر الجوع. وبالنسبة لهم، أي أخوة مريم، كل الشهادات لا تعنيهم إلا شهادة أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله. فبالنسبة لهم كان الإسلام مجرد مزحة، عرجة تاريخ، صحراء وناقة وشجرة تمر وقبائل، قبائل عربان، أما الإفرنج، أما لندن، أما روما، فحكم وتاريخ وحضارة. لندن تمتد إلى القارات، تنهي وتأمر، فتخر لها هامات الحكم في أي مكان على سطح الأرض، وروما تهلل في كريسماس، فتدق لها أجراس الكون في كل فضاء وأولها المهد والقيامة. كانت لندن هي بيت الحكم، أما روما فهي بيت الرب. وأنا بالطبع لا لي نسب ولا لي حظوة في بيت الحكم ولا بيت الرب. ولهذا صنفت بالكافر والمتخلف، لأني لم أخرج عن بلدي وبقيت على دين العربان. وسمعت الناس يقولون فكتور، ويقولون طوني، ويقولون ميشيل فلم أتحرك، وبقيت سادرا فيما أحببت لا ألوي على شيء إلا مريم، وأحلم بشهادة تنقلني لرحاب القدس. وبقيت مريم تأتي إلي أو أني أنا آتي إليها. وساعدنا كثيرا ضعف النظر، إذ كانت الأم تفاجئنا في وضع مريب فلا نتحرك، نكتم نفسينا ولا نزفر، فتمر بنا مرور الكرام. لكن الناس ما تركونا ولا تركوا الأم. قالوا للأم مريم عملت، مريم سوت، مريم تعشق ذاك المسلم، والمسلمون شمتوا بنا، لأن بناتنا فلتانات مثل مريم. وايفون رأتني عند البقال، فاستدارت

بوجهها عني ولم ترد التحية حين بادرتها بصباح الخير. ثم القسيس قال لمريم: " إن الإنسان أخو الإنسان، لكن القرية والتقليد والأخوة وظروف الناس في هذه البلد في هذا العصر تحتم على المرء أن يتروى ويفكر بالناس قبل نفسه، أمك، إخوتك والسمعة، سمعة بنات الرعية، وسمعتنا نحن أمام الإسلام، ماذا يقولون؟ ماذا يعيدون؟ ماذا ماذا؟" لكن مريم لم تسمع. كانت قد سئمت من مثل ذاك الكلام ومن الوصاية وتكسير القلب. قصتها مع ذاك الراهب، وموت أخيها، وإحساسها بالذنب تجاه الاثنين، كل ذلك جعلها تتحدى أي تحذير وترد عليه بخشونة. لعنها الناس ونبذوها: المسيحيون، لأنها أحبت "ذاك المسلم"، والمسلمون، لأنها زانية تستحق الرجم. ما عادت تظهر في القرية، ما عادت تذهب إلى البقال، ما عادت تتردد على ايفون وبيت القسيس، وقاطعت الكنيسة، فلم تعد تذهب إليها. بت عالمها الوحيد، وإن ملّت تهرب للقدس وتلاقيني عند الأرمن. لكن الهروب إلى جو القدس مكلف للجيب وللأعصاب، فهي ما عادت تتحكم بمصروف البيت، أمها منعتها وحرمتها ولاحقتها بالتهديدات. قالت لها عيسى وطوني سيحضران في هذا الصيف لتدبيرك. بدأت تحلم بالهرب للناصرة عبر بوابة مندلبوم. خالتها الراهبة في الناصرة كانت تزورهم كل كريسماس عبر بوابة مندلبوم. خالتها الراهبة كانت تقول إن الناصرة هي الجنة، هي بيت المسيح، هي الجنة. قالت مريم بمنطق غريب فاجأني: "الحياة هناك مثل الجنة. الحياة هناك في إسرائيل مثل الجنة. ندخل بوابة مندلبوم، ونختبئ هناك ونتزوج."

حملقت فيها مندهشا، وقلت بغيظ:

– ماذا تقولين؟ نختبئ هناك في إسرائيل؟

قالت ببساطة شديدة، وكأنها ليست منا ولا تدرك أننا في حالة حرب:
– هناك نتحرر ونتزوج. هناك الحياة مثل أميركا.
قلت بحدة:
– ألا تعرفين ما إسرائيل؟ ألا تعرفين ما مندلبوم! أخي وضّاح والحسيني ثم الأسوار ومندلبوم وألوف الشهداء ومن ماتوا على باب القدس. ألا تعرفين كل هذا؟ نحن هنا في حالة حرب، ألا تعرفين!
قالت ببساطة وسذاجة:
– أعرف، أعرف، لكنا نحن! من الأهم؟

تذكرت ما قالته أمها حول الأبناء وبلدنا ومن الأهم، ثم البرازيل والراهب ودير الرهبان، ومريم تربية ذاك الجو، لا ارتباط بهذا البلد، لا ارتباط بهذا الواقع، ولا ارتباط بالقضية...مثل السياح! لكني أنا ابن الواقع وأخو وضّاح، وهناك أبي وأمي وسارة، والوظيفة، والشهادة، وحلم في أن أصبح يوما سيد ذاتي. لكن الواقع يتطلب الانتظار واجتياز المراحل على جرعات، خطوة خطوة، والنفس الطويل. حرق المراحل لن يجدي. نحن نبني للمستقبل. أما الحاضر، فالصبر جميل، وما زال الشتاء في منتصفه، ويحلّها الحلال حين مجيء الصيف.

لكن الحمل فاجأنا. حملت مريم ولم تجد كل حبوب القدس في إنزاله. ولم يبق أمامنا إلا الإجهاض والعملية، وتلك بحاجة لمبلغ من المال لا نملكه. وكان لا بد من اللجوء إلى الوالد. لكن الوالد أصر على التعرُّف "بالنصرانية" ذات اللكنة، إذ سمع عنها من الصاغة وتجار الصدف والفضيات. قالوا ابنك، ابنك عالق بنصرانية، الحق بابنك. ولم

obeikandi.com

يلحق بي، فلحقت أنا، وها هو الآن يفاوضني ويساومني حتى أقبل بمشاريعه. صار المشروع عدة مشاريع. منشار هنا، ومنشار هناك، وأنا أدير عدة مناشير. قال ببرود: "نصرانية؟ طيب وماله! هاتها لنشوفها ونتعرف، قال التجار عنها حلوة!" لكن مريم رفضت بعنف وقالت بنفور: "أنا لن أخرج عن طوع أهلي حتى أدخل في طوع أبيك." قلت لأتفشش من ضعفي: "على الأقل اسمه إسماعيل وليس طوني." غضبت مني ثم عادت بعد يومين لتصالحني، وتقول لي: "هيا نفكر ماذا نعمل؟ بطني يكبر."

قال الوالد:

– اسمع مني، اذهب هناك، وابن الصحرا واكسب دولارات واكسب مريم. خذها مع أختك وتوكل. حكِّم عقلك، واضرب عصافير بحجر واحد. عدة عصافير.

لكن العصافير صارت أقفاصا وسجونا تتهددني. بت سجينا، بت حزينا وأحس بالخوف والتردد. سأفقد ذاتي، سأفقد حلمي في أن أصبح كاتبا مرموقا بشهادة، شهادة النشر وشهادة لندن. شهادة النشر! أنا لم أنشر حتى الآن، وقصصي تنتظر متابعتي وملاحقتي وتكريس الذات. أنا لا أكتب، أنا لا أقرأ، أنا لا أدرس وأبني اللبنات لبنة لبنة، طوبة طوبة، خطوة خطوة نحو المستقبل وتحرير الذات. بدأت إذن أفقد روحي وطموحاتي ولا هم لي إلا مريم وإيجاد الحل. اختل توازن حياتي وصرت عبدا، فقدت أجنحتي واحترام الذات وثقة القسيس. جاء القسيس يسأل عني، فهربت منه ونزلت القدس. حاولت سارة

أن تفهم لماذا أرفض مرافقتها لزيارة الوالد وإنهاء مراسيم العرس. أمي تُسمِعني مر الكلام، لأني ما زلت أهملها وأهمل قضية انتقالي والرجوع للقدس. وأنا ضائع بين الأطراف وملاحق من قبل الجميع: أبي يلح، أمي تلح، سارة تلح، ثم القسيس، وفوق هذا وذاك أخوة مريم وكلام الناس وعملية إجهاض لم تتوفر وابن مريم. ابن مريم صار عدوي. ابن مريم صار غريمي. ابن مريم قلب حياتي وقناعاتي. كنت أومن أن الإنسان هو ما يختار وجاء ابن مريم ليثبت لي أن الإنسان ما قال الشيخ حين تمردت. رفضت السماع في ذاك الوقت، ورفضت الجلوس بين العامة. وكنت أظن أني أرقى من ضعف الناس وتهافتهم. زوارق ورقية تتقاذفها الأمواج بلا إرادة. ضعف مطلق. خوف مطلق، قلة حيلة، نقص في الفكر وفي التخطيط. لكني أنا كاتب فنان ومخطط. شهادة لندن. قصص تنشر. تميز وتجاوز وارتقاء. صورة وضاح. نموذج وضاح والحسيني. هم حملوا السلاح ولم يهِنوا، وأنا بدوري حملت القلم. لولا مريم وابن مريم! ابن مريم لم لا ينزل؟ لم لا يُجهض؟ وأنا سجين حب امرأة لا تعرف وضاح والحسيني وما إسرائيل وما مندلبوم. تربية الغربة والبرازيل ودير الرهبان. امرأة تعيش كالسياح. امرأة ترطن وتكسّر لغة الأجداد. امرأة لا تقرأ ما أكتب. امرأة لا تفهم ما أحكي. امرأة تحكي عن ميشو وكأنه مثل وضاح شهيد فلسطين. امرأة عالمها ضيق رغم القارات. امرأة تبعدني عنها كل المسافات. امرأة قلبت حياتي وابن مريم. ابن مريم هل هو ابني؟ ابن مريم أهو من صلبي؟ ابن مريم، ما يثبت لي أنه مني وليس من الراهب من قبلي؟ من يثبت لي أني الوالد؟ من يثبت لي أنه ابني ... ابن مريم؟

10

وجاء الصيف وأنا ما زلت أتخبط. مريم كبرت، كبر الجنين وصار بطنها أكبر من أن تخفيه. اختبأت في الدار لا تغادرها، وصارت عصبية وحساسة، وأمها رغم ضعف النظر اكتشفت الحمل والمصيبة فازدادت قسوة. مريم الآن ليست متهمة بقتل ميشو فحسب، بل قتل العائلة بأكملها.

وازداد التأزم مع الهياج في الوضع العام وبوادر حرب. عبد الناصر أطلق بياناته عن شرم الشيخ، فاشتعل الجو، وبدأت إذاعات العالم ترغي وتزبد، وأغاني النصر والتكبير تملأ الأسماع، و"صوت العرب." امتلأ الشارع بالشباب، والقهاوي تضع سماعاتها في الشارع حتى يسمع كل المارة صوت ناصر وأغاني الثورة والتحرير. امتلأت القدس بأقواس النصر وصور ناصر وقصص وحكايا عن يافا حين تحرر ونصل الساحل. ماذا نفعل بهؤلاء اليهود ومن سرقوا بيوت العرب وشردوا شعب فلسطين؟ ماذا نفعل بشواطئنا حين تصبح في أيدينا؟ واجتاح الهياج كل شارع، وركب الشباب السيارات والشاحنات، وهم يلوحون بقمصانهم ويرددون: "يا فلسطين جينا لك." وغني كبار المطربين أغنيات النصر والحرية ووحدة العرب المنبثقة من قلب القدس. وانضوت النساء في مجموعات يتدربن فيها على الإسعاف وحمل السلاح. جمعوا الصبايا والشباب في المدارس، وبدأوا التدريب

obeikandl.com

على قطع السلاح قبل أيام من اشتعال الحرب. حاولت سارة الانضمام إلى مجموعة، فسحبتها أمي إلى القرية وجاءتني بها حتى تحميني وتحميها. كنت في المدرسة ذاك الصباح أسمع أخبار التحركات في شرم الشيخ، وإعلان الملك دخول الحرب. اتسعت الجبهة وشملت كامل دول الطوق إلا لبنان. دخل البواب، وقال لي: "أمك وأختك،" فهرعت بهما إلى غرفتي وأنا مشدوه. أصبت بجنون الفوضى مما أنا فيه، فهناك الحرب، وأمي وسارة في زريبة الغنم، وهناك مريم تلاحقني! ماذا أفعل بكل ذاك الضغط؟ وتحرك فيّ عرق كامن كان يراودني منذ سنين وصورة وضاح. حيفا ويافا وقصيدة شعر وأحاسيس لم أدركها كما أدركتها في ذاك الصيف. بتّ صريعا لأحاسيسي، أهوج وأموج مع الراديو وأدور الطرقات أتخبط وأحس أني أكاد أطير من الحماس والفوضى. جاءت مريم مع عنزتها، والعنزة تموء وتهز الجرس. جاءت إلي لتذكرني بما نحن فيه، فأحسست بنفور وقرف. نقرت الباب وشباكي، فخرجت سارة، وقالت بجفاف: "نعم يا ست؟" قالت مريم بصوت كالهمس: "أريد إبراهيم." قالت سارة بصوت مرتفع سمعته: "إبراهيم في القدس وليس هنا. ماذا تريدين من إبراهيم؟" ورأيتها تتفحصها من فوق لتحت، ثم سألت بخبث: "أنت مريم؟"لم تجبها وادعت أنها لم تسمع السؤال، وقالت همسا: "شكرا." ومضت، وأنا ما زلت مختبئا خلف الشباك.

قالت أمي:

– من هي مريم؟ قل بصراحة، أصحيح ما سمعت عنك وعنها؟

لم أجبها، وألصقت أذني بالراديو، وقلت:

- اسمعي عبد الناصر.

قالت سارة:

- الحب للناس الملطوشين، أنت صاحي والا ملطوش؟

قالت أمي:

- يعني مظبوط؟ قل بصراحة.

لم أجبها، فتركت السكين من يدها وتقطيع الخضار، وقالت بهم:

- إحنا ناقصنا؟ لا تقول لي ناصر ولا مريم، مش ناقصنا. أختك تتزوج، وأنت تروح معها للسعودية، وتاخدني معك. معقول تتزوج عالصورة؟ أنت أخوها. أنت المسؤول. أبوك البوّاق مش قدّ الحمل والمسؤولية. أنت المسؤول. أنت اللي حيلتنا من الدنيا. أنت سندنا. أنت اللي باقي لي من الدنيا. أنت الدنيا. أنت حياتي.

ونظرت إلي نظرة حميمة سحبت قلبي من جذوره.لم تكن العلاقة بيننا في يوم ما بهذا الإرهاف.لم تكن تناديني بألفاظ حلوة بهذا الشكل، أو ربما كانت تفعل، لكن وضاح، وخيال وضاح، وصورة وضاح حجبوا عني كل الألفاظ والعواطف. كما أن أبي كان يردد، وهو يتأمل وجهي الشاحب: "هذا الولد يرعى ع بلاط... الله يستر." ونشأت على ذاك الإحساس، بأني نفل مثل ثمرة ستسقط عن الشجرة قبل الأوان، لأني أصفر، لأني ضعيف، لأني ناحل. أما وضاح، فطويل مرتفع كالنخلة. لكن النخلة المرتفعة هوت ذات يوم واندثرت ولم يبق في الدار إلا سارة والولد البديل و... يا بادل النخلة بسخلة. هذا المثل كم سمعته، وكم رددته بعقلي الباطن، وكم آذاني. بل ربما ما سمعته وتخيلته. من يعرف

الآن سر الذاكرة وما نذكر؟ هل نذكر فعلا ما نرى أم ما نحس وما نبطن؟ لا فرق كبير، لأن النتيجة محسومة. والنتيجة أني أحسست بأني السخلة وهو النخلة، وأني بالفعل أرعى ع بلاط.

وعادت تردد بانكسار خلع قلبي:

– إذا صار لك شيء بقتل حالي. من بعد أبوك وبعد وضاح ما بقي لي حد إلا أنت. أنت حياتي. أنت عيوني.

ونظرت إلي نظرة حزينة، وقالت برجاء: "أوعَ تعملها وتتركني مثل أبوك!"

قلت بإحساس: "معقول يمه! أنت البركة. أنت حبيبتنا وست الكل."

طأطأت رأسها ورأيت الشيب وجلدة رأسها الناصعة تحت شعر خفيف، وأحسست بقلبي يتقطع. أمي المسكينة ما فعلت؟ ما الذي أذنبته في الدنيا حتى تنال كل هذا العقاب؟ لا زوج، لا ولد، لا أخوة يعتمد عليهم، ولا حتى ابن يرعاها، وها هي الحرب تهددها وصورة وضاح.

قلت همسا:

– لو خيروك شو تختاري، أنا وإلا القدس؟

انتفضت وحملقت وجمدت السكين في يدها، وقالت بذعر:

– شو هالسؤال؟

قلت برقة:

– من باب العلم، لو خيروك شو تختاري؟

لم تجبني وعادت سكّينها للحركة. فعدت ألح:

– يعني لو قلنا أخذوا القدس.

رفعت عينيها وحدجتني بنفس النظرة التي كانت ترعبني وأنا طفل صغير، فأحسست أني عدت صغيرا وهي كبيرة، أكبر مني، لكن عينيها امتلأتا بدموع العجز. ونكست رأسها ولم تنطق. وأحسست بالندم والإشفاق، وأنا أرى رأسها الذاوي وجلدة رأسها من تحت الشيب. فسحبت فضولي إلى الداخل، وقلت بإشفاق: "آسف، آسف." والتفت إلى المذياع كالملسوع، لأن خطاب عبد الناصر كان يحدد مصير الأمة وبوادر حرب. وحين سمعته، قالت أمي بدون تفكير: "يسلم هالصوت." وعادت إلى تقطيع الخضار وأرهفت السمع.

كانت تحب عبد الناصر. كانت تقول: "لو كان أخوك بزمن ناصر كان صار مثله." سألت بغيرة: "طيب وأنا؟" التفتت إلي، وقالت برأفه: "وانت كمان شاطر وقبضاي، يلا كل منيح وادرس منيح حتى تكبر وتصير رجّال مثل وضاح." وها قد كبرت، أكلت منيح ودرست منيح، لكني ما صرت مثل وضاح. آه يا مريم، أين طريقي؟

وفي الصباح أوصلتها لباب العامود بعد أن قطعت وعودا تتضارب، وعدا لأمي المرعوبة، ووعدا لناصر وأحلامه، ووعدا للقدس. ووعد ناصر هو وعد القدس.

obeikandl.com

وجاء الأخوة قبل بدء الحرب بثوان. هرعوا إلى القرية ليجدوا الحل للفضيحة. تركوا الأعمال في البرازيل رغم إعلان حالة الطوارئ في الموانئ والمطارات. جاءوا لإنقاذ ماء الوجه وكرامتهم في قرية تقف وتتفرج وتنتظر القتل. قتل المرأة في هذا الوضع هو القانون والتقليد، ولا شيء يغسل عار البنت إلا دمها. هربت مريم ولجأت للكنيسة والقسيس، ثم جاءت إلي لتحذرني رغم جحودي. دقت الباب ثم الشباك تحت التينة، وقالت همسا: "اهرب، رصاص، عيسى وطوني!" وبعد دقائق سمعت رجلا يصرخ في الليل: "يا إبراهيم!" وانهمر الرصاص، فاختبأت في كهف تحت التينة، ثم تسللت عبر الكروم في طريق ملتوية ترابية حتى وصلت مشارف القدس. ورأيت شبابا يركضون ويتدربون بالكاكي، وخلفهم سيارة جيش. اندسست بينهم وواصلت الركض حتى وصلنا باب العامود، وهناك انسحبت بتسلل، ودخلت السوق، ووصلت الدار مع آذان الفجر. فتحت أمي، وكانت قد قامت لصلاة الصبح، وحين رأتني بدأت تبكي. ذكرها شكلي المتداعي وتراب الطريق بصورة وضاح.

مع الضحى، رأيت الشباب في الحارة يقفون في الصف ويتدربون على فك السلاح وتنظيفه. جاء ضابط ووقف في الوسط وهم حوله، وأخذ يفك مسدسه قطعة قطعة. هذا زناد، وهذه الفوهة وبيت النار، وهذه قنبلة يدوية. قنابل يدوية قديمة وسلاح شحيح، لكن الشباب كانوا يغنون مع الراديو، والراديو يذيع أخبار النصر وتحرير القدس الغربية وحيفا ويافا، وأنا أنظر من خلف النافذة أرقبهم، وأحس بخجل من وضعي. الناس في الخارج يحتفلون بتحرير القدس، وأنا اختبئ من

مريم وأخوة مريم. لولا مريم وابن مريم!

في ذاك المد والغليان ضاعت مريم. ارتددت للخلف وذاكرتي، وبدأت أندمج بدنيا الناس والقضية. وخلال أيام سحبني الطوفان والهيجان وهياج أبي، وهو يتخيل كيف يكون الحال بعد التحرير. بعد التحرير ستكون القدس قدسا أخرى، قدس جديدة، بل القديمة بلا أجزاء ولا حواجز ولا مندلبوم. سيسقط السور وتنطلق الجموع نحو الساحل وميناء البحر. ميناء حيفا ومرافئ وسفن وبواخر وتجارة وعالم واسع. عالم واسع، أفق واسع، واختراق الحواجز والتاريخ. نحن أمة بدأت تصحو وتأخذ بزمام المستقبل. ذكرني الجو بأحلامي وصورة وضاح. باتت مريم قصة قديمة تذروها الرياح، بل قصة واهية لا تدخل باب التاريخ. بات التاريخ في أوراقي، بل بت أنا عصب التاريخ. تاريخ الأمم بما كتبوا، وأنا أكتب قصص التاريخ. وفي غمرة قصص البطولة، تنكمش القصص الفردية، ويذوب الفرد. وهكذا باتت مريم ذكرى باهته منسية، ذكرى مرت، حب ضائع.

ضاعت مريم، وضاعت ذكراها، وضعت أنا، وضاعت القدس. وبتنا طرفين في ضفتين يفصلهما نهر وبنادق وجيش احتلال، وبت أنا نفرا في ثلة من الثوار صارت مجموعة من فصيل، ثم عمليات فدائية عبر الوادي ونهر الأردن. صرنا المنفى.

obeikandl.com

أيقونـــة

obeikandl.com

11

مرت سنة وتلتها سنين، وأنا أتغير وأتنقل بين العواصم والتنظيمات. التحقت بالسلك السياسي، وصرت ملحقا في مكتب المنظمة في لندن ثم روما ثم نيويورك، وهناك تزوجت أميركية كانت ناشطة في الحركة ضد فييتنام. تزوجنا وتطلقنا خلال سنتين ولم أنجب منها إلا "جرين كارد." انتقلت للنمسا وتزوجت نمساوية ثم طلقنا بعد سنة، ثم ايفا، ثم ايفلين، ثم سوزي، حتى تزوجت من عربية حين انتقلت للسعودية. في السعودية التمّ شملي على سارة وكان مشروع الحجارة قد ضرب السوق. أخذني زوجها ولففني في الشوارع، وأراني عمارات وقصوراً كلها مبنية من الضفة. حجارة الضفة مطلوبة في سوق الخليج، وبات الخليج يعني دبي والشارقة وأبو ظبي وأم القوين. انتعش السوق وتدفق النفط وبتنا نعوم في البترودولار وفسدنا. باتت مكاتبنا دكاكين، ونامت على يدنا القضية. تنظيمي تفتت وتناثر وبتنا فئات تتناحر. فهربت من الجو المشحون والقضية وما عدت أومن إلا بذاتي وقدرات الفرد. دخلت السوق وامتطيته، وجلبت الحجارة والعمال من الضفة. مشروع أبي بلغ الذروة، وأنا أثبت أني ناجح، فبدأت أبني العمارات والمصانع، وأبيع الشقق والإسكانات. ثم تعاطيت المقاولات في حرب الخليج، وزودت الجيش الأميركي بالمناشير والجرافات لحفر الخنادق وشق الطرق، وهكذا صرت ثريا...بالملايين. وفتحت مؤسسة باسمي ترعى الأرامل والأيتام في فلسطين. بت علما اقتصاديا، والمحسن الكريم للمحتاجين، وراعيا للأدب والثقافة مع أني لم أنشر إلا

مقالات سياسية وبضع أقاصيص. بت وجيها اقتصاديا يحسب له مليون حساب، ودخلت البلد مع العائدين، ووطئت القدس بعد المنفى وغربة استمرت مليون سنة. أمي ماتت بعد رجوعي ببضعة أشهر، وأبي قد مات منذ سنين، وخلف لنا عدة مناشير. توليت أمر المناشير، واشتريت دارا في رام الله، سكنت فيها مع خادمة من الفلبين وطباخة ممتازة من المغرب. لكن لا حب ولا زوجة ولا ولد ولا بنت ولا أصدقاء، لأن الرفاق غابوا عني، بعضهم أحياء ضاعوا مثلي، وبعضهم ماتوا ورحمهم الله، وأنا بقيت بلا سلوى، وبلا إحساس ولا هواية. ضاع الأدب كما ضعت أنا وحنين الروح، لكنني حصلت على جواز سفر جديد أحمر وعبور الجسر مع الامتياز. وهكذا تأكد شأني.

وفي ذات يوم، أثناء المرور بمؤسستي، مؤسسة النور، تلقيت مكالمة غريبة أعادت إلي ذكرى الماضي ورؤى الأحلام المنسية. كان القسيس! وقد بات مطرانا ذا شأن. حكى معي بلهجة ودودة وذكرني بأيام القرية، وهوايتنا وصداقتنا، وأحلام الأدب. قلت له إني آسف، لأن الأدب هرب مني. ضحك للنكتة وجاملني وقال الإنسان بما يفعل، وأنت فاعل. فأدركت دعوته الخيرة لأعمال الخير، وقلت إني على استعداد لأن أتبرع بأي مبلغ، ولأي عمل يشير إليه. شكرني، وقال إنه سعيد بما يسمع وهذا يؤكد صداقتنا وعلاقتنا ويؤكد حسن ظنه فيّ. أقلقني رده وآلمني، لأنه ذكرني بما أنكرت. حاولت امتحان ما يبطن، فأشرت إلى القرية والماضي عساه يقر بما يضمر، فأجاب بأدب ولباقة، أن الزمن غير ذاك الزمن، وأن الأحداث غير الأحداث، وأن الناس هم غير الناس. وأشار بلطف: لو كان الماضي في الحاضر لكانت القصة

مختلفة. وفهمت منه بانه لا يبغض ما فعلت، ولا يدين ولا يتهم. وأنهى المكالمة بدعوتي لزيارة مكتبه في القدس. كان قد انتقل لمدينة القدس منذ سنين، وبات له شأنا آخر، وأضحى مطرانا بدل القسيس! كان قد قارع الاحتلال منذ حلوله، وله مواقف وقضايا كتبوا عنها. إذن الأحداث غير الأحداث وحقا الدنيا تتغير وسمات الناس. بتنا شيوخا وكهولا، بتنا عكاكيز. أنا أتعكز على عصا حين أمشي مشاوير العصر، رغم أني ما زلت قويا منتصبا مثل النخلة. شعري خفيف رمادي ويداي مرقطتان ببقع الكبد وسوء الهضم وبعض أمراض الشيخوخة، ضغط وسكر وعدم انتظام دقات القلب وانسداد مزمن في شريانين، ما بين الفينة والأخرى أقوم بتسليكهما في لندن. لكني مع ذلك ما زلت أحب النساء وأذكر مريم، وأحب العلم والثقافة، وأومن بالمال كمحرك وقدرات الفرد ... وتكنولوجيا المعلومات. عالم مختلف عما عرفناه في الستينات والسبعينات والتسعينات. صرنا الألفين، صرنا سلطة. أنا سلطة مال، وأنفذ منها لسلطات الحكم وما يحدث خلف الكواليس. صرنا فلسطين بدل الضفة، وصارت أميركا هي المرجع بعد أن كان السوفييت. راح السوفييت وراح العالم باتجاه السوق وتخصخصنا. بتنا فلسطين المخصوصة والمقصوصة وتغيرنا. بتنا أتباعا لا ثوار. بتنا شظايا. وهكذا تغير حالي وصار إبراهيم غير إبراهيم، وصارت القدس هي غير القدس، وصارت أحلامي هموما ووحدة وفراغا والزوهايمر، وضياع القدس.

*****

مشيت والمطران نضرب في السوق. كان النهار قد ارتحل وارتحل الناس، كل يختبئ في بيته خوفا من الليل وبساطير الجند، ولم يبق في الشوارع المسقوفة والزواريب إلا أضواء البلدية والكناسين، وشاحنات صغيرة كلعب الأطفال تخترق الزقاق برشاقة وتسحب ما تكدس من كرتون وأكياس قمامة وصناديق. القدس الآن قذرة جدا، مهملة مهجورة كوجه عجوز، بعكس ما كانت في الماضي أيام الصبا وشباب القلب. ومررنا أمام دير الأرمن، فعادت إلي ذكرى مريم والياسمين والمجنونة، والنوم بالهوستل والزنزلخت. في ذاك الوقت كنت جميلا، كان العالم جميلاً جدا، ومليئا بالأمل والأحلام. وكان لي مثل الدوري وحمام القدس أجنحة بيضاء أفردها فوق القباب والجرسيات، فأرى نفسي فوق المادة وأطير مع الأرواح عبر الزمن. القدس مليئة بالأرواح، القدس مليئة بالأطياف، القدس مليئة بالتاريخ. وبيوت الناس في الزواريب تشكلها أقواس وحجارة عتيقة تعي أحزان من سبقونا وهموم المسيح، وتعي الأديان والرومان وقبائل بدو ومدائن تحت الأنقاض وطبقات الأرض. وها نحن نسير فوق الماضي كما سيسير جيل آخر فوق الحاضر. جيل آخر، جيل لا يعرف إلا الشك فيمن سبقوه. هل أخطأنا؟ من لم يخطي! لكن الخطيئة الجماعية لا تنفي أوزار الفرد.

التفت إلى المطران وهو يمشي مستغرقا في أفكاره، وتمنيت لو يفتح قلبه ويقول لي ما لم نقله. لكني أعرف ما سيقول، سيقول ما قيل في الكنائس منذ القدم ووعظات يسوع. سيقول الندم، سيقول المحبة والتكفير، ويقول التسامح والإحسان. هذا ما قيل في كل صلاة وفي كل

المواعظ على كل لسان، لكن في القلب، ماذا في القلب؟ ماذا يضمر؟

قلت ببساطة طفل صغير، وأنا أحاول إيجاد طريقي إلى حديث أكثر عمقا،

- قل لي يا صديق، أتؤمن بالروح؟

ابتسم برفق وهو يمشي وينظر أمامه ويتأمل أكوام القمامة والدكاكين ووجوه الباعة المكتئبين وظلام الطريق، وقال مبتسما بمودة:

- طبعا أومن.

وأضاف ببطء، وهو لا يكف عن التحديق في القمامة ووجوه الناس:

- وأومن بالجسد وأحزان الناس.

والتفت إلي وسأل برقة:

- لكن قل لي، هل تؤمن أنت؟

أومن بالروح؟ طبعا أومن. أومن بالجسد؟ أهناك جدال حول الموضوع؟ وأومن بالناس؟ أنا لا ادري. وشيء آخر أنا لا أدريه، إن كنا الروح، وان لم نكن، فمن منا الروح؟ أم في الواقع، قدس بلا روح؟

قلت مرتبكا مضطربا، وأنا أرى ما وصلنا إليه وضياع القدس:

- لكن الروح تملأ القدس، فلماذا إذن ترضى بالظلم؟

لم يجبني، فمضيت أقول:

- أنا لا افهم! ما جدوى الروح إن كان الظلم هو الثمرة؟

obeikandl.com

لم يجبني وبقي يسمعني بلا تعليق. فصمت وغبت في أفكاري، وعدت أتخيل ما سأقول وكيف أبدأ، وما ستكون ردة فعله، وأخيرا وقفت وسط الشارع، وقد مللت من الدوران، وقلت بسرعة:

- قل لي بالله، هل تعرف شيئا عن مريم؟

حدجني المطران بنظرة طويلة، ثم قال ببطء:

- أتريد حقا أن تعرف أين مريم؟

أسقطت يدي إلى جانبي، وأنا أدخل في أعماقي فوجدت الشك، ووجدت الخوف، ووجدت القلق والوحشة. أردت الهرب، فتلكأت وحاولت لفلفة الموضوع، ففتحت موضوعا آخر:

- أترى يا صديقي أين وصلنا؟!

وكنا قد وصلنا إلى الحافة عبر بوابة باب الخليل، حيث الإسمنت والكشافات وجسر يقع فوق ألف طريق. اسمنت محاط بدرابزين كقضبان السجن، وهناك القدس الغربية تنظر فينا وتذكرنا بوجه كنا نسيناه منذ النكبة وانشطار البلد إلى شطرين، وانشطار الجسم إلى جسمين، وانشطار الروح إلى روحين. من يجمعنا؟ هذا إذن، جسد الأخرى، وروح الأخرى، فكيف إذن أجد روحي وأنا أضيع فوق ألف طريق؟ هذا الطريق ليس طريقي، وأنا قطار ضاع صفيره فوق السكة وخط مفصول عن هدفه وطريق الوصول. وروحي مركبة فضائية شاء لها قدر غاشم أن تصل الأرض ولا تطلع؟ أدور هنا أبحث عنها، وأخور جبنا وأتغابى فأنسى الأحزان. لكن في العمق، في عمق

obeikandl.com

العمق، أنا ما زلت ذاك الكاتب، روح الفنان، لكن لساني لا يجرؤ على قول الحق.

وعاد المطران يذكرني:

- أتريد حقا أن تعرف؟

سحبت ذراعه ووقفنا أمام تلك الأخرى، تلك الغانية الأوروبية ذات الأصباغ، ووجه غريب لا يذكرني، بل ينكرني، وأنا أنكره، لكني الآن تحت السماء القدسية وحنين القلب إلى القبلة وامتداد الطريق، أريد أن اعرف ما أخفيت، وكيف تبدلت، وكيف أعود.

نظرت إليه وقلت بحيرة:

– رجعت هنا رجل آخر، هل تعرفني؟ لكني أريد أن أعرف ويلجمني الخوف. أريد أن اعرف أين أنا، وماذا أريد وما أفعل. جزء مني ذاك الكاتب، روح الفنان، لكن الخوف يكبلني. وجزء آخر، ذاك الآخر، جزء لا يصل ولا يشبع ولا يجد حدودا ولا مرفأ. وأنا مع من؟ أنظر حولي وأرى غابة، والكل ذئاب. ذئاب عرب وذئاب يهود، وذئاب محافل دولية. وفي هذا الغاب، كيف أرتد إلى ما كنت؟ من يسحبني من هذا الجب؟ لا شيء يعيد إلى الماضي براءة ما كان إلا ما كان. أين مريم؟

التفت إلي، وقال بإلحاح:

- أتريد حقا أن تعرف؟
- طبعا أريد أن أعرف.
- إذن اسمع، افتح إذنيك واسمعني. هناك رجل يعرف عنها، أو بالأصح قد يكشف لك.

- ماذا تقصد؟
- اسمع وافهمني وتأمل. هناك رجل مثل الراهب، لديه قدرات عجيبة، يقرأ الأفكار والمستقبل، ويعرف أشياء لا نعرفها، مثل: التنويم، والتناسخ، والتخاطر، وما إلى ذلك من أشياء، أنت تعرف.
- لا، لا أعرف، ماذا تقصد؟ شغل الأرواح؟
- أنا فعلا وحقا لا أعرف، لكن ايفون تقول أشياء غريبة، إذ يقول الناس إن الراهب يجد المخبوء ويرى ما يجيء في المستقبل، ويجد المفقود بأعجوبة.
- يعني فتّاح ومشعوذ!
- أنا لا أعرف، لكن ايفون تقول أشياء تصدقها.
- وتصدق أنت؟!
- أنا لا أعرف، لكن للحق قرأت كتبا عن هذا العلم أو هذا الفن، وبدأت أشك. ماذا لو كان هناك أشياء لا نعرفها؟ ماذا لو كان هناك عالم لم نصل إليه؟

وقفت في منتصف الطريق ونظرت إليه، وقلت بدهشة،

- أنا لا اصدق انك بالذات تقول هذا.
- أنا نفسي محتار مما أقرأ ويملأني الفضول لأن اعرف. وهذا الرجل، هذا الراهب، يقولون عنه ما لا أفهمه.
- يعني ماذا؟ مختصر الكلام؟ تريدني أن أذهب إلى الراهب كي يفتح لي حتى أعرف أين مريم؟ أهذا معقول؟

رفع يده، وابتسم بصبر:

- اسمع، اسمع، أنا لا أدفعك إلى هذا، فقط أقول جرب وحاول.

هل تخسر شيئا إذا حاولت؟

- أمعقول هذا يا مطران؟ أذهب لدجال بحثا عنها؟ أهذا معقول؟
- ليس دجالا، لا أعتقد. هو فعلا غريب، أثار فضولي، فتتبعته، وعرفت أشياء مثيرة. تربى في الدير لدى الرهبان، وهناك بالطبع تعلم صنعة وأتقن تدبيج الإيقونات ونحت تماثيل القديسين. ثم اتجه نحو التصوير، فالموسيقى، ثم اللاهوت، ثم الريكي. هل تسمع شيئا عن الريكي؟
- لا، لا أعرف.
- ألديك فضول لأن تعرف؟
- لا فضول لدي سوى مريم، كيف أجدها؟

لم يعلق وظل يسير وينقر الأرض بعصاه، وبالتالي ينقر رأسي، فشددت ذراعه وتوسلت:

- أنت تخفي عني أشياء. ماذا تعرف؟ أين ذهبت؟ ما حل بها؟ هل ولدت بنتا أم ولدا؟ قل لي أرجوك.

نظر إلي نظرة طويلة، وكنا نقف تحت قنديل البلدية والضوء يسقط على رأسه، فيبدو شعره هالة بيضاء تتناثر فوق جمجمة يكسوها الجلد، أبيض، لامعا، مشدودا مكدودا كجلد قثاء. الزمن يمر، وهذا المطران بات عجوزا، وأنا مثله. آه يا زمن، ماذا تأخذ؟ ماذا تبقي في هذا العمر؟ فشددت به حتى أعرف ما بقي لي، وقلت بلهفة:

- قل لي أرجوك.لم يبق لي ما أمسك به، ولم يبق لي أحد في الكون، لا ولد ولا بنت ولا عزوة. لم يبق لي إلا ما كان. دعني أعرف، أسمع

obeikandi.com

عنها، كلمة، إشارة، قل لي أرجوك. أنا مستوحش.

تمتم همسا:

- وكل الأموال!!

شددت ذراعه:

- مجرد لا شيء، صدقني، مجرد لا شيء. في هذا العمر كما تعرف، كل الأموال لا تنفع.

هز برأسه:

- الآن عرفت؟

هتفت بيأس:

- أنت تعاقبني على الماضي! أنت تتشفى بجراحي. لكن المسيح غير هذا. أنا مستغرب.

وقف ثانية، ورفع يده:

- أنا أعطيتك ما عندي. أنا أمد بطرف الخيط. هل تخسر شيئا إن جربت؟

صحت بحرقة:

- تقصد أجدها لدى دجال؟! أهذا خيطك؟ أهذا حقا ما تقدر عليه؟

– هذا ما لدي، ماذا أفعل؟ وشيء آخر قد أقدر عليه، وهو أن أرسلك إلى الراهب في باص الغد. باص الجمعية يمر غدا فتروح معه عند الراهب.

- لم أنت مصر؟ لماذا؟ ما السر؟ أنا لا افهم!

- هو طرف الخيط، جرب، حاول، لن تخسر شيئا إن حاولت. وإن وجدت ما تبحث عنه دعني أعرف، فلدي فضول. أريد أن أعرف ما تعرف.

obeikandl.com

12

في اليوم التالي جاء عزيز، وهو سائق في الجمعية، وقال: "سآخذك إلى الراهب." فركبت معه في باص صغير مليء بالكتب والصناديق، وسلة فاكهة أرسلتها ايفون إلى الراهب.

عزيز رجل في الخمسينات، مربوع القامة ببطن كبير، وشعر خفيف، ويتنفس مثل المنفاخ. عزيز يلثغ، يقرط بالراء، فتبدو ياءً، ويلثغ كثيرا، ويتنحنح، فيصيبك بالضيق والتململ، وتتمنى لو يصمت ولو لحظات، لكن عزيزاً لا يصمت، يحكي ويحكي ويظل يقول: "يا أستاذي" حتى تود لو تلقي به من النافذة حتى ترتاح. لكن عزيز يحكي أشياء تثير العقل وتتحدى الخيال، فتتسمر. يقول: الراهب يا أستاذي فعل كذا وكذا وكذا. يقول: المسيح يا أستاذي أقام الأموات، وهذا الرجل يقيم الأموات. يقول: المسيح يا أستاذي يشفي المرضى، وهذا الرجل يشفي الأمراض. يقول: المسيح يشفي العميان، وهذا الرجل يشفي العميان. هل تصدق؟

نظرت إليه، وابتسمت بغيظ. أهذا رسولي إلى المعرفة؟ نصف مخبول، نصف مهووس ويثأثيء! شيء بديع! شيء مدهش.

ونظرت بعيدا عبر الأفق وامتداد الطريق حتى أكتشف أين وصلنا، لكن الطريق الملتوية عبر الهضاب وجبال القدس تتوهنا، فهناك زيتون

وعنب وتين ولوز في كل مكان، وتربة حمراء كالحناء، وصخور بيضاء لبنية، وقطان وسلاسل وفواصل، ثم أسراب الفلاحين، وقروية هنا، وقروية هناك، وخربة معلقة على القمة، تحتار لماذا بنوها بذاك العلو، أهو خوف الناس من شر الغزو أم طمعا في الاقتراب من السموات!

قال السائق وهو ينفخ:

– أتعرف شيئا يا أستاذي؟ لدينا درويش في الخربة يحكي مع الجن، يعني مخاوي، يلبس ثيابا مهترئة ولا يقص لحيته إلا مرة كل عامين أو ثلاثة، وينام في الجامع وبين القبور، وتصادفه في الطريق فلا يراك ولا يسمعك، ويأكل صدقات الأجاويد. يمد يده وهو ماش، فيأخذ فاكهة عن البسطات وأرغفة الخبز، ولا أحد ينهره أو يمنعه، أتعرف لماذا؟ لأنه مبروك.

– يعني مختل.

– أستغفر الله يا أستاذي، بل هو مبروك. حاذر يا سيد، ويا أستاذ، هذه أمور جدية، شغل أرواح، وإذا سمعوك زعلوا جدا.

– حقا؟

– حقا.

وابتسمت، وقلت: هذا إذن خيط المطران!! أكمل عزيز بحرارة:

– أتعرف ما قال يوم الزلزال؟ ذاك الزلزال ألا تذكر؟ يوم انشقت أرض البلد، وانهارت منازل ودكاكين، وصار الناس مثل الفراش وخلايا النمل كل يتدافع بأكتافه ويهرب لينجو

من غضب الله. لكن الدرويش حذرهم، هل تصدق يا أستاذي؟ صدِّق بالله هو حذرهم قبل أيام من الزلزال. أصابته النوبة كما قالوا، وأخذ يزحف مثل الأطفال، ويضع أذنيه على الإسفلت ويصرخ بالناس: "إلى الجبال يا خلق الله، إلى الجبال، إلى الجبال." هل تسمعني؟

- طبعا أسمع.
- ظننتك غفوت.
- لا لم أغف، أسمعك جدا وأتأمل. ثم ماذا حدث؟ لجأوا للجبال؟
- يا ريت لجأوا! ضحكوا وحزنوا، وقالوا المسكين ركبه الجن.
- طيب وبعدين؟
- ولا قبلين يا أستاذي. قامت القيامة، وانشقت الأرض وبلعتهم هم والبسطات والدكاكين.
- طيب وبعدين؟
- غرقت البلد بغبار كثيف، وصار الناس تحت الأنقاض.
- وذاك الدرويش؟

- صعد إلى القبة، وظل يصيح: "إلى الجبال يا خلق الله، إلى الجبال، إلى الجبال." والكل هربوا، وهو هناك فوق القبة، والأرض بلعت كل شيء إلا القبة، وظل الدرويش على حاله لا يتزحزح وكذا القبة، هل تصدق؟

هززت رأسي ودمدمت بغيظ، فالتفت إلي:

- ألا تصدق؟ رجل مبروك يقرأ الغيب، ويرى المخفي ومصير الناس، مثل الراهب، ألا تصدق؟

صككت أسناني ودمدمت: هذا إذن هو طرف الخيط!

- هيا أسرع، أين الراهب؟ هيا أسرع.

- حاضر على راسي يا أستاذ.
وبدا مسرورا من نفسه، لأنه سيرشدني لطريق الخير.

13

وأخيرا وصلنا إلى الخربة واخترقنا البلد، أو ما يقال إنه بلد، وهو في الواقع مجرد شارع كان مرصوفا بالإسفلت ثم تعثر وامتلأ حفرا وأخاديد، واختلط الرمل بإسفلته. لكن الباص يمشي ويطج، فرفعت زجاج النوافذ اتقاء للرمل وغبار الطريق، وعيون تحدق وتأكلني. فأنا غريب، وهم هنا في أقصى الأرض على قمة جبل يصل السماء ولا يصل حدود البلدية. لكن بالطبع هناك أنتين التلفزيون وخط وحيد للتلفون، يصل المختار بالشرطة وضواحي القدس. التلفون يصلهم بالشرطة، لكن البلدية ما وصلت، فلا كهرباء ولا مجاري، ولا ماء جار بالأنابيب. وذاك الأنتين الوحيد للتلفزيون في المضافة، يعمل بفضل مشاوير عزيز والبطارية. بطارية تروح وبطارية تجيء بواسطة الباص والجمعية، والجمعية، فرع من أصل له أفرع تنتشر بعيدا بين القرى وضواحي القدس. والراهب ميشيل يأتي ويروح بواسطة الباص، ويتنقل بين الجمعيات والعيادات. فماذا يفعل؟ يقيم الأموات؟ يشفي العميان؟ أم يمد الخربة بالكهرباء والمجاري ومياه القدس؟

ووقف الباص أمام عيادة الجمعية، وهي عبارة عن قسم من دار قديمة تعود بالأصل لعائلة هجرها النصف. النصف الذكوري هجر الخربة للمدينة أو للعمل في المستوطنات وإسرائيل، وبقيت في الدار أم محمد

وكنائنها، وجيش عرمرم من الأطفال.

وأطلّت أم محمد من باب الدار الملاصق للعيادة، ونادت عزيز: "جبت الدوا؟" صاح بهمة: "جبت الدوا." "جبت المحلب؟" "جبت المحلب" "جبت الدخان؟" "جبت الدخان." "طيب تعال اشرب الشاي أنت وضيفك"
التفت عزيز وغمز بعينه، وهمس بأهمية واستحسان:
- خلص الرادار اشتغل فورا، فورا لقطوك، والساعة تشوف خير الخربة وأم محمد. فطير وحلبة وتين وجبنة وخبز الطابون، الله جابك!

وطبل على بطنه، وابتسم لي ابتسامة تشجيع، وكأني المسؤول عن الدعوة وفضول الحماة وكنائنها وجيش الأطفال. ورأيت طفلا يخترق الباص مثل العفريت، ويختبئ بين الصناديق، والآخرون يقفون خلف زجاج النوافذ، ويشيرون إليه بأيديهم: "يا الله يا توفيق، يالله، يالله." ، فصاح عزيز: " وَلَه يا لعين، انزل، انزل." فصاحت جدته من خلف الباب: "وَلِه يا سكينة شوفي هالولاد. وَلَه يا توفيق! وَلِه يا سكينة."

وجاءت سكينة تكرج كرجا ببطنها المنفوخ وردفيها وشبشب بلاستك من تحت الثوب، وأخذت تصفق هذا، وتلطش تلك، وتقرص وتشد وتلوي الأذرع، وهم يتطايرون مثل سرب دجاج هجمت عليه قطة شرسة، وهي تصرخ: "وَلَه يا توفيق، والله لأشرب من دمك."

والتفتت إلي، وقالت بسرور وكأنها ليست من تصرخ وتسب وتلطش

وتتوعد: " أهله وسهله، الشاي عالنار وخبز الطابون. تفضل فوت، البيت بيتك."

ابتسمت لها، وحاولت أن أبدو لطيفا، لكن ضيقي من الأولاد والضجة، ثم تلصص أم محمد ذكرني بالقرية أيام زمان وما حل بمريم وقصتنا. أما كانوا السبب بفضيحتنا؟ أما كانوا السبب بشحن العجوز ضد ابنتها؟ أما كانوا السبب بمجيء الأخوة من الغربة لغسل العار وملاحقتي؟ ولولا ما جاءت به الحرب لكنت الآن في علم الغيب، أو ربما سجيناً هنا في هذا القبو، في هذا الكهف مع أهل الكهف. كم حاولنا، كم أحاول، لكن عبثا! شعب مدفون تحت الأرض قبل التاريخ. ويجيء الآن هذا الراهب؛ ليشفي المرضى ويحيي الأموات!

واندفعت إلى العيادة لأفحصها، ولم أجد إلا الآذِن، وغرفة فحص يستعملها طبيب الخربة، فيها سرير متقشف وستارة بيضاء وخزانة دواء. والغرفة الأخرى للاستقبال، فأين إذن يشفي المرضى؟ أين إذن يقيم الأموات؟ وبأية واسطة يخدعهم؟ فلا تمديدات كهربية ولا ميكروفونات ولا سماعات، ولا البلورة السحرية!

انتبه الآذِن وسألني عما أبحث، فادعيت البحث عن الحمّام، وهناك غسلت وجهي وأطرافي حتى أصحو وانتبه للراهب وحركاته. لكن عزيز جاء يثأثيء، وعلى وجهه ضحكة شرهة.
– خبز الطابون وتين وجبنة والقعدة هناك تحت التينة تسوى الدنيا.

ووجدتني منزجا بين القوم آكل وأشرب وأتجشأ وأسمع حواديت أم محمد وحكايا الجن. وسمعت حكايات لن أنساها جعلتني أيأس من الوضع، فماذا نفعل بهؤلاء الناس؟ ماذا نفعل لنغيرهم؟ شعب ما زال سجين الكهف قبل التاريخ! فلا شيء لديهم إلا القصص وعقل يقتات على الأوهام والخرافة! ماذا نفعل!

لكزني عزيز:
– تفضل تينة يا أستاذ، من إيد الحجة المبروكة. تفضل دوق.

والتقط التينة من يدها، وفلقها وأعطاني النصف. حاولت تقشير ذاك النصف، فانزلق من يدي وسقط على الأرض. وكأن الحادث نكتة عجيبة، إذ انطلقت النسوة يتقرقرن ويتضاحكن، فانفتحت عيون جيش الأطفال، وهم يراقبون ما حدث معي وضحك النسوة، فبدأوا يتهامسون بصوت خفيض، ثم انطلقوا بأهزوجة عظيمة تناسب الجو ومقامي: هز التينة يا تيان! هز التينة يا تيان!

ازداد ضحك الأمهات على الأغنية الظريفة حتى صاحت أم محمد:
- بس انت وهي، عيب احتشمن، وهاتوا هالشاي. وانتوا - يا قرود يا الله من هون، يا الله تخيّب وَلَه يا توفيق، وانتَ وانتِ، خلينا نسولف ونتونس.

والتفتت إلي لتستفسر عما أشكو وما جاء بي باص الجمعية إلى الخربة. ألديّ وجع لا سمح الله؟ ألدي فالج أو سرطان؟ ألديّ ولد نزيل

الحبس عند اليهود وتختخ في السجن؟
قلت مواربا:
– شيء مشابه من هذا النوع.
ضربت كفيها بتفاعل، وهي تحوقل:
– لا حول الله، والله عرفت. من ساعة ما شفتك قلت المسكين لازم مضرور وعنده ولد مرمي في السجن. محكوم كثير؟ كم سنة محكوم؟

ولم تنتظر حتى أجيبها، إذ اندفعت لتؤكد لي أن مجيئي لن يضيع سدى، لأن الراهب رجل مكشوف عنه الحجاب، ويعرف الغيب، ويشفي الأمراض، ويعمل حجبا تفك السحر وتفك الأسر. وأخذت تحكي قصة غريبة لا تمت للراهب بأية صلة، لكنها تصب في دائرته، أي علم الغيب وقوى الأرواح:

– اسمع هالقصة وصدقها وآمن بالله. كان لي جدة، جدة أمي، وكانت مبروكة ومخاوية. وكان لسيدي أبو أبوي ولد محبوس عند الأتراك في اسطنبول أيام الحكم العثماني. وكان شغله هناك بمنصب عالي وبعدين حبسوه. وقعد في السجن يمكن سنتين، وبعدين قالوا يمكن يشنقوه. وقعد سيدي يبكي وينوح زي النسوان، وصار زي الخيط، لا ياكل ولا يشرب ولا يشوف حد. راحت ستي عند الحجة، وقالت لها: دخيلك يا حجة، اعملي معروف، اعملي حاجة، ارحمي هالشيخ وارحمي ابني. راحت الحجة لقبر الولي، ونامت عنده أربعين ليلة. وفي مزار الولي كان فيه قبرين: قبر الولي وقبر ابنه. شمرت الحجة عن ثوبها وركبت عالولي وصارت تصيح.

قاطعتها مندهشا، وبقدر كبير من السخرية:
- ركبت عالولي؟
صاح عزيز ينبهني:
- قصدها قبره، أوعى تغلط بشغل الأرواح، أوعى تمزح، بزعلوا منك.
نهرته أم محمد دفاعا عني، لأني نزيل ضيافتها:
- وَلْ يا بن الناس، خليه يسأل. معقول يمزح!
- طيب وبعدين؟
- ركبت عالقبر وصارت تصيح: بجاه جدودي يا ولي الله رجّع لي حسن.

وانتبهت للسكون المفاجيء تحت التينة، وخلف التينة، وخلف العيادة حيث الأولاد. كان الجميع ينصتون إلى الحكاية بعيون مفتوحة ومبهورة، وبعض الأطفال ينظرون إلينا من خلف الجذوع، وهم يرقبون علامات الذهول على وجوه النساء، ووجهي عزيز والآذن، فتنتقل الرهبة وينتقل الخوف من الكبار إلى الصغار، ويدخل فيهم في عمق العمق، ولا يخرج مهما كبروا ومهما غابوا عن هذا الجو. حتى أنا، رغم شكوكي وعقلي المرتاب، أحسست بالرهبة تغمرني وتثير رواسب كامنة كانت هناك في عمق الوعي وعقلي الباطن، فأنا ما زلت رغما عني، ابن البلد وحارات القدس.
وحملقت فينا تسألنا:
- تعرفوا شو صار؟
ولم نسألها، فقد كان السكون يطبق علينا ويكتم أنفاسنا ولا نسمع إلا

خياشيم عزيز. فأكملت، وما زلنا نتنفس بحذر مكتوم:
– ونامت ليلتها بين القبرين. وبنص الليل سمعت قرقعة من قلب القبر وحكي وكلام. وظلت نايمة. واحد منهم قال للثاني: مالها نايمة؟ ليش ما ترجع؟ وثاني ليلة سمعت كلام أقوى وأعلى: بعدها نايمة؟ ليش ما ترجع؟ وثالث ليلة سمعت دوي مثل الزلزال، واهتز القبر، وطلع النور وضوى العتمة، وناداها الصوت: قومي يا وَلِيّة يا مستورة، روحي لبيتك. ظلت نايمة ما تتحرك. وبقيت على هالحال أربعين ليلة، وفي آخر ليلة ناداها، وقال: يا حجة، روحي لبيتك رجعنا حسن. ظلت نايمة. قال الثاني: شوف شو عنيدة! نادى لها حسن. وانزاحت العتمة وشافت حسن بطوله وعرضه، وقال: يا حجة، قولي لأبوي راجع بكرة. رجعت للبيت، وقالت حسن انفك أسره، وراجع لكم اليوم مع آذان الظهر. وقعدوا يستنوا آذان الظهر. ولما قال االمؤذّن الله اكبر، دخل حسن بلحمه ودمه. ها شو تقولوا؟
ولم نقل شيئا، فقد كان الصمت يخيم على الجو، ولا نسمع إلا أنفاس عزيز. وتحرك طفل، فقالوا له: "هس" وظلوا جمودا بلا حركة، وعيونهم تحملق ولا ترى إلا خيال قبر الولي، وحجة تشمر عن ساقيها وتركب القبر، وتستنجد: "بجاه جدودي يا ولِّي الله، رجّع لي حسن."
ولمست أم محمد يدي، وقالت بعزاء:
– وابنك راجع لك بإذن الله، بس أنت شوف هذا الراهب وأطنب عليه يتواسط لك.

*****

كانت الغرفة تعج بالناس من كل النواحي في الخربة، وبعضهم جاؤوا من قرى أخرى لأنهم سمعوا عن الراهب وواسطته مع الأرواح. كان هناك مرضى بالسكر والسرطان وقرحة وسعال وأمراض لا شفاء منها، وهناك نساء لا يحبلن، ونساء تزوج أزواجهن وهجروهن، ونساء تعنسن بلا أزواج. وكان الراهب قد بدأ عمله خلف الباب، وصمت الحضور المنتظرين يشي بالخوف والتسليم بوجود أرواح في الأجواء. لا أحد يعرف بالتحديد كيف يمشون، وأين يطيرون، ولكن السائد بين الناس أن الأرواح في كل مكان فيه الإنسان، لكنها تصحو وتعبأ بنا حين يتصل بها مبروك وينادي لتمد العون.

همست واحدة للأخرى:

– ها وشو قال لك؟

قالت الأخرى باستسلام:

– قال السرطان ما إله دوا غير الإيمان، إذا واحد آمن وحط بفكره إنه يشفى، بشفى على طول بإذن الله.

– وشفي أبوك؟

ضربت الأخرى ركبتها ضربة خفيفة، وقالت بأسى:

– منين يا حسرة! بس المظبوط حاله تغير.

– يعني أحسن؟

– أحسن بكثير.

دخلت على الخط بدون استئذان رغما عني:

– والتكاليف؟

التفتتا إلي بدهشة واستهجان، فقلت معتذرا:

- أنا آسف يا جماعة الخير، ما تؤاخذوني، بس المضطر أسير الحاجة.

حملقتا في شكلي ولباسي، لأني لا أبدو متناسقا مع ذاك الجو، ولا أبدو أسيرا للحاجة. فقلت بسرعة:

- ابني محبوس عند اليهود.

تبدلت النظرات بسرعة عجيبة، وهتفت أحداهما بمودة:

- الله يعينك، إنشا الله يرجع لك سالم.

وقالت الأخرى بتعاطف:

- الله يعينك، بس انت آمن وتوكل واطلب من الراهب يكتب لك.

- والتكاليف؟

لوت الأولى يدها بحيرة:

- أنا عارفه يا ناس! كل واحد بدفع على قده، وقد ما بقدر.

وحدجتني بفضول مثل فضولي:

- وانت ما شا الله شو رح تدفع؟

فكرت لحظة، وقلت بغموض طلبا للمزيد من المعلومات:

- قد ما يطلب.

قالت بثقة:

- هو ما بطلب، انت بتتبرع على كيفك. تدفع شيكل تدفع ميّه، قد ما تقدر، وبتخرج من عنده بإذن الله قلبك مرتاح وبالك رايق. وناس بقولوا خرجوا من عنده وهم طايرين.

اصطنعت الإعجاب والتصديق:

- خرجوا طايرين؟

- يعني ماشيين زي الطايرين، هيك بقولوا.

obeikandl.com

وأحسست بالغضب يتآكلني. إذن هذا هو الجو! هو يترعرع على جهل الناس، يعمل على فقر الفلاحين، يستنزف بؤس المحتاجين، وهؤلاء ذوو حاجات، فهذا مريض وذاك محبوس وتلك عاقر، وهو يحقنهم بالأفيون. وإذا سئل سيقول العمل في سبيل الله. وهم جاهزون لمن يستغل. هم جاهزون كما جهزنا، منذ الصغر، مع شرب الحليب، ثم كبرنا وكبر الوجع، وهزائمنا. أهذا إذن هو طرف الخيط؟!

14

حين دخلت عليه كانت الدنيا عصرا، وكان يقف بجوار المكتب وأمامه كدسة أوراق ودفاتر لا توحي بالرهبة وأعمال السحر، فبأي شيء يخدرهم؟ لم يكن أبا ولا قسيسا ولا راهبا، بل كان أقرب إلى البوذي، بردائه البني الطويل، وأردنته والحبل المربوط في وسطه، والصندل المفتوح في قدميه. ولو كان له رأس حليق في وسطه لقلت من رهبان الفرنسيسكان، لكن شعره الكثيف الغزير والطويل نسبيا ينفي ويؤكد غير ذلك. قدرت عمره بالثلاثينات لا أكثر.

اقترب مني، وقال بألفة:

– أنا اسمي ميشيل، أنا الراهب، تفضل اجلس، كيف أساعدك؟

ولم أجلس، بل ظللت واقفا لا أعرف كيف ومن أين ابدأ. أأقول له أنت دجال؟ أأقول له أفيون الشعوب؟ أأقول أرواح وأساطير. أأقول دليل هزيمتنا. تحيي الأموات؟ تشفي العميان؟ تعيد الغائب؟ لكن

obeikandi.com

عينيه وملامحه وصوته الهادئ جعلاني أكش. كنت منفوخا مشدودا مثل البالون ثم نفست. كان الغضب يملأ صدري بالشك والحزن والمرارة لأن الأمر أكبر مني. لم استطع استيعاب كيف وصلنا لهذا الدرك. سنين وسنين ونحن نعمل من أجل الشعب والقضية ومن أجل الثورة والتغيير ونعود الآن لنجد هذا! كم من أرواح خسرنا، وكم من معارك قاتلنا في سبيل البعث والقضية، ويجيء الآن هذا الدجال؛ ليعيد الناس إلى الماضي وظلام الكهف! أنا لن أسكت. سأقيم القيامة على رأسه وعلى الجمعية ومن فيها. لكن عينيه وأعصابه، أية أعصاب!

قال بهدوء:

– تبدو مشدودا مضطربا، اجلس، اجلس.

وأمسك بذراعي وأجلسني وسط الغرفة على كرسي قديم من الخيزران، ونظر مباشرة في عيني لثوان، ثم همس بصوت ساحر:

– لا بأس، لا بأس. سنكتشف الآن مم تشكو. اجلس واسترخ ولا تقلق. ستكون بخير. ستكون بخير.

سألت بخوف:

– يعني تنويم؟

قال بهدوء ودون محاولة للإنكار:

– إذا احتجنا، لكن الآن بالطاقة.

شنجني الخوف، فصحت بحدة:

– أية طاقة؟ !

ابتعد عني مسافة شبرين وتأملني، ثم سأل:

– أليست لديك أية فكرة؟

أجبت بسخرية فظة كي أخفي الخوف وانفعالي:

– إن كنت تقصد شغل المسيح وإحياء الموتى وما شابه، فطبعا لدي.
لم يتحرك بل أجاب بثقة وبرود:
– أنا قلت الطاقة، ولم أقل شيئا آخر.
ونظر إلي يتأملني ثم ابتسم:
– آه، فهمت. كنت تسمع أقوال الناس عن فك السحر وتحضير الأرواح وما شابه!
فتحت إذني، وسألت بغيظ:
– أتنكر هذا؟
ابتعد واتجه إلى مكتبه وأمسك بكتاب ولوح به، ولفظ كلمات انكليزية:
– هذا Meditation و Medication هذا طاقة، طاقة الإنسان وقدراته والقوى الخفية في الإنسان.
قلت بسخرية فظة:
– تقصد المسيح وقدراته؟!
قال بهدوء وثقة:
– هناك دلائل تشير إلى أن المسيح كان يتعامل بالطاقة. أحيى الأموات، وشفى العميان، وضاعف الخبز وما شابه. نحن لا نعرف بالتحديد، لكن الدلائل كلها تشير إلى الشحنات والطاقة. كان المسيح يسبق عصره، بل كان يسبق هذا العصر، كان يعرف سر الطاقة، وسر الإنسان وقدراته وما هو مخزون في الأعماق. أتعرف أن الإنسان لا يستعمل إلا ٢٠٪ من قدراته، وباقي الطاقات ما زال مخزونا لم يستغل ولم يستكشف. أي أن الإنسان قنبلة حية موقوتة، لكن الفتيل لم ينزع بعد. من ينزع الفتيل ويخرج العملاق من القمقم؟ أصلا قل لي، من حبس المارد في القمقم؟
قلت بدهشة:

obeikandl.com

- أنا لا اعرف. هل تعرف أنت؟
- طبعا أعرف.

سألت بحذر وأنا أراقبه:

- وهل لي أن أعرف من حبسه؟

قال بثقة:

- الدين والجنس والحضارة.

قلت بذهول:

- أنا لا أفهم!

هز رأسه:

- لن تفهم الآن، لا ليس الآن. بعد هذا العمر وكل البرمجة والتدجين، لن تستوعب. ليس سهلا. كم عمرك الآن؟ ستون سنة؟ سبعون سنة؟ تصور الآن، بعد هذا العمر والبرمجات، ليس سهلا. هل أنت معي؟ هل تتبعني؟

هززت رأسي، فأكمل بثقة:

- ما أقصده بالذات، أنت مبرمج، ولن تخرج بسهولة من التدجين والعادات والمعتقدات والعلم والتجربة وقراءاتك، ليس سهلا. غير طبيعي أن تخرج من كل ملفاتك وتصبح فجأة كملف جديد، غير معقول. أنت الآن مبرمج جاهز، مبرمج جدا، مبرمج من الدرجة الأولى ولن يجدي معك إلا التنويم.

صحت منتصرا، وقد أفقت من ذهولي:

- آه، مفهوم! كنت أعرف أنك تتعاطى بالمغناطيس. بواسطة التنويم أنت تسيطر على العقول وتخرجها من واقعها. أليس كذلك؟ تنوم الناس وتخرجهم من عالمهم ثم تملي عليهم ما يرضيك.

obeikandl.com

- بل يرضيهم. كما أني – للعلم – لا أخرجهم، بل أدخلهم حيث الطاقة، وأسحب الفتيل وأطلقهم. أنا لا أفعل شيئا سوى التكثيف. ألملم الشحنات المنفلشة وأجمعها في بوتقة، لتصبح قنبلة ضوئية، وحين تنفجر وينطلق الضوء يضيء الكون وينتشر النور ونتحرر من كل القيود.

- أية قيود؟ ماذا تقصد؟

- قيود الجسم، وقيود النفس، وقيود الدين، والقومية، وقيود اليهود. حتى اليهود لن يكونوا يهودا ولا محتلين ولا مختارين ولا سخافات، سنكون معا من غير قيود لا فرق لدين أو قومية.

وقفت بسرعة كالملسوع، لأني شعرت أنه مجنون، أو أني أنا أصبت بلوثة، وصحت بذعر:

- ما هذا الكلام؟ أنا لا أفهم! ألست براهب؟ قل لي من أنت وما دينك؟

قال بهدوء وتمهل:

- أيهم كثيرا من أكون وما ديني؟ على كل حال، أنا بني آدم، فقط لا غير.

- وهذا الرداء؟!

- شكلي فقط.

- ودير الرهبان؟

- تربة خصبة تنبت ما شاءت لها الأقدار. أنا لست منهم. أنا لست لهم.

- لمن أنت إذن؟

- أنا للإنسان.

obeikandi.com

- وماذا عن الله؟
- هو للإنسان.
- وكيف أجده وأصل إليه؟
- عبر الطاقة، ركز في العمق تجده هناك. تريد مساعدتي؟ أنا مستعد. دعنا نجرب عملية بسيطة ونصل العمق.

نهضت عن الكرسي، وابتعدت عنه:

- ماذا تقصد؟ تخرجني عن طوري وأعصابي؟
- بل أفرغ ما حولك من شحنات حتى أنفذ إلى أعماقك. دعني أجرب، قد تتجاوب. سأعرف أمراضك وآلامك. سأعرف أسرارك وأمانيك. ستصل معي للحقيقة، فترضى عن نفسك وعن الناس.

صحت بحنق:

- لكني راض عن نفسي.

لوى كفيه باستسلام:

- طيب، على راحتك، على كيفك.

وانتبه لكلماته المستسلمة الحرِنة، فسحبها:

آسف، آسف، أنا ما قصدت سوى راحتك ورضا نفسك. حين ترغب ستجدني هنا بانتظارك، في أي وقت، في أي ظرف، وبكل الظروف، أنا في الخدمة.

وصمتَ وصمتُ، ولم أكمل. لم أقل شكرا ولا عفوا ولا دجالا ولا مشعوذا، كل التهم التي راكمتها منذ الصباح طارت مني، تلاشت، باخت، وأضحت لا شيئاً، مجرد لا شيء، بل صرت أدور في دوامة. صرت ملخوما مهموما لا أعرف الحق من الباطل، وما هو معقول

أو غير معقول. فبعد اليقين صرت أسأل: أهذا دجال؟ أهذا مشعوذ؟ هو لم يكذب، هو لم ينكر، ولم يدعِ قدرات خارقة، ولم يسند لنفسه أي دور سوى التكثيف. هو لم يذكر قصص الأرواح، ولا الأولياء ولا الصالحين، ولا حتى الله. قال الطاقة، قال الإنسان، قال الإيمان، قال القدرات المخزونة في عمق الفرد، فهل هذا دجل؟ هل هذا احتيال؟ أم هذا ما لوح به المطران؟ ليتني أعرف!

15

كنت على وشك مصارحة الراهب بأفكاري، رغم أني كنت ما زلت ملخوما أصارع عقلي وإحساسي ولا أعرف الحق من الباطل، وما هو معقول أو غير معقول. ثم حدث ما قطع علي تفكيري وحوَّل طريقي عن خطه، إذ سمعنا صراخ جوقة أولاد وارتطامة، وبعد لحظات سمعنا لغطا ونساء يصرخن ويولون وانصفاق باب أم محمد، وحركة سريعة في الغرفة الأخرى، حيث كان عزيز بانتظاري. حملق الراهب لبضع ثوان ثم انطلق وأنا في أثره. وفي الشارع الضيق على حافة الواد كان الحادث. باص الجمعية متدل على الحافة، وفي الأسفل واد سحيق يصل الجرف لنهر جاف، ولا يوقف الباص عن السقوط إلا صخرة وفروع بلوطة قديمة بجذع ضخم. وفي الباص الصغير خلف المقود يجلس توفيق ابن سكينة. وكانت سكينة تصيح برعب كالمجنونة وتلطم خديها وتولول، وحماتها أم محمد تضرب كفيها وتحوقل، ثم تلتفت إلى كنتها وتصيح بها: "يا قشلي عليك ابنك راح!" فيزداد جنون المسكينة، وتلتفت حواليها

obeikandl.com

وتستنجد بمن وقفوا يتفرجون على الحادث، ولا يفعلون شيئا سوى الحوقلة وهز الرؤوس. وكلما ازداد عدد المشاهدين واهتزاز الرؤوس ازداد صراخ أم محمد، وبالتالي صراخ كنتها. وفي تلك الأثناء انطلقت تعليقات غريبة من الموجودين تشير إلى ردود فعل مختلفة. ففي البدء سمعت الحوار العجيب بين الحماة وكنتها. الأولى تصيح: "ليش تخليه يسوق الباص؟" والثانية تصيح برعب وجزع: " والله العظيم ما خليته، هوه اللي هرب!" وتشد بشعر ولد صغير في سن ابنها وتهز رأسه لتسحب اعترافه بالقوة: "وَلَه يا سعيد، أنا خليته؟ أنا كنت معه؟ أنا خليته؟" والولد يتلوى ويتملص ويركل بقدميه ويلكمها بلكمات صغيرة توجعها لكنها تتمسك به وتعيد القول: " أنا خليته؟"

وهمست واحدة للأخرى، وهي تضع يدها حول فمها: "الليلة ليلتها المسكينة، والله العظيم ليطلقها." أصبت بالذعر، فصحت بهما وكأنهما المسؤولتان عما سيؤول إليه حال سكينة: "ليش يطلقها إيش عملت!" حدجتاني بعيون عدائية، والتفتتا عني بازدراء، وواحدة تقول للأخرى: "هذا اللي قال ابنه محبوس." فردت الأخرى بضراوة: "يعني وإن كان ابنه محبوس لازم يتدخل بين الناس! هو شو دخله؟" "كيف شو دخلني؟" صرخت بهما، لكن صراخي ضاع بين صراخ الناس والفوضى وعيون مبهورة تلاحق ما يدور فوق البلوطة بين الأغصان. التفت ورأيت الراهب معلقا بين الأغصان محاولا الوصول إلى الموقع. كان قد فتح رداءه وربطه حول وسطه، فظهرت ساقاه عاريتين بيضاوين بشعر خفيف، وصندله الكاوتشوكي يساعده على التسلق دون انزلاق. قلبي، قلبي، سقط قلبي، وبدأت دقاته تتلاطم والعرق يسيل عن جبيني ويطفح وينز من خلاياي، فارتميت على أقرب صخرة، وتابعت المشهد

من خلال عدم انتظام دقات القلب وشراييني. هل كان الخوف؟ هل كان الحزن؟ أم كان الغضب من ذاك الجو؟

ورأيته يجعل من حبله أنشوطة يشد بها أكرة الباب ثم توفيق. ورأيت الولد بين يديه كعصفور صغير منزوع الريش. وحين قذفه نحو الجمهور من تلك المسافة فوق الجرف، فقدت الوعي.

*****

حين أفقت، كان بجواري على الأرض في المضافة، حيث الأنتين والتلفزيون وبسط ممدودة وحشيات وقهوة عربية وتيرموس شاي. فتحت عيني، فقال همسا: "دوخة بسيطة، خليك مرتاح." وبقيت مرتاحا أتأمله وأتأمل جدران العلية، وصورة مكبرة للأقصى وصورة مكبرة للمختار. وإلى جانب الصورة باب مفتوح على سطح الدار، وظلال قاتمة لشجرة لزاب. قمت وجلست بجواره ومددت نظري عبر الباب. كانت سماء صافية، والجو لطيف، ونسيم يخر في العلية، فيحيل الغرفة إلى مركب، ونحن الركاب. ومن بعيد تهب رائحة الطابون، فتفتح أبواب الشهية وأقبية القلب. الآن أحس بجو الوطن، وروح الوطن، وروح الناس. غمام اللزاب، وعبير السرو، وسماء زرقاء ماسية، وربيع يفجر ما فينا، وأزهار اللوز. هذا هو الوطن كما اشتقنا له، ثم رجعنا ورأينا ما كان غير ما كان، وهذا الرجل، هذا الساحر، ماذا لديه ليعطينا؟

التفت إليه، وقلت بضعف:

- قل لي من أنت؟

ابتسم لي:

obeikandi.com

- أيهمك حقا أن تعرف؟

هززت رأسي باستسلام، فقد كنت بعد ضعيفا، لكن فضولي وإحساسي دفعاني إليه. فقال بغموض:

- أنا لا أعرف.

نظرت إليه وتأملته وهو جالس مثلي على الأرض، ورأسه مستند إلى الجدار، ووجهه متجه نحو الباب، وظلال السرو، وشجر اللزاب، وسماء زرقاء صافية في الخلفية. يشبه أحدا، وجهه مألوف. يشبه خالي. بل أتخيل.

قال بألفة:

- أنا بالأصل كنت يتيما، ونشأت في دير للرهبان. بحثت طويلا عن أصلي ولم أجد إلا نفسي، فآمنت بها. جربت الفن، جربت الدين، جربت الفلسفة واللاهوت، ووجدت نفسي في الريكي. رأيت الناس من حولي في بركة دم. عرب، يهود، أرمن، شركس، طوائف وشعوب مختلفة، وقصص متشابهة لكل الشعوب. مجازر ومذابح في كل مكان باسم الدين والقومية، انظر ما حدث للأرمن، انظر ما حدث للشركس، ثم العرب، ثم اليهود. والغريب في الأمر أن التاريخ يقلب نفسه، فيوم تكون أنت الجاني، وغدا تكون الضحية. شيء مذهل، غير معقول. وأنا ابحث في هذا الكون أقرأ وأتأمل وأتمعن وأحس ببرود يقتلني. أنا لا أحب أحدا في الكون، ولا أحد في الكون يسأل عني. حين تدخل في هذا الثوب تنسى نفسك، وينساك الناس. أنت لا شيء، وكل شيء. فسّر هذا. طبعا وأنا صغير كنت أفكر أني لا شيء، لأني بلا أهل ولا هوية. وحين كبرت بت العالم، أو بات العالم في ذاتي، لأن ذاتي هي العالم، هل تفهمني؟

بقيت صامتا أسمع بهدوء، وأتأمل ظل اللزاب والخلفية وسماء زرقاء لامعة ونسيم الصيف. لو كان لي مثل قلبه. لو كان العالم في ذاتي. لو أني أعود إلى ذاتي. لو أني أومن بالريكي.

سألت بحزن:

- أوجدت أحدا من اهلك؟

التفت إلي، وابتسم بيأس:

- وماذا يهم؟ في عمري هذا ماذا يهم؟ حين كنت صغيرا كان السؤال حول أهلي محور ذاتي وصميم الكون. كنت بحاجة للمسة حنونة، لصدر دافئ، لبسمة حقيقية، لوجه مألوف. وحين كبرت صار السؤال أكبر منهم، أكبر مني.

قلت بدهشة:

- لكنك بشر، ولديك أحاسيس وعواطف، هل تنكرها؟

لم ينظر إلي:

- لا أنكرها.
- وماذا تفعل؟

التفت إلي، وقال بغموض:

- لا أنكرها.
- وماذا عن الثوب؟
- دعك من الثوب.
- لكن الناس!
- دعك من الناس.

بدأت اقلق:

- دعني من الناس؟ ماذا تقصد؟ بالنسبة لهم أنت شبه إله، أنت

obeikandl.com

وسيطه، وهم يقدسون ما تفعل.

- الناس بحاجة إلى هذا. في كل عصر خلقوا آلهة وعبدوها.
- وأنت تستمتع بما أعطوك.

ضحك باستسلام، ولوى كفيه:

- ليس تماما. حاولت، حاولت، صدقني.
- ثم استسلمت؟
- وماذا أفعل؟ أقول وأعيد ولا يسمعون. ماذا أفعل؟
- هم يصدقون أنك قادر.
- هم يبحثون كما تبحث.
- ماذا تقصد؟
- أنت أيضا تبحث عن شيء.
- وهل تعرف عن ماذا أبحث؟
- طبعا أعرف.
- وما هو الشيء؟
- تبحث عن حب فقدته، وكأن الحب هو المرأة!
- وما هو إذن؟
- أنت ستعرف.
- ومتى أعرف؟

لوى كفيه وغرّب عينيه وقال ببرود:

- أنت تقرر.

أغاظني موقفه وآذاني. جعلني أدور في دوامة ثم تخلى عن دوراني. هو لم يقل إلا الألغاز. هو لا يعرف. هو يرمي فقط بضع إشارات ويعتمد علي

obeikandi.com

لأفسرها. وهذا ما يفعله الفتّاحون أيا كانوا، بالمغناطيس، بزيت المندل، بضرب الودع وفتح الفنجان، أيا كانوا. هم يعتمدون على التفسير، أما الثابت، أما المحدود والمحدد، ففي علم الغيب.

ورأيته يقترب من التيرموس ويصب الشاي. ملأ كوبين وناولني، ثم انتحى جانبا قرب باب السطح وسرح بعينيه. وجهه مألوف وقسماته حلوة رقيقة مثل عصفور. بشرة بيضاء حنطية وعينان تميلان إلى العسلي بظل أخضر، وفيهما لمحة حزينة. نفس النظرة، نفس اللمحة، يشبه خالي، خالي الفنان، بل أتخيل.

وعدت أجادله، بل أحقق معه:

– شاب مثلك بهذا العقل والإحساس والغرابة، هل تجد امرأة تقبل بك؟

التفت إلي وابتسم بصبر:

– ماذا تعني؟ بحثي أنا شيء آخر، المهم الآن أن قلبي نظيف كالوردة أو زهرة فل، ألديك شك في هذا؟

هززت رأسي، وقلت بصدق:

– لا شك لدي. بعد الحادث لا شك لدي.

– وقبل الحادث؟

– كنت خليطا.

– خليطا؟ لا بأس، هذا طبيعي.

– ثم ماذا؟

– وماذا تريد أن تعرف بعد؟

obeikandi.com

- كيف تعيش ومم تعيش وما عملك؟
- أرسم، وأدبج أيقونات، وأنحت تماثيل القديسين وأعالج الناس بالريكي.
- يعني فنان؟
- وروحاني.
- تكسب كثيرا من عملك؟
- أهذا مهم؟

قلت بسرعة:

- طبعا مهم.

التفت إلي وابتسم بصمت ولم يعلق. تذكرت نفسي في عمره. تذكرت حواراتي مع الوالد. تذكرت مريم والهوستل. تذكرت مريم وشبابي. تذكرت ما ضاع من عمري وحبي الضائع. لو لم أهجر. لو لم أترك. لو بقي لي ما أمسك به. لو بقي لي ما أومن به. لو بقي لي من أحبه. لو بقي لي حبك مريم!

16

بعد العشاء وأكل المنسف التمّ الرجال المهمون في الخربة وأخذوا يتشاورون عما سيفعلونه لإنقاذ الباص، فهو ما زال معلقا على حافة الواد بين البلوطة والصخرة. والمختار يقول إن تعطيل الباص سيعطل إرسال التلفزيون والبطارية. وتعطيل التلفزيون يعني تعطيل المضافة وسهرات الليل ونشرة الأخبار والمسلسل. والمسلسل مهم جدا، وربما أهم من النشرة، فماذا في النشرة إلا الغم؟ والغم قديم منذ

obeikandi.com

البدء، فهم يعرفونه عن ظهر قلب. حرب ودمار في السودان. حرب ودمار في أفغانستان. حرب ودمار في الصومال. وسفينة تغرق في اليونان. كله معروف ويسم البدن. لكن المسلسل يصف الناس كيف يعيشون في قصر منيف له حديقة فيها بركة، وفيها بنات مثل الملبن، وفيها رجال مثل النسوان.

سألني أحدهم باهتمام ما إذا كان صحيحا أن رجال الأجانب مثل النسوان، وأن لدينا في قلب القدس رجالاً أيضا مثل النسوان. فقلت النسوان خير وبركة.

- خير وبركة؟!

صاحوا جميعا ونسوا موضوع إنقاذ الباص، وانصب الحديث على النسوان. قال أحدهم بصوت جهوري متهدج كما لو كان من سماعة:

– والله النسوان أكبر لعنة. لا عندهم عقل، ولا عندهم فهم، ولا عندهم دين. الواحد منا إذا الله غضب عليه وبعث له بنت يدفنها ويخلص من همها.

قال آخر بقلب محروق:

– ما من وراهم غير الهمّ. خمس بنات يا جماعة الخير، خمس بنات. ليش أنا شو عملت؟ بصلي وبصوم وبعبد الله والسَّنة حجيت ودعيت كثير، طول ما أنا في الحج وأنا ادعي، ولما رجعت لاقوني بزفة وخبر الشؤم، وقالوا مبروك جابت لك بنت. خمس بنات يا جماعة الخير، قولوا شو أعمل؟

قال آخر بدون تردد:

- روح تجوز.

صاح الشاكي:

- كيف أتجوز؟ يا جماعة الخير كل اللي معي راحوا على الحج، كيف أتجوز؟!

لكزت ميشيل وهمست بغيظ:

- وماذا عن الباص؟ ذكّرهم.

لم يتحرك وظل يستمع باهتمام شديد كما لو كانوا يناقشون مسائل كونية أو ذرية.

همس أحدهم قريبا مني:

- هذا المسكين مرته جابت ٨ بنات قبل الولد! شوفوا له حل. اعملوا له عمل.

والتفت إلى ميشيل وهمس في أذنه. ورأيت ميشيل يبتسم بصبر ويهز برأسه ويتمتم بكلام غامض لم اسمعه. ماذا يقول؟ لماذا يبتسم ولا ينهره؟ أهو موافق؟ ماذا لو قال بالطاقة وشغل الطاقة وحبل الطاقة؟ هل سيلقحها بالطاقة!

وأصابني القلق والتخوف. كنت قد بدأت أحب الشاب وأحترمه، وأشعر أن لديه شيئا غريبا لا أفهمه، لكنه سامٍ وجليل وله أبعاد كونية. لكن الحبل بالطاقة! لا، لا يمكن.

همست في أذنه:

- ماذا يقول؟

التفت إلي وهز برأسه، وكأنه يزجر ولدا يقوم بعمل غير مؤدب،

obeikandl.com

فأحسست بغيظ وبغربة. لماذا يبعدني عما يدور؟ لماذا لا يشاركني أفكاره؟ ألم نتفاهم؟ ألم نتبادل بعض الأسرار؟ ألم نتبادل بعض الأفكار؟ ولدينا تكافؤ إلى حد ما، لكن هؤلاء ماذا لديهم؟

وعدت أتلفت وأسمعهم وهم يتحدثون عن مشاكلهم، أحيانا بحقد، أحيانا بعنف، أحيانا بسخف وسذاجة، وأحيانا بخوف. وأحسست بغربة لا توصف. أحسست أني في عالم لا أمت إليه بأية صلة، كما لو كنت في السنغال، كما لو كنت في البنغال، كما لو كنت في الأمازون. أمن المعقول أن الثورة جاءت منهم؟ من واقعهم! وكل الأفكار الأممية والكونية وحركات التحرر والتحرير والعدالة جاءت منهم؟ كيف جاءت وهم لا يعرفون كيف يحلون مشكلة صغيرة بحجم الباص. باص صغير على حافة واد كان المفروض أن يكون موضوع السهرة لإيجاد حل، لكن الباص غاب عن الجلسة كليا، واستبدلوه بقصص البنات وقصص النسوان، واختفى الباص وكأنه ليس المحور! وشعرت بغيظي يتكثف، وبالبخار يصعد من أنفي ونافوخي، فصحت بهم:

- يا جماعة الخير! الباص، الباص؟!

التفتوا إلي لبرهة قصيرة وعادوا إلى ما كانوا عليه يتباحثون ويتجادلون في مجموعات، ذاك يحكي عن سعر الزيت، وذاك عن الشيكل والدينار، والشاكي ما زال يشكو همّه وهمّ البنات، ورفيقه يحاول إقناع ميشيل بإيجاد حل عبر الطاقة وبحبل مضمون بولد لا بنت.

وأحسست بضيق في نفسي، فقمت عن الحشية لأخرج للسطح، فنادوا علي: "تشرب قهوة؟ تشرب يانسون؟" فأحسست

بخجل وتردد، هم يكرمون وأنا أبخل، لكنه كرم البخلاء. لسنا كرماء إلا بالبطن. نحن الأمية بلا رجعة!

هربت من الجو ومن عقلي، وخرجت إلى السطح لأتنفس، فسمعت صياحا لامرأة تصرخ في الليل: "منشان الله!" اقشعر بدني من ذاك الصوت، لأنه مصحوب بلطم وعويل وعواء بعيد لكلب ضال ينعق كالبوم. فاتجه عقلي إلى سكينة، وزوج سكينة، وابنها توفيق. عدت إلى الباب، ووقفت بالعتبة، وهتفت بخوف:

- يا جماعة الخير أنا سامع صوت صياح في الجو!

ضحك أحدهم، وقال بخفة:

- أكيد سكينة المفعوطة بتاكل قتلة. بس إنشا الله ما يطلقها.

صحت بانفعال:

- طلاق وقتلة؟! ليش القتلة!

التفتوا إلي بدهشة كبيرة، لأنهم ما توقعوا انفعالي بذاك الشكل، وما توقعوا أن يصدر عني كل ذاك الصوت، فقال المختار مهدئا:

- اقعد يا خال، اقعد وارتاح، هاتوا هالشاي وهاتوا القهوة. انت نهارك كان مش ولا بد.

اقتربت منه، وأنا أحاول تمالك أعصابي، وقلت بلطف:

- سكينة مظلومة يا مختار. سكينة كانت في المطبخ!

همس أحدهم:

- وإيش عرّفنا إن كانت سكينة في المطبخ ولا كانت عند الجيران؟

obeikandl.com

همس آخر:
- قاعدة تسولف عند الجيران، وخلت الولد يسوق الباص. هيك النسوان، هيك عادتهم. هم يخزقوا وإحنا نرقِّع.

قلت بعصبية وانفعال:
- سكينة مظلومة وأنا شاهد، وميشيل شاهد.

ونظرت إلى ميشيل عساه يقول ما يؤازرني به، لكنه ظل صامتا لا يتحرك، فعاد الشك إلى قلبي وحقدت عليه. وتراءت لي سكينة، وهي تستقبلنا ذاك الصباح، بثوبها العريض، ومؤخرتها الثقيلة، وشبشبها البلاستيك، وبطنها الممدود مسافة شبرين، فأحسست بإشفاقي يتضاعف وعرقي يتصبب عن وجهي، فهمس ميشيل:
- تعال اقعد، قلبك تعبان.

ولم أجلس، بل نظرت إليه بيأس وقرف، لأني توقعت أن أراه يهب واقفا ويترك الجمع، ليلحق بسكينة وينقذها، لكنه لم يتحرك، وظل يشير إلى الحشية، حيث كنت جالسا قبل قيامي، ويقول بلطف:
- تعال اقعد، قلبك تعبان.

لكني بقيت في العتبة اتكئ عليها وأتحامل وأقول بيأس:
- سكينة مظلومة، وأنا شاهد، سكينة كانت في المطبخ.

همس أحدهم بصوت خافت:
- هذا من القدس ومش داري! نسوان القدس زي الملبن، وإحنا مع سكينة ومحفوظة!

فضحكوا جميعا للنكتة، وأنا أحملق مبهوتا وأصيخ السمع لما يدور في

الظلمة، وصوت امرأة تصرخ في الليل: "منشان الله!"

لاحظني المختار، فهتف بإشفاق:

- وَلْ يا أستاذ، صحتك أهم، مالك واقف! تعال اقعد وما يكون لك فكر. سكينة مبسوطة بعيشتها. وبعدين يعني إحنا عارفين إن كانت سكينة أو غيرها؟ يا عمي هيك صوت النسوان، دايما طالع. يعني معقول كل ما سمعنا واحدة بتصيح نلتم عليها ونفضحها؟! حتى سكينة، إذا انت عملتها وتدخلت- لا سمح الله - بتدور عليك وتدعي عليك وتقولك روح، انت مالك؟ هذا جوزي وهذا بيتي، وانت شو دخلك؟

همست بيأس:

- لأ، مش معقول.

صاحوا بتقاطع وتشابك: "معقول" "معقول" "إلا معقول وستين معقول!"

التفت إلى ميشيل، وسألت بغيظ:

- معقول يا ميشيل؟!

هز برأسه وغرب عينيه ولم يجب. فلطمت الباب بقبضتي وخرجت إلى الليل، وأشباح السرو ونباح الكلب ونعيق البوم، وامرأة تصرخ في العتمة: "منشان الله!"

*****

سمعتهم يخرجون واحدا إثر الآخر. حكوا عن كل شيء وبالتفصيل إلا ما جاءوا من أجله، وهو كيفية سحب الباص. وأنا في الخارج أسمعهم

obeikandl.com

وأستند بكوعي إلى الحافة، وأتأمل دور القرويين، وأضواء الليل الشحيحة خلف اللزاب وأعمدة السرو.
لا ضوء هنا. لا ماء هنا. لا مال هنا، وحتى سواعد من يبنون لا تبني هنا، فكيف إذن نبني أمة؟! وأصابني إحباط شديد من وضعي أنا ووضع الأمة. اختلط الخاص بالوضع العام، وما عدت أعرف من الأسبق: الوضع الخاص أم الوضع العام. من الأهم؟ من الأعمق؟ أهي التربية أم البيئة؟ أهي النفسية أم المجتمع؟ نبدأ بالفرد أم بالمجموع؟ فيما مضى كنا نقول: تغيير العام يؤدي إلى الخاص، وعشنا ومتنا على هذا. كانت قناعة، بل إيمان. وماذا تمخض ذاك الفهم؟ لا قام العام ولا قام الخاص، وتمرمرنا. ثم قلنا التوعية والتثقيف. أي ما معناه: لا للسلاح والثورة، ونعم للوعي والتثقيف. وعشنا سنوات على هذا، فأين وصلنا؟ أو بالأحرى: من وصلنا؟ يا بلد النحس!

وأحسست بخطاه وبالصندل. فلم ألتفت، لأن قلبي كان مليئا باليأس والشك والتحدي.
لمس كتفي وهمس برقة:
- ما زلت تفكر بسكينة؟

أصخت السمع وما سمعت إلا سكونا وصرير الزيز، ثم النحيب المتقطع لعواء الكلب. قلت بأسى وعتاب مر:
- سكينة المسكينة بلا منقذ. وكنت تحكي لي عن الطاقة في داخلنا. هل تصل سكينة إلى المنقذ وإلى الطاقة من غير دليل؟ متى تفعل؟ بعد مئة سنة؟ بعد ألف سنة؟ أم بعد الموت؟ هذا تسويف! هذا تأجيل. هذا

إعدام. هذا هروب من الواقع وحياة الناس.
سأل بأسف:
- وماذا نفعل؟

حرت جوابا فلزمت الصمت. لم أقل الدين. لم أقل الشرع. لم أقل السلطة والقانون. لم أقل الثورة والتغيير، لأنا جربنا ولم نفلح، وها نحن الآن عود على بدء، في قلب الليل وفي الظلمة. وكلمات المختار الكئيبة تحفر رأسي: إذا انت عملتها وتدخلت، بتدور عليك، وتدعي عليك، وتقول لك روح انت شو دخلك.

سأل ثانية بصوت رقيق:
- ماذا نفعل، هل نرغمها؟ إن كانت سكينة لا ترغب، هل نرغمها؟
قلت بحيرة، وقلبي يفيض على رأسي:
- أنا لا أعرف! هل تعرف أنت؟ أنا لا أعرف.

17

كانت الدكاكين ما زالت فارغة من الزبائن والزوار، والشارع الإسفلتي المحفر الذي قطعناه بالأمس ما زال خلوا من المشاة. القرية الآن، في هذا الصباح، شبه خاوية مهجورة، ووقع نعليّ على التراب وحصى الشارع يصدر صريرا مزدوجا ككسر الزجاج، تسمعه أذناي وآذان الباعة في الدكاكين فيلتفت هذا ويتوارى ذاك وتظل العيون تراقبني بنهم وفضول، فأحسست بغربة مضاعفة، وآثرت الابتعاد

باتجاه الوادي والمشي على حافة المرتفع حتى أنأي وأخلو لذاتي. وحين خرجت من المنحنى امتدت أمامي بطون الجبال ملساء زرقاء في ضباب الصبح والتماع الضوء على الحفاف وصخور البر. لون البرية لا يبهج، لون يوحي بجفاف حزين. وحتى الزيتون بلا خضرة. أوراق وعروق كابية بلون رمادي باهت أقرب للزرقة المغبرة. أين الخضرة في عز الصيف؟ مشكلة الماء! مشكلة الزرع! مشكلة اللقمة الشحيحة في أرض يقددها الجفاف وتنهشها الحرب. هي ليست حربا مألوفة، وليس احتلالا مألوفا، بل استيطان، ونزاع على بقعة محرومة من فيض الخير والطبيعة. وتلك المستوطنة المنتشرة كوباء الجدري في بطن الجبل، تفرش بيوتا مخروطة كبيوت اللعب. بيوت جاهزة مصفوفة مثل الحلزون وبثور الطفح. ورغم الآلام، وبسبب الفقر، يشتغل القرويون في خدمتهم أجراء مياومة وعمال بناء. وهكذا تخلو القرية من الشباب من الصباح حتى الغروب. وتظل النسوة بلا معين إلا الدواب وجيش الأطفال وشيوخ لا تحلو خدمتهم، فكيف إذن نبني الخربة!

وأحسست بهمي يتكثف، وضياع في أرض تحملني بدون مودة. أمشي وأهيم بلا وجهة على سطح رخو. لا أمل لدي. لا حب لدي، لا أهل لدي ولا إيمان. حين عدت إلى القدس حاولت إيجاد ما أومن به، وما وجدت إلا الوحشة وأحزان الأمس. عادت إلي ذكرى مريم. عادت إلي أحزان القدس. عادت إلي غربة روحي في جو لا أجد نفسي فيه. كما كان الأمس! أما كان هذا إحساسي تلك الأيام؟ لكني كنت بعد صغيرا وأحلم بالكتب وروح الفن. كان الأدب نور حياتي. بعيون الأدب رأيت الكون. أحببت، كرهت، ثرت، تمردت، رفضت حياتي وحدودي، نميت لروحي أجنحة اقتحم بها سجف المجهول. رأيت الجمال، عبدت

الجمال، أحسست بنبضي يتسارع، قذفت بنفسي في أحضان ضوء آسر مثل فراشة ترقص للنور، ثم احترقت. من أطفأني؟ أهي الأعوام؟ أهي الغربة؟ أهي الوحدة؟ أهو تكرار الهزائم أم أني أنا بت عجوزا لا أجني ثمار صيف ولّى لربيع الغد؟ لو كان لدي بيت دفيء، لو كان لدي ولدٌ أو بنتٌ أو شيء يشعل إحساسي وتفكيري ككتاب جديد، فكرة جديدة، رؤيا جديدة، شيء يسحبني من ذاتي ويشد خيوطي إلى الخارج. لا شيء لدي. لا أحد لدي، لا حب لدي ولا إيمان. وهذه الطريق في أرض تضيق وتتوعد، أرض الميعاد! وتلك المستوطنة وما تضمر، وهذا الجفاف، وهذا الخواء في ذاتي وضياع العمر. أهي الشيخوخة أم المادة وفراغ الروح؟

وأحسست برغبة شديدة في النوم واللجوء إلى سريري والانعزال عن العالم بين المخدات وأغطيتي. وتبدت لي غرفة نومي كمكان هنيء ألتجئ إليه فيحميني، شرنقة دافئة كالرحم تغلفني من هذا البرد. النوم جميل. أجمل ما بقي من العالم.

وصلت العيادة وأنا أجر قدمي ببطء. ما زال الصباح في أوله، لكن النعاس يجثم علي كطير هائل، ويظلل حواسي بجناحيه فلا أرى إلا رمادا وخطوطا واهية تخبو وأشباح شجر. دفعت الباب فارتطمت أذناي ببكاء عميق من خلف الجدار. من الغرفة الأخرى انطلق الصوت، لامرأة تشهق وتولول، وميشيل يقول: ركزي معي، ركزي، ركزي. لكن المرأة تصيح بعنف: أنا بدي أموت، أنا لازم أموت، أعطيني سمّ. أعطيني دوا. ثم اندلعت بصراخ حاد من الأعماق، فاهتز

السقف وارتطم زجاج النوافذ، فاستيقظت كل حواسي وطار النعاس، وصرت خفيفا مثل كلب السلق. انتقل الصوت إلى داخلي، فتحرك فيّ ألم جارح مزق أوتاري، فترنحت. وجلست على أقرب كرسي حتى لا أسقط من الإعياء، وظلت تبكي وتصرخ وتئن بضع دقائق، ثم هدأت تحت وابل من كلماته وصوته المترقرق كالبندول يموج ببطء، فيخترق الباطن واللاوعي. هل كان ينوِّمها أم ماذا؟ لكنها عادت تصرخ:

- والله العظيم ما كنت هناك ولا شفته هناك. يلعن أبوها من عيشة. لا أنا خالصة من همّ أمه ولا من همه. وزيادة كمان همّ الولاد، وبقر وماعز، وجبنة وصابون، وخبز الطابون، وجدّ الزيتون، ونقل المية وزبل الدواب على هذا الراس. ولما يرجع تقول سكينة. سكينة عملت، وسكينة سّوت، وسكينة تتمخترع طريق العين، ودايرة تسولف عند الجيران. وتظل تقول سكينة سكينة، لحد ما يقوم يمسك شعري وينزل علي بزنار الجلد. ويرفسني هون، ويرفسني هون لحد ما أموت. شايف راسي؟ شايف إيدي؟ شايف عيني؟ وولادي يصيحوا مشان الله، ساعه يشدوه، وساعة يصيحوا وأمه الكرنيبة ما تتزحزح. والله العظيم لأقتلها، وأقتل حالي. أعطيني سمّ. أعطيني دوا. أبوس إيديك تخلصني.

وكدت أقفز عن الكرسي واندفع إليها لأنقذها لكني خفت، فماذا لو قالت ما قالوه، انت شو دخلك. هذا بيتي وهذا جوزي وانت شو دخلك؟

وسمعته يقول بإلحاح غريب: ركزي معي. ركزي، ركزي، خليني أساعدك ترتاحي. وهي تصرخ: أعطيني سم. خليني أموت. ثم هدأت

تحت تكرار كلماته ونغمة صوته فسمعته يقول: انت الآن في عز النوم. انت نائمة مرتاحة. انت هادئة بلا مشاكل. انت سعيدة.
وحين سمعت كلمة "سعيدة" جنّ جنوني، فهرعت إليه ودفعت الباب وأمسكته من ظهره وشددته، وأنا أصرخ:
- أنت مجنون! ماذا تفعل؟ تقول لها أنت سعيدة حتى تتحمل مزيد الضرب! أنت سادي. أنت نازي. أنت مشعوذ.

استدار إلي، وقد أخذته المفاجأة وقوة الجذب وكلماتي، ووقف باهتا يحملق بي بعينين لا تطرفان ثم استدرك، وقال بغيظ:
- لماذا جئت؟ ماذا تفعل!
وكنت قد بدأت أشد ذراع سكينة المتخشبة على الكرسي، وأقول لها:
- قومي، قومي، يا الله قومي.
فشد ذراعي، وصاح بي:
- لا تفعل هذا، تدمرها!
لم آبه به، وانحنيت عليها لأسحبها، فوجدتها مثل الخشبة، فازددت غضبا وجنونا:
- قومي معي، يا الله قومي.

وأحسست بذراعيه القويتين تسحباني وتقذفان بي عبر الغرفة، فارتطمت بستارة وطاولة الفحص، ونزلت هبوطا على الأرض. انحنى علي ليلتقطني، لكني صفعت يده الممدودة، وأنا اصرخ:
- ابعد عني، أنت مجنون، أنت سادي، أنت مشعوذ. أهكذا تشفي مرضاك؟ بالكذب والوهم والخديعة تشفي مرضاك!

صاح بي لأول مرة، وقد بدأ يفقد أعصابه:

- وما دخلك أنت؟

- ما دخلي أنا؟ أراك تساهم في تعذيب المسكينة وتدجل عليها وتخدرها وأسكت عليك؟ أنا لن أسكت.

صاح ثانية، وقد احمرّ وجهه حتى منابت الشعر في رأسه:

- وما دخلك أنت؟ لماذا تتدخل في عملي؟ ولماذا دخلت العيادة من غير إذن؟ مكانك يا سيد ليس هنا. اخرج فورا. هذا المكان ليس مكانك.

طار صوابي وأنا أسمعه يتحداني. ألا يخجل مني ومن نفسه؟ وكيف يتجرأ ويطردني؟! يطردني لأني كشفته. يطردني لأني كاشفته. يريد أن يستفرد بهذا الجو حتى يرسخ. أنا لن أسمح. أنا لن أسكت. سأقوم بدوري مهما حدث.

وقفت ببطء، ورفعت سبابتي في وجهه، وقلت بحزم:

- أنا لن أسكت. لن تقف في وجهي مهما حدث. سأنقذ سكينة رغما عنك.

صاح بغيظ:

- ماذا تريد من سكينة؟ أنا لا افهم! لماذا سكينة؟

صحت بحدة:

- لأنها مظلومة وتعيسة، ألا تفهم؟! لأنها ضحية هذا الجو. ألم تسمعهم ليلة أمس؟ بل لن تسمع. حتى لو سمعت فلن تسمع. وتستغل جهل الخربة والفلاحين حتى ترسخ. أنا لن أسمح. لن أدع الجهل يترسخ وسآخذ سكينة وأنقذها.

صاح بجزع:

- لا توقظها، هذا ممنوع. ستدمرها.

قلت بإصرار، وأنا أدفعه في صدره:

- بل سأوقظها رغما عنك.

أمسك بيدي يستعطفني:

- لا توقظها، هذا خطير، ستدمرها.

أزحت يديه:

- وأدعك تملأها بالأوهام؟ ابعد عني. ابعد فورا.

اقترب وجهه من وجهي، وانغرزت عيناه في عيني، والغضب يملأ قسماته ويطلق إشعاعا من عينيه:

- لن تأخذها.

- بل آخذها.

ابتسم ابتسامة غريبة، وكانت حاقدة ممرورة:

- وماذا تفعل بالمسكينة؟ تلهو بها لتثبت شيئا؟ ماذا تثبت؟ أنك ثوري ومناضل؟ أنك إنسان؟

- أنا ألهو بها؟ أهذا نتيجة تفكيرك؟ لكن حدود أساليبك لن ترقى إلى بعد آخر.

حملق عينيه، وهو ما زال يبتسم بلؤم، فبدا مختلفا عن السابق كما لو كان رجلا آخر، وهمس بحقد:

- بعد آخر؟! وما هو تحديدا هذا البعد؟

أخرجت كرت مؤسستي وقذفته في وجهه، وقلت بحزم:

- تفضل زرنا في مؤسستي إن كنت تريد أن تعرف.

قرب وجهه، وهمس في وجهي كالشيطان:

obeikandi.com

– وماذا أجد في مؤسستك؟ ملجأ أيتام؟ ملجأ أرامل ومطلقات؟ أم ملجأ لقطاء من الشارع ونساء سقطن وما وجدن إلا الأديرة وحكم الإعدام؟

حملقت فيه:

– ماذا تقصد؟

انسحب الدم من وجهه، وبدا شاحبا جامدا كقناع شمعي أبيض، وقال بحشرجة مخنوقة:

– مريم ما وجدت مؤسستك، فماذا إذن تجد سكينة؟

توقف النبض في قلبي، وهمست برعب:

– ماذا تقصد؟

واصل بجمود:

– والطفل لقيط بلا مأوى، ولم يجد إلا رهبان الدير.

أخذت شهيقا وتحشرجت:

– أنت؟ يعني؟...

– يعني مريم وابن مريم.

أحسست بالغرفة تتماوج، وفقدت الوعي.

18

أنكرني كليا ونهائيا، وقال إني من لهفتي على إيجاد وريث صرت أتشبث بخيالات. خيالات؟ يعني أوهام، يعني خيال، يعني تخيل، والتخيل يأتي من الحاجة لسد الفراغ، فراغ عاطفي، فراغ مادي، فراغ معنوي، وفي حالتك أنت، أردف بلطف، فكل الفراغات مجتمعة. أطنبت عليه

obeikandl.com

فلاطفني، وقال عبثا، كل في طريق. لماذا يا ابني يا حبيبي؟ أنت وريثي! أنت الباقي ممن ذهبوا فالكل ذهب. قال: تمهل، ما ذهب أحد إلا أنت، وحين رجعت حاولت العودة إلى الماضي، لكن الماضي لا يرجع. اذهب وابحث عن مستقبل.

حاولت إقناعه وإغراءه، لكنه التفت بعيدا وجعلني أتكلم قرابة ساعة وهو يحدق عبر الشباك. وحين انتهيت من حديثي ورأيت النظرة في عينيه سألته بغيظ، أين تحدق؟ قال برقة، في اللامحدود. أنت تحدثني بلا فائدة، لن تقنعني. لو تضع العالم بين يدي وكل أموال الدنيا لن أتغير. قلت، أغيرك؟! أنا أغيرك؟ قال الإنسان يتغير حسب ظروفه. سائل يتشكل حسب الإناء، وأنا ارفض. لن أتغير. ثوبي، اسمي، علمي، فني، حبي للناس والإيقونات، لن أتغير. قلت توقف، هذا خالي ذو الخط الجميل، أنت منا، أنت وريثي. لمحة عينيك، بسمة شفتيك، فيك منا ما لا يمكنك إنكاره، هذه جينات ووراثة، هذا في الدم. قال، جينات؟ بل خيالات. أرأيت اللمحة في عيني ورأيت البسمة في شفتي قبل مكاشفتي لأسرارك؟ أنا دخلت في أعماقك وكشفت قصتك مع مريم وابن مريم. أنا شخَّصتك، هذا عملي. أنا لست ابنك. وبهذا تابعت طريقي بحثا عن أمه وطرف الخيط.

وفي الطريق استدرجت عزيزا، وفهمت منه أن الراهب يذهب دوما لزيارة عجوز في القرية، تلك القرية حيث مريم وأم مريم وذكرياتي مع مريم. قلت: صفها، فوصف امرأة في الثمانينات تكاد تكون شبه ضريرة وتضع نظارة سميكة ككعب الفنجان. إذن اللعين ينكرني إما

لأني أنكرته، أو لأني خارج دائرة اهتماماته وعالم لا أفهم مجالاته كما أن مجالي لا يعجبه.

*****

أنزلني عزيز عند المدخل، فوقفت أتأمل دارها عن بعد، وقد اكتست حجارتها باسوداد خفيف، وما عادت براقة كما كانت تلك الأيام. كما أن الأشجار باتت أعلى من سطح الدار، وبالكاد تتيح للناظر من ذاك البعد تمييز تفاصيل المبنى وامتداد الشرفة والبلكونات المطلة على الوادي وجبال القدس. لكن النسيم وعبير السرو والصنوبر، ودندنات ناقوس الحب – كما أسميناه – ما زالت تهفو مع النسمة وتحيل الصمت إلى وحشة ورؤى أشباح.

ووقفت أدق وأتلفت، وما من مجيب. كانت الدار بلا أصوات، والعشب النامي على الأدراج وارتماء الدوالي على جذوعه وحفاف الطريق تشير إلى الوحشة والهجران. إذن هل عادوا إلى الهجرة؟ أم باعوا الدار وهجروها؟ وتلك العجوز أين ذهبت؟ هل دفنوها أم أخذوها أم أنزلوها في مصح أو مستشفى؟ ولم أنتظر طويلا، لأني وجدت الجواب عند جميلة. وجميلة هي أرملة من طرف العيلة كانت تتولى أمر الدار وأمر العجوز حتى نقلوها إلى المنتجع وبيت المسنين. والدار الآن لمن يشتري. وجميلة هذه كانت في القرية تتسوق وتحمل كيسا مثل الشبكة مليئا بالخبز وبعض الخضار وبالكاد تتمكن من حمله. رأيتها تنزل من باص الجبل أمام الممر، فتوسمت خيرا بعد طول انتظار، وأخذت أنتظر حتى ظهرت من بين الدوالي وورق الشجر. ورأتني أقف عند العتبة، فلم

تبد اهتماما ولا حركة تشير إلى المفاجأة بوجودي. كما أن تباطؤ كتلتها بسبب السمنة جعلني أشك بقدرتها على الوصول إلى العتبة مع ذاك الحمل. كانت مغطاة بالأسود من فوق لتحت وبشعر رمادي أشعث وجثة ضخمة. كانت تتعدى الستينات أو في السبعين، وكانت تلهث، وحين مددت يدي للكيس لم تمانع، بل أسلمته بلا تعليق ولا تردد، وكأنها كانت تنتظر تلك النجدة.

قالت الدار مفتوحة وأنها غابت مدة ساعة لشراء حوائج ضرورية، وإن كنت أرغب بمعاينة الدار والحاكورة فعلي القيام بذلك وحدي، لأنها تعبت من الدوران والصعود والهبوط مع كل شارٍ ومعاين. الدار أمامي كما أرغب، لكن شكرا على حمل الكيس، وبعد المعاينة وتفتيش الدار بإمكاني المجيء إلى المطبخ لأشرب الشاي أو القهوة.

إذن فالدعوة مفتوحة للبحث في الدار كما يحلو لي بدون رقيب ولا محاسب، فالأم في بيت للمسنين، وأولادها في الغربة منذ سنين، ولا أحد هنا يعبأ بالدار وينظفها، فالمعذرة إن رأيت غبارا وعناكب وبعض الجرذان. أنت تعرف، في البرية زواحف وجرذان وعصافير، ونافذة السطح المكسورة أتاحت المجال لما ذكرت، بالإضافة لدخول الأمطار. فرجاء لا أؤخذ بما سأرى، لأن الأثاث ليس مهما وبالإمكان التخلص منه أو الاحتفاظ به بدون مقابل إذا أُعجبت أنا بالدار وأردت الشراء. ودخلت المطبخ وتركتني وسط الردهة.

وتذكرت دخولي يوم جئت أسأل عنها. وانتابني إحساس فظيع من

الوحشة، وحنين جارف لرؤيتها وسماع الصوت المتهدل، وجمال النظرة وحيرتها. أجمل ما فيها حيرتها. كانت لها تلك النظرة التي تنبئك ولا تبئك، تشدك وتسحبك حتى تدنو ثم تفلتك ولا تسأل، فتبدأ بالعدو للحاق بها كي لا تغيب عن أنظارك. ثم ماذا حدث؟ لماذا تراجعت؟! وتذكرت مجيئي لرؤيتها واللحاق بها وأنا أدعي أني الأستاذ وأني سأعلمها العربية. ولم تتعلم. ولم أتعلم. وها هو ميشيل يرفضني، بل ينكرني، أو ينكرها.

ومشيت أفتش بين الحجرات والممرات عن أي اثر يشير إليها، وما وجدت إلا الأتربة وغبار السنين، وأصص مليئة بنباتات مسودّة وبعض الأشواك. وصعدت الدرج إلى غرف النوم، ووجدت صورا لإخوتها، هذا بشارب، وذاك بسيارة شيفروليه، وآخر بعروس وكنيسة. وذاك بالحطة والقمباز في صدر البيت، كان أبوها قبل ذهابه لأرض المهجر ثم تغير بعد بضعة سنين وأصبح بقميص وبلا شارب، وها هو يقف أمام المتجر مثل الحارس يعرض سجادا ودناديش شرقية. وكذلك الأم لها صورة، صورة مكبرة بالأسود، وشعر رمادي مسحوب في كعكة وبدون نظارة ككعب الفنجان – لا بد خلعتها للصورة – فبدت عيناها سابحتين من خلف ضباب حجب الرؤية. أما مريم فبلا صورة. مريم الوحيدة بلا صورة! لا في الغرف، ولا في الممرات، ولا على طرف البيرو، حيث اصطفت عشرات الصور لأخوة وصبايا، ومراجيح، وأطفال بضفائر وشرائط، ولعب منفوخة بشكل أسماك على سطح البرك وعلى الشطآن. مريم الوحيدة بلا صورة، وكذا ميشيل. كل الأطفال لهم صورة إلا ابني. وأحسست بغصة في حلقي، لأني المسؤول

عما قاسى وعما قاست. وها هو ميشيل يدير ظهره للدنيا وحياة الأرض كما أدارت له الدنيا ظهر الواقع. هذا إذن ما فعل ميشيل كردة فعل، ولكن مريم كيف ردت؟ ماذا فعلت؟ كيف عاشت؟ أين ذهبت؟ أين اختبأت؟ وكيف جابهت الأحداث والواقع ؟

وعدت أبحث كالمجنون عن غرفتها، وكل الغرف فيها أسرة وخزائن وستائر وبراويز، وكل البراويز فيها الأخوة وفيها أطفال ومراجيح، وفيها حدائق وسيارات، لكن مريم، وابن مريم، وأنا المسؤول. وأحسست بغيظ وتحد، شعور من يدافع عن عائلته، شعور المظلوم، شعور المحروم من النعمة وهم ينعمون ولا يسألون ويتناسون. مريم منسية بلا تاريخ. مريم، مريمتي بلا تاريخ! أفتح الخزائن والجوارير، خلف الستائر، خلف الأبواب، ولا شيء يذكّر بما كانت إلا الناقوس، والزعانف تهفو مع الريح وتدندن ثم تتوقف وتتلاشى وتذروها الريح. ذاك الناقوس كنا اشتريناه من باب الخليل. كنا نسير فوق الأدراج عبر الأقواس والأيقونات، ورائحة البخور والكارب وآلاف الأوشحة، وشموع الصلاة وصور وتحف وطنافس. وقفت تحته، وكان مدلى بين الخرز وحب الكارب، وأمسكت الزعنفة وأخذت تدق. ثم ابتعدت مسافة شبرين، وهي ما زالت تتأمله كالمسحورة، وأخذت تنفخ، فاهتز الخيط وماجت زعانف كالأسماك وسط أنابيب فضية: تن تن، تن تن. وأخذت تضحك وتنفخ وتصيح: "شوف ما أحلاه، هذا من الصين!" وأحسست بخجل من دلعها. وكان البائع يضحك، ويقول: "شايفة ما أحلاه؟ ولا فيه أحلى!" وأحسست بغيظ وتحد، فأخرجت ما أملك من جيبي، وقلت بغلظة: "خذ دينارين وهات الناقوس." وكان الدينار

يعني شيئا! قال بلا مبالاة، وهو ما زال يبتسم لها وينسى وجودي: "وكمان دينار." ولم أجد في جيبي سوى نكلة. فأخرجت مريم خمسة دنانير واحتفظت أنا بالدينارين. وها هو الآن ناقوس الحب، من غير ثمن، بلا دينارين ولا خمسة، يهفو ويموج مع النسمة، تذروه الريح، ويذكرني. آه يا مريم، أين وصلنا!

وسمعت خربشة واهتزاز نحاس وشيئا يصر كارتطام زجاج، وكان المصدر فوق رأسي، بارتفاع السقف، أو فوق السقف، فارتقيت الدرج إلى المصدر، وكانت غرفة فيها كراكيب وصناديق وبراويز مكسورة، وهناك فقط وجدت صورتها ملقاة خلف بيرو وكانون نحاس. أخرجت الصورة المكسورة، وكانت متوسطة بحجم كتاب، ووضعتها في عبي في جيب الصدر، لأعود بها وأبروزها وأحميها من قضم العثّ. آه يا مريم، أين وصلنا!

19

دخلت عليها في المطبخ وشممت رائحة القهوة وبخار الطبخ. أجلستني قبالتها حول مائدة المطبخ، وبدأت تسأل وتصب القهوة وتقشر حبات بطاطا وباذنجان. سألتني من أين ولماذا جئت إلى القرية، وكيف علمت بأمر الدار وهل أعرفها؟ قلت أعرفها منذ سنين، وأنا عائد، ولا بيت لي، وأبحث عن بيت. قالت تبحث في البرية وأنت من القدس؟! لماذا تسكن في رام الله وأنت من القدس؟ لماذا لا تشتري بيتا في القدس،

فبيوت القدس لمن يطلب، وهؤلاء اليهود طالع نازل زي المنشار. أنت أولى. معك هوية؟ معك التصريح؟ معك أوراق ثبوتية؟ إذن تشتري بيتا في القدس، وينالك أجر وينالك ثواب، وتكون هناك وسط الدنيا بدل البرية ورام الله. "البرية؟!" سألت بعتاب، فهزت يدها، وقالت قرية، طيب قرية، يعني القرية أحلى من القدس؟! استغربت موقفها من البيع، وقلت مبتسما بدهشة: أنت المسؤولة عن بيع الدار؟ هزت يدها، وقالت حاشاي، أنا كنت مسؤولة وبعدين تبت. "تبتِ؟" سألت بفضول، فرفعت عينيها وانتبهت وتأملتني بضع لحظات، وقالت ببرود: كيف القهوة؟ وكان ذاك مؤشرا على وضع حد لأسئلتي، فلزمت الصمت.

حاولت الدخول مباشرة في الموضوع حتى لا أضيع الوقت، فقلت خسارة! كيف كانت الدار وكيف صارت! نظرت إلي وسألتني مرة أخرى، كنت تعرفها؟ لم أجبها وأدليت بتعليق آخر: وكان أجمل ما في الدار اخضرار الأصص. كانت المدادة والخنشار أجمل ما رأيت في حياتي، لكن الآن، يا حرام الآن! سألت ثانية، تعرفها؟ ولم أجب، وقلت القرية كانت أجمل، حتى القرية كانت أجمل، أين الخضار؟ أين الشجر؟ أين الزيتون؟ شوارع ومبان ودكاكين تحاول أن تبدو كمدينة، فأضحت لا قرية ولا مدينة. سألت بجفاء: ورأيت الطريق الالتفافية؟ ورأيت المستوطنة القريبة؟ وتسأل عن الخضرة والزيتون! وخفت أن يجرفنا الحديث إلى المستوطنة والمستوطنين والمحتلين، ككل حديث يبدأ وينتهي عند كل الناس منذ رجوعي، فعدت ألوح بطعم جديد. ذكرت القسيس وزوجته ايفون وعملي في مدرسة حكومية. سألت بفضول، متى كان ذاك؟ يعني قبل حرب ٦٧؟ قلت تماما، ثم هاجرت. أين

هاجرت؟ في كل مكان. ولم أشأ تحديد المكان وعدت ألوح. وذكرت أنني زرت الدار تلك الأيام؛ لأعطي دروسا للست مريم. "الست مريم؟ أنت؟ أنت. ." ورمقتني بنظرة مرتابة، وقالت بفضول: "أنت مسيحي أم ..." أحسست أنها قد بدأت تشك، وأنها قد تكون على علم بقصتنا، أو فضيحتنا، فقلت مداعبا: "أم يهودي؟ أم مستوطن؟"لم تجبني، وتشاغلت بشرب القهوة، فأضفت ألوِّح لها بالطعم: "وكانت مريم مثل الوردة، ما أجملها!" هزت رأسها بضع هزات، لا هزة واحدة ولا اثنتين، بضع هزات، فقلت لنفسي، تعرفها، هي طرف الخيط. ولزمت الصمت.

قالت ببرود: "ورأيت الدار؟ هل أعجبتك؟ سعرها مغر، أتريد الشراء؟" حاولت الاستمرار في سحب الخيط، وكنت أقدر أن امرأة بمثل خلفيتها وبهذا السن لن تنفتح وتعطيني ما أريد من معلومات بدون تعب، وهذا بحاجة لبعض الوقت، إذن فلأمسك بطرف الخيط حتى اقترب من المحور. قلت مترددا إن المسألة ليست مسألة السعر ولا بعد الدار عن المدينة ولا المستوطنة القريبة، لكن الدار، مسكينة الدار، باتت موحشة وكئيبة وبحاجة ملحة للتصليح. قالت باقتضاب، أهلها هجروها منذ سنين، ومرت الدار بصعوبات، فساعة مسكونة، وساعة مهجورة، وهذه ثالث مرة تعرض للبيع. مسكينة الدار!

سألت فجأة: "طيب ومريم؟" نظرت إلي ثم أشاحت، وقالت ببرود: "كنت تعرفها؟" "درس واحد بالعربية ثم هاجرت." لم تعلق. فعدت أقول وأنا أصطنع المزاح: "وكانت بالعربي على السكين." هزت رأسها

obeikandl.com

بضع هزات ولم تنطق، فعدت أقول: " ما كان لديها القابلية لتتعلم." فردت بسرعة: "لأ، كان، لأ، كان. صارت تحكي وتقرا وتكتب أحسن مني." اصطنعت التعجب والإعجاب، فقلت: "صحيح؟" وأثنت موافقة على رأيي بقولها: "نعم، صحيح." قالت ذلك باقتضاب سريع، ثم عادت تدور وتلف حتى تعرف وبشكل خبيث غير مباشر، فأردفت: "وأنت بروستانت أم كاثوليكي أم روم أرثوذكس؟" ابتسمت وقلت: "رجعنا للدين؟" تحاشت نظراتي وعادت إلى تقشير الخضار وقالت ببرود: "بس أنا بسأل، لأنك ذكرتني بالقسيس." وصمتت، وصمت. وبعد فترة، قالت ببطء: "كان في القرية واحد مسلم، أقصد أستاذ، وكان يدرّس ودرسّ مريم. وبعدين اختفى وراح وما رجع. يا ترى تعرفه؟" فقلت: "أعرف عن مين؟" هزت رأسها وكأنها تراجع نفسها، وقالت ببرود: "كان قبل سنين، سنين وسنين، يا لطيف الدنيا شو بتركض! كانت مريم صبية صغيرة، وصارت اليوم زيي وزيك. صرنا كراكيب."

ولطمتني الكلمة كالصفعة، صرنا كراكيب. مريم عجوز وكركوبة. مريم تشيخ؟ مريم تكبر وتبدو مثلي؟ مريم تنهد وتتآكل؟ مريم تعاني من السكر والضغط والقرحة والزوهايمر؟! لا، لا يمكن. مريم حلوة. مريم نغشة. مريم ترقص وتلعب بالنار. وعادت صورتها إلى ذهني، تلك الصورة، وهذه الصورة. صورة في الجيب بجوار الصدر، وأخرى في الرأس. وأنا أبحث بين الاثنين.

قالت: "والدار؟ تشتري الدار؟" فكرت بصمت: إن قلت أريد فعلي الشراء، فينفلت الخيط، وإن قلت "لا" أذهب وأروح وينفلت الخيط،

إذن الأجدى ألا أقطع وأبقي الموصول على صلته. رأتني بحيرة، فقالت باشفاق: "شو مش عارف؟ ولا يمكن ناوي تفتش في بيوت القدس؟" التفت إليها، وقلت باندفاع: "والله فكرة! فكرة ممتازة وعملية، بس المظبوط أنا لا أعرف أحدا هناك يساعدني، ألديك أحد؟ ألديك دار تصلح للبيع؟" هزت رأسها، وقالت بأسى: "كان يا ما كان. كان عندي دار وبعدين راحت. أخذوها اليهود. لكن الدار بطرف الشارع ما أخذوها. الحق حالك. أهلها بالكويت من قبل الحرب. حلوة وشرحة وفيها جنينة، تيجي تشوفها؟ إذا أنت أخذتها ينالك أجر. تيجي تشوفها؟" فقلت: "طيب والدار؟ يعني هذي الدار؟ خايف تنباع!" فقالت ببطء : "شاور عقلك، فكر بالدار وبدار القدس. شوف وفكر." وأعطتني إذنا مفتوحا بمعاينة الدار مرة أخرى وعلى مهلي، ووعدت بأخذي لدار القدس بطرف الشارع، فأنا أولى، لأن اليهود طالع نازل، زي المنشار.

20

عدت إلى الدار بعد ظهر الغد، وكان نهارا كئيبا مليئا بالريح وغيوم الصيف وبخات مطر رغم حزيران. وجدت المفتاح – كما قالت – تحت العتبة، فدخلت بحذر وتوجس كما لو كنت أسترق الخطو إلى متحف، حيث الماضي ورؤى أشباح. كانت الدار خالية، والمطبخ ما زال على حاله كما تركته يدُ جميلة، نظيفا، ممسوحا مرشوشا وأغطية طناجر مغسولة فوق المجلى، ورائحة الطبخ، ومبيد الحشرات والصراصير تمتزج في الجو وتغدق عليه لمسات حياة. لكن الريح تصفر وتموء، واهتزاز زجاج

في الردهة وطرقات حديد. كانت الشراعة مفتوحة باتجاه الغرب، فمضيت إلى الغرفة لأقفلها وهناك وجدت ما لا أعرفه، كتبا ومكتبة ورفوف كتب ومدفأة رخام. وفي طرف الغرفة خلف الباب مكتب صغير وكرسي دوار وآلة تصوير. غرفة غريبة لا أعرفها، يملؤها الغبار ورائحة الكتب. أضأت النور، فانطلقت لمبات ثريا من أعلى السقف، واشتعلت الغرفة بلون ذهبي ساطع يعمي العينين، فعدت وأطفأت اللمبات، لكن الصورة المعلقة في وسط الجدار كانت قد رسخت في عقلي وملأت عيني. صورة شاب لم يصل العشرين، نحيف ضعيف وبعينين شبيهتين بعيني مريم وعيني ميشيل. بل هو ميشيل، أي ميشو. هذا ميشو، هذا أخوها، هذا المريض، هذا الميت. وهذه الغرفة هي لميشو. ولطمني الجو. أحسست بذكراها تعود وتحاصرني، بل تسكنني، وعطر خفي في الغرفة ينفث أنفاسا كاللزاب والصنوبر ورائحة العشب حين هربنا ودخلنا الكهف تحت الصخرة في بطن الواد. كان الربيع وكانت تمشي مع عنزتها ذات القرنين، والغرة وخرزة زرقاء في رقبتها حتى تدرأ عين الحسود فتدر الحليب. عنزة بيضاء كغزالة تعاملها مريم كالقطة أو كلب البيت. والعنزة جميلة كالصورة، ومريم والعنزة شيء مخيف، شيء مذهل، يدخل في العقل ويحدث هزة. شيء كالسحر. فتاة مسحوبة بالأسود، وعنزة بيضاء بلون الثلج ويد الفتاة تحمل غصنا تهش به رأس العنزة حين تقترب من الكرمة وأغصان الخوخ. مشت ومشيت بجانبها، وكانت تحكي لي عن الراهب، ذاك الراهب، وبكت وبكيت، لأني كنت أعشقها وهي تعشق ذاك الراهب. جلسنا على طرف الصخرة، والعنزة تثغي، تصدر أصواتا كالقطة أو كالأشباح. نظرت إلى تلك العنزة، فضحكت بخوف، فسألتني مالك؟ خايف؟! قلت

العنزة مثل الغولة تسمع وتحدق كالإنسان، قالت إنسان أم غولة؟ أنت مجنون، أنت فنان، أنت كاتب. كاتب مجنون وتتخيل. قلت انظري كيف تحدق وتفهمنا، ولو كان لها لسان ينطق لقالت أشياء مثل الغولة. مسحت وجهها من أثر البكاء، وكانت قد هدأت وتناست، وقالت بمزاح: وماذا تقول لك الغولة؟ ولم أجب وظللت أحدق في العنزة، والعنزة تحدق في الباقة وغصن اللزاب. عادت تلح، وماذا تقول لك الغولة؟ هيا فرجيني خيالاتك، هيا قل لي. قلت بخفة وقد ركبتني عفاريت الجو، وعيون العنزة، وقصتها، وحبي المشبوب المتخفي تحت الكتب وكتاباتي وادعاءاتي، وأنا الفنان في عينيها، وأريد أن ابقي كما تراني، كاتبا فنانا وخيالات. "الغولة تقول، الغول يقول. ." ورميت الباقة للعنزة، والتفت إليها، وأنا أحملق وأرسم في وجهي وجه الغول وأنشب أظفاري لآكلها، "أنا الغول وباكلكم" وقفزت عن الصخرة، وأخذت أمشي بخطوات أحدب نوتردام، فبدأت تضحك، وتقول: "مجنون! مجنون! والله مجنون!" واقتربت منها، وأصابعي ما زالت ممدودة، ووجهي مكرمش، فهربت مني وأخذت تركض، وأنا أركض، أعرج وأتلوى وأتخبط، وهي تضحك، تمشي وتضحك ثم تركض، وأنا أركض، والغصن يلوح في يدها والعنزة تتبعنا وتثغي وتهز الجرس في رقبتها حيث الخرزة. وهناك في الكهف سقط اللزاب ودخلنا الحب، وشممت الحب والطبيعة وإبر اللزاب. آه يا مريم. وأغلقت الشراعة المفتوحة على ريح الغرب، وبقيت هناك أتنفس، أنفث ذكراها وأتنهد وهو أمامي، أمام عيني يراقبني مثل العنزة. مثل الغولة. مثل الأشباح.

وجلست في الغرفة كالمسحور. رجعت إلي ذكرى مريم وذكرى

ذاتي، ذكرى ما كنت. ذكرى الجنون وخيالاتي وأشواق الفن. أين ذهبت تلك الأشواق؟ كيف اختفى ذاك الإحساس؟ أين دفنته؟ أهناك شيء في الدنيا يعدل ذلك؟ ملمس مخمل، أجنحة الريش، قماش الموسلين، وعلو الغيمة والنسمة وشعاع الشمس. لون الدنيا عند المغرب وضباب الفجر. رائحة الطين وري الزرع. طعم المشمش، تفتيح اللوز، ونغمة حزينة لعبد الوهاب كنت أغنيها فترمقني وتضحك مني تلك الأيام. تلك الأيام كان يغني وأنا أغني، وهي تحدق: "قال لي كم كلمة، يشبهوا النسمة، في ليالي الصيف." ويرن الجرس والعنزة وناقوس الحب، فتقول بخوف، امش، اركض، أوعى تشوفك. ثم تضحك وتقول بحزن، مسكينة نظرها شو صار ضعيف، بس بتسمع. اسكت، اسكت. فأغني لها بصوت خافت يشبه الهمس: "فاتني وبقلبي، شوق بيلعب بي، وبخيالي طيف." ، فتهمس بعتاب: "اسكت، اسكت." ولا شيء يسكتني إلا الإحساس وتنهدها. وها أنا الآن أحس بها، وتحس بي، وأدور أثغي كما العنزة وفحيح الريح. آه يا مريم.

*****

تحت الآلة لمحت ورقة مصورة مسودة، صورة مخطوطة بخط اليد، بل رسالة، بل ذكريات، أو رواية. "قال لها ثم قالت له، وأحست كذا وأحس كذا، ثم انطلقا نحو الهوستل ودير الأرمن." ما هذا الكلام؟ من كتب النص؟ والبقية؟ ثم أين الأصل؟ هذا الكلام هو من مريم،

لكن الخط؟! ثم هذه اللغة؟! لكن جميلة قالت بالأمس: صارت تحكي وتقرأ وتكتب أحسن مني. يعني مريم صارت تكتب، لكن روايات؟!! ولم لا؟ ألم تكن مبهورة بما أكتب؟ ألم تقل لي مرارا وتكرارا إنها لو كانت تعرف العربية لكتبت للناس أفظع قصة؟ أي قصتها. هذا بالفعل هو أدب النساء، أدب المرأة، تبدأ بكتابة قصتها على اعتبار أنها أفظع قصة. هذا على الأقل في نظرها. ونظر الدنيا؟ نظر الدنيا أن المرأة تكتب نفثات لا روايات، أي مذكرات، أي اعترافات، أي إسقاطات. أي ترمي بأحمالها للدنيا وتقول خذوا، هذا ما لدي، هذا ألمي، هذا أنا، وأنا ضحية. أنا أعترف إني أخطأت، لكن خطئي سببه الضعف، وسببه الحب وسببه الصدق. أنا صدقت ما قالوا لي، ولهذا وقعت في هذا الفخ. خذوا واحكموا. إذن هذا ما فعلت بي؟ هذا ما جاء في قصتها. أنا الجاني، وهي ضحية. ولكن هل ذكرتني بالاسم؟ وهل ذكرت شيئا عن ذاك الابن؟ وهل كان ابنا أم ابنة؟ إن كان ابنا فهو قطعا ميشيل، وإن كانت ابنة فأين هي؟ ثم أين الصورة، وأين الأصل؟ أين المخطوطة بكاملها؟

وأخذت أبحث كالمجنون. في أدراج المكتب، على الرفوف، بين الكتب، في الخزانة. ومن لخمتي جلست على الكرسي الدوار خلف المكتب، وأخذت أدور وأنظر هنا وأنظر هناك، وأنا أدور وأراجع ما قرأت من كلمات: وقال لها، ثم قالت له، ثم الهوستل ودير الأرمن وطلوع الصبح. ثم ماذا ؟ ماذا قالت؟ ماذا كتبت عني وعنها؟ وهل أبدو شريرا وجبانا؟ هل أبدو لعوبا وزير نساء؟ وبالأساس، هل أحببتني كما زعمت أم كنت بديلا للراهب؟ وابنها ميشيل، إن كان ميشيل، أو ابنتها، هل كان مني –

كما ادعت – أم كان منه؟ وللمرة الثانية بعد الألف تمنيت أن يكون ابن مريم هو ابني أنا، ابني بالفعل، ابني بالدم، بلا منازع. ثم ماذا يكون لو لم يكن ابن مريم هو ابني أنا؟ ماذا افعل؟ كيف أتصرف وكيف أعيش؟ مذ بدأت البحث عن مريم صار لحياتي هدفا أركض خلفه، أشتاق إليه، يدفعني دفعا في ظهري نحو الأمام والمستقبل. بدأت البحث عن الماضي، وها أنا أبحث عن مستقبل. مريم كانت خيط الماضي، وابنها سيكون المستقبل.

وأخذت أدور على الكرسي، وأحدق في الصورة وعيني ميشيل، وأهمس بجنون الممسوسين وعوز المرضى في العيادة: يا روح الموت، يا شبح الموت، يا ذا الطاقة، إن كانت هناك حياة في الموت، أو بعد الموت، وإن كنت تهيم في الأجواء، ابعث إلي بإشارة، ابعث إلي من ضاعوا عبر الفلوات، يا ذا الطاقة!

واستدرت بعنف، وخلفي تماما على الجدار كانت صورة، لوحة مائية بالألوان لجبل الزيتون والجسمانية وقباب النحاس. انفتحت الشراعة، فلمع الزجاج ورأيت وجهي في الصورة على سطح الزجاج فوق القباب وجبل الزيتون. وجهي على السطح، تحتي الزيتون وقباب النحاس. فلمع الخاطر: أتكون هناك مع الراهبات أم هذا فقط وحي خيالي وعينا ميشيل؟ ونظرت إليه، فنظر إلي. كان ينظر. كان يحدق. كان يحذرني من الماضي ونبش الأموات. لكن الآن، وقد وصلت إلى هذا، في هذا السن، في هذا الوضع، لا شيء يخيف ويثنيني، فمِمَّ أخاف؟ من دنيا الموت؟ وما أنا فيه ماذا أسميه؟

ارتطمت رجلي بسلة مهملات تحت المكتب فيها أوراق مدعوكة. فتحت الأوراق. فواتير كهرباء وفواتير ماء وورقة مكورة كالطابة، فتحتها فوجدتها نسخة مصورة لشهادة، شهادة ميلاد، لكن بلا اسم ولا كنية. أما التاريخ، فهو التاريخ، ذاك التاريخ، تاريخ النكسة وخروجي وولادتها. الصورة موروبة ولا تصلح، صورة مصورة بالمقلوب، صورة بالعرض، صورة بتاريخ وبلا أسماء. والصورة شهادة للميلاد. وذاك الميلاد هو ميلاده، هو تاريخه، هو طرف الخيط. لكن بلا اسم ولا كنية.

وأخذت أدور كالمجنون. وخرجت من الغرفة للعتمة. كان الغروب يزحف حولي وأنا ما زلت أبحث عنها، أبحث عن صورة ورواية وشهادة ثبوتية تثبت لي أن التاريخ هو تاريخه، وأن ما ضاع هو اسمي أنا بجوار اسمه، أي أن البحث بدأ بواحد وصار باثنين، بل ثلاثة، بل ألف سؤال عني وعنها، وعن طرف الخيط.

وعدت إلى الغرف أنبشها، في الجوارير، في الخزائن، تحت الأسرة وخلف الأبواب. ولا شيء يشير إلى أثر لها، أو أثر له. وصعدت مجددا إلى غرفة السطح حيث الكراكيب والصناديق والحقائب. حقائب فارغة متربة إلا حقيبة مدسوسة تحت كوم خشب وزوايا حديد. حقيبة صغيرة فيها ملابس طفل صغير، ولفافات وأقمطة تستعمل للرضّع. هذه للطفل، أو للطفلة، فأين آثارك يا مريم؟ فتحت الصناديق. أول صندوق، وكان لا شيء، مجرد ستائر عتيقة وحلقات وبراغي وكوم مسامير. ثاني صندوق، كتب ودفاتر عتيقة من الخمسينات. وثالث صندوق، ثالث صندوق كان هو الكنز أو طرف الخيط. فيه صورها وهي صغيرة، وهي صبية، وهي كبيرة، وهي مع العنزة على الصخرة،

وأمام الكنيسة مع القسيس وزوجته ايفون. ومع أمها بعدة أوضاع، تحت العريشة، في المطبخ، تحت سور القدس، تحت الأقواس، وعلى ظهر جمل مع السياح، في أعلى قمة جبل الزيتون، والأقصى يلوح في الخلفية، ثم القباب النحاسية للجسمانية، وهي مع الأم وجوقة طلاب كشافة، ثم أمام بيت المسنين والعجزة، وراهبة تلوح بجوار عجوز على كرسي بعجلات مع مريم. ولطمتني الفكرة كالصاروخ. الأم هناك، والابنة هناك، وهذه الراهبة هي الخالة. إذن يبتدئ البحث هناك، بل في الصناديق، عن الصور، والشهادة، والرواية، وعما ترتب من أحداث. أين الصورة؟ بل أين الأصل؟

وأخيرا وجدت كدسة أوراق مخبأة بكيس جلدي تحت مجلات. فتحت الكيس ورأيت الكنز، أوراق كثيرة وكبيرة بحجم فولسكاب، وكلها مكتوبة بخط اليد ومصورة في عدة نسخ على الآلة. هي ليست الأصل، بل صورة، لكن لا بأس. هي طرف الخيط.

أخذت الكيس ونزلت به لإحدى الغرف، وتمددت هناك على سرير عريض، وبجواري كمودينة قديمة وفانوس عتيق. أضأت الفانوس وبدأت القراءة على مهلي، وبدأت أغوص في الماضي ولجج الأحداث، بدون تسلسل، وبدون أرقام وتواريخ، لكن الكلام هو نفس الكلام، والرواية، ونتف الأحداث والمشاهد، وصور الماضي... كما رأته عيناها، عينا مريم.

*****

حكت له عما قاست فبكى معها. كان لطيفا، كان رقيقا، كان حساسا وخجولا. كان فنانا موهوبا يكتب قصصا. وكانت هي تحلم بالكتب وتتمنى أن تكتب شيئا يقرأه الناس. لكن اللغة تقف سدا، فكيف تكتب من غير لغة؟ ثم التجربة والخبرات! فماذا تكتب وهي بلا تجربة ولا خبرة؟ تكتب عنها وعن إخوتها ودير الراهبات؟ دير الراهبات كان سجنا، لكنه كان سعيدا، لأنه منحها فرصة الاختباء من الأخوة وعيون الناس. كل البنات العربيات في سان باولو دخلن الدير لدى الراهبات حتى يحافظن على العادات، وحين يكبرن بعض الشيء يرسلهن الأهل إلى البلد حتى يواصلن حياتهن في جو نقي غير ملوث. وهذا ما كان، أعادها الأهل إلى البلد وسلخوها عما تعرف، عن جو البيت وعن الأخوة وعن الأصحاب. أحست بالسجن والوحشة. اشتاقت للمدرسة والراهبات. اشتاقت للعب مع الرفيقات. اشتاقت لصديقة وحيدة كانت لها أكثر من أخت. واشتاقت للأخوة وجو البيت. حتى رفيقتها في الغربة، أي أمها الأرملة الرقيقة صارت غاضبة وحزينة. صارت تقسو، صارت تشك، صارت تلعن، فهي أيضا أحست بالغبن لاضطرارها السفر وترك الأبناء وجو البيت. وكذلك بسبب مرض الابن.

ماذا تكتب؟ تكتب عن الغربة والوحشة؟ تكتب عن الغربة في بلدها؟ تكتب عن شوقها للراهبات؟ تكتب أشياء لا تعرفها وبلغة بالكاد تعرفها؟ وهو الأستاذ في العربية ولديه القدس، ولديه الأهل، ولديه الناس والشارع. وهي لا تعرف عن القدس إلا صورة، وتلك البلد ظلت صورة، وخيال الظل.

انتهت الصفحة، وتبعتها صور متتالية لنفس الصفحة ونفس الكلمات، وحين عدت إلى القراءة وجدت التاريخ، وقد عاد بنا لما قبل الحرب وقبل تعارفنا وهروبي.

صفحة جديدة:

كانت تحس بالوحشة واغتراب شديد، فماذا يقول هؤلاء الناس، وكيف يعيشون وكيف يموتون؟ أين العالم؟ أين الدنيا؟ أين الأضواء والكهارب؟ أين الأسواق؟ كانت تحس بسان باولو هي أرض الوطن، لكن الوطن كما قالوا في أرض الشرق. وهي لا تعرف أين الشرق، وأين الغرب، وأين تروح، وأين تجيء، وما تفعل. نشأت في الدير، وعاشت في الدير، وأحبت راهبة ككل البنات، ولم تعرف أحدا من ذاك الجنس إلا الأخوة. هناك خوري طلياني يأتي للدير كل يوم أحد، فتلتم البنات يسترقن النظر، لأنه جميل كالصورة، وكان شابا ولطيفا ويحكي طلياني وفرنسي. شاب جميل مثل الصورة، ويعزف الأرغن والبيانو مثل شوبان، وبنات الدير في سن خطير، أي صبايا، يتجمعن في الصف الخلفي من الكنيسة، ويتهامسن ويحلمن به كما لو كان ممثل سينما. وهي حلمت، ليس كثيرا، لكن حلمت. كانت الأصغر والأبرأ والأكثر موهبة وخيالا. كانت تكتب بعض الأشياء وتخبئها. ومرة قرأت إحدى البنات ما تكتب، فقالت بعجب، أنت كاتبة موهوبة! لماذا لا تعرضين كتاباتك على الأستاذ؟ وبعد إلحاح عرضت ما كتبت على الأستاذ. جاء الأستاذ في اليوم التالي وناداها وقال خذي هذا تعليقي على ما قرأت.

وأعطاها رسالة طويلة، بضع صفحات فيها إعجاب وتعاطف. وأبرز ما قال: هذا الخيال شيء نادر. أتنبأ بمستقبل باهر ولكن حذار، فهناك أحاسيس خطيرة. فحصار الجو في هذا السن قد يتسبب بانفجار خطير. سنك هذا وخيالاتك يجب أن تنال أبلغ توجيه وإلا ... وإلا... لم تعجبها الرسالة، لأنها انتهت بالوعظ والإرشاد والتحذير، لكنها تركت أثرا بليغا، لأنها قالت قبل التحذير والانفجار الخطير ما هو أبلغ، قالت لها: خيال نادر، قالت نجاح ومستقبل. لكن للأسف! ما حدث لها ليس النجاح والمستقبل، بل الانفجار وهروب سحيق.

انتهت الصفحة وتكررت في عدة صور، والصفحة التالية كانت بعيدة كل البعد عن ذاك السياق. وأثناء التفتيش عن صفحة أخرى وامتداد الخيط كنت أفكر: أحاسيس خطيرة وخيالات؟ تكتب أشياء وتخبئها؟ خيال نادر؟ انفجار خطير؟ نقص في التجربة والخبرات ولا تعرف من ذاك الجنس إلا الأخوة؟ وأين الراهب؟ وماذا عن الحب؟ وأين قصتها مع الراهب؟ خوري تراه في الكنيسة يعزف الأرغن والبيانو وتراه عن بعد مثل كل البنات؟ أهذه في الأصل هي القصة؟ قصة مختلقة وخيالات؟ لا، لا يمكن. كانت تحكي وتبكي وتئن. وكانت صادقة وأمينة في سرد الوقائع والأحداث. ولكن بالفعل، ما أدراني؟ وهل كنت أعرف ما الواقع وما مر بها وما مرت به؟ هل كنت أعرف أصل الأحداث وكيف وقعت وما وقع فعلا وما لم يقع؟ ما يدريني ماذا اختلقت وما ألفته وما لفقته. ما يدريني ما أصل رجوعها للقرية وموت أخيها؟ وهل كان السبب هو موت الأخ؟ وهل كان مرضه سبب الرجوع أم أن الرجوع قاد لموته؟ ومن كان السبب، هو أم هي؟ ومن

المريض، هو أم هي؟ والسؤال الأهم: هل كانت مريم مريضة؟ وهل ما قالته عن الراهب محض خيالات؟ وهل ما قالته مجرد تأليف؟ لا، لا يمكن. أنا أعرفها، كانت صادقة وأمينة. ولكن بالعمق هل أعرفها؟ وقد كنت صغيرا وبريئا وبلا تجربة ولا خبرة، وأنا أيضا عشت في الوهم وخيالاتي وأحلام الفن. أعرف عن الناس ما أتخيل، ولا أكتشف آثار الوهم إلا ما بعد، بعد أسابيع، بعد أشهر، أو بعد سنين، أو لا أكتشف على الإطلاق. كنت أرى ما يعجبني وما أتخيل. وكانت للناس دوما صورة. أما الواقع، فأين الواقع؟ حتى الآن، وبعد كل السنين والستين والخبرة، هل أعرف حقا ما الواقع؟ وهل يعرف أحد ما الواقع بدون تدخل؟ أنا تدخلت في صورتها، فمريم إذن كانت صورة، وأنا مصور. وها هي الآن تصورني، فكيف رأتني؟
وعدت أبحث بين الصور عما رأت وكيف رأتني. صفحة جديدة:

دخلا الهوستل للاستطلاع وصرف ما تبقى من دولارات. كانت تريد أن تكتشف الدنيا وتكتشف القدس. القدس مليئة بالسياح، وهي سائحة عربية وترطن بلغات غربية وتجد صعوبة في لفظ العين. يضحك منها ويقول لغات! ما شاء الله! لكن العين صارت ألفا. قولي عيني. قولي عنب. قولي عاشق. قالت علمني فلا أغلط. قال أعلمك لكي نغلط. وغلطا معا أكبر غلطة. خطيئة كبرى. جرم قاتل. ماذا قالوا لها في الدير؟ ولماذا إذن كانت في الدير؟ لماذا اختبأت؟ لماذا هربت؟ وكيف حلمت أن تكون لها قصة كبيرة مثل قصصه! هو يكتب قصصا من الواقع، وهي لا تعرف من الواقع إلا ما قيل. ثم عرفت، لكن بثمن.

أين البقية؟ بلا بقية، بقية الصفحة مسودة في كل النسخ، والنسخ كثيرة، خمسة نسخ، لكن بلا تكملة ولا بقية. مجرد أسود. ولكن مهلا، قبل التكملة وما كتبت، ما أصل الفعل؟ ما أصل الحدث وما فعلا؟ قالت علمني فلا أغلط؟ وقال أعلمك لكي نغلط؟ ما هذا الكلام؟ أنا لم أقل، بل قلت العكس، قلت شيئا شبيها بذاك النص لكن السياق غير ذاك السياق. كما أن الواقع ليس هو. صرف الدولارات؟ كان مبررها لتأخذني لذاك الهوستل. وحين استيقظت من السكرة واكتشفت الأمر هربت مني. أنا استجرت بالوالد وهي تلاشت. وضعتني في المأزق وتلاشت. هي عادتها. تشدك وتسحبك حتى تدنو ثم تفلتك ولا تسأل، فتبدأ بالعدو لتلحق بها مثل المسعور. وها أنا الآن مثل المسعور. بعد النكسة مثل المسعور. بعد الغربة مثل المسعور. وكل الأحدث والهزائم، مثل المسعور. تلوح كسراب في الصحراء ثم تفلتك ولا تسأل. آه يا مريم. أين الواقع؟ أين الطريق؟ أين وصلنا!

صفحة جديدة:

صدق أنها مثل السياح والأجانب. صدق أنها ذات تجارب. وباتت نظرته مزدوجة. نظرة من ينظر إلى أستاذ ونظرة من ينظر إلى قصة وجو خارق. تلك الأجواء شحنت فكره وملأت خياله بالصور والعواطف، فدمعت عيناه. دمعت عيناه، لأن القصة خرقت قلبه وأثارت إشفاقه وأشواقه. بات يتمنى لو يعيش قصة كبيرة فيها مخاطر وهروب وضحايا وزلازل، فيها نخيل وبواخر، فيها اقتحام ومعارك ونفي وسجون وأعاصير. ورآها هي تلك المرأة ذات النيران، فاحترق بها. وبات أسيرا لما خلقته. وانتابها إحساس عميق بالإشباع والسعادة. أليس جميلا أن

يرانا الناس كما نبغي؟ أليس جميلا أن نشحن خيالات الناس؟ أجمل إحساس. وستنشر يوما ما تكتب، فيقرأها الناس. لكن الخطورة في الموضوع أنها هي باتت مسكونة بما تكتب، تعيش القصة والأحداث وتغطس في الجو وتصدق ما تتخيل. هل أحبته؟ هذا مؤكد. لكن تحديدا ماذا عنه؟ هل أحب الأصل أم الصورة؟ هل أحب مريم وقصتها أم أحب مريم لقصتها؟ ليتها تعرف.

رميت الصفحة من يدي وأحسست بالصفعة كالزلزال. إذن هذا أنا، مجرد أحمق. كذبت علي كل تلك السنين وعذبتني كل تلك السنين وصدقت ما كان وما قالت والآن تجيء لتكشف لي كم لعبت بي! أمن المعقول؟! وماذا عن الحمل؟ ماذا عن الابن أو الابنة؟ كذبة أخرى؟ لا، لا يمكن، وهذه الملابس والأقمطة؟ أتكون لطفل من العيلة، ابن أخيها، ملابس إخوتها من الخمسينات مثل دفاتر الخمسينات وما شابه؟ وإن صح الزعم، فلا وريث ولا وريثة. وهذا يعني أن ذاك الميشيل كان محقا في إنكاره. فان كانت مريم مجرد صورة، وحبها المزعوم مجرد صورة، وكل الأحداث والتجارب، وحبل مشكوك في أمره، إذن فميشيل أيضا صورة، وبحثي عبثي بلا طائل. لكن مهلا، لا أحد يعزز ما كتبت إلا جميلة. جميلة فقط. أين جميلة؟

وحملت الأوراق وأغلقت الدار ورجعت إلى القدس أبحث عنها، أبحث عن أصل للصورة.

obeikandl.com

عهد قديم

obeikandl.com

21

قبل مكاشفة الست جميلة بحقيقة نواياي كان لا بد من دراسة وافية لنفسيتها وخلفيتها ومواطن الضعف والقوة في شخصيتها، حتى أعرف فيما إذا كانت من النوع الصعب المتعصب، شديد المراس، أم لينة هينة يسهل التعامل معها وإقناعها بأن الأمر كان مجرد غلطة وضربة قدر ودنيا عجيبة فيها من الغرائب وقصص الناس ما تعجز عنه حكايات الكتّاب وألسنة السوء. ورغم أن الحال الآن ما عاد كما كان في الخمسينات والستينات إلا أن الست جميلة في هذا العمر والخلفية، ما زالت تنتمي لجيل الماضي ومخلفات قرن النكبة.

لكن الست جميلة فاجأتني، وأثبتت بطلان القول وتوقعاتي. الست جميلة عملت منذ صباها في مستشفى القديس الياس، ورأت من الويلات والنكبات والتناقضات ما جعلها واسعة كمرج حمام لا تعجب من أمر ولا تستغرب جنحة. كانت مسؤولة عن التموين والمخازن، وواجهت في وظيفتها تلك صعوبات ومغريات لا أول لها ولا آخر. فكم تلقت من وعود وإغراءات مقابل أن تغض النظر عما يجري من فوق وتحت. من فوق، حيث الإدارة والمحاسبة والأوراق وأعداد الشوالات ومواصفات الحبوب والمأكولات وتواريخ الإنتاج والانتهاء. ومن تحت، حيث السرقات الصغيرة للشراشف والصابون وصحون وملاعق وفوط النساء وحفاضات الأطفال وسكر وشاي. سرقات كبيرة، وسرقات صغيرة تقابلها بصمود صامت، وبدون

obeikandl.com

فضائح وتهويشات، ترد المسروق إلى مكانه. كانت متدينة في الأصل، لكن أحداث الدنيا ونفوس الناس جعلتها تتمسك بمبادئ هي من الدين، ثم مع الأيام صارت تقوم مقام الدين. وصارت ترمز بإشعال الشمع للعذراء أو للشيطان بما يقوم به فلان في سبيل الخير، وما تقوم به فلانة في طريق الشر. والخير والشر يتلخصان في السرقة والأمانة وحفظ الأسرار. كانت صموتة، قليلة الكلام، وقليلة الابتسام، ولا تضحك لنكات الجو. وربما كان لطفولتها الفضل في تجهم قسماتها بشكل دائم، إذ أنها تيتمت منذ الطفولة، وعاشت في الدير مع الأيتام، وتزوجت من رجل مريض أورثها من الهمّ والأعباء ما زاد من تجهمها الصامت ولجوئها الأبدي إلى الكنيسة، وبالتالي التشدد في أمور الصدق والكذب وحفظ الأمانة والأسرار. ومات الزوج بعد سنوات معاناة لا ترحم، وحين مات تحررت من عبء جسيم كان يثقل على روحها ويهد جسمها ويحرمها النوم. وذاك الإحساس بالتحرر أصاب ضميرها بجرح غامض لم تستطع تفسيره أو تحديد ملامحه ومعانيه. كانت قد خدمت الرجل بكل قواها وحملته على ظهرها كما حمل المسيح صليبه، ولم تئن، ولم تتذمر، ولم تطلب مساعدة أحد، كما أنها لم تهمل عملها في المستشفى والدفاع حتى آخر رمق عن صلاحية وفعالية وأعداد كل ما كان تحت يديها، ورغم ذلك حين مات أصيبت بتأنيب الضمير لأنها ارتاحت وأحست بنعمة التنفس بحرية. باتت تستيقظ صبحا وتجد نفسها حرة من الجدول المعتاد لمواعيد الدواء، وصور الأشعة والوقوف في طابور صيدلية الجمعية، وتبرعات الدم وما شابه، وتنام ليلا فلا تستيقظ على صوت السعال وأنين الحمى ونوبات الألم. أحست بالراحة والحرية فلم تغفر لنفسها ما أحست به، واعتبرت ذاك الشعور بمثابة كفر وتمرد على

إرادة الله واختباراته. فازدادت تشددا بالتزام الصدق والأمانة وحفظ الأسرار. وهكذا باتت ملجأ الموظفين والموظفات، وعشرات المرضى والمنكوبين، والهاربين من الاعتقال والمختبئين في المخازن حتى طلوع النهار أو نزول الليل وتسهيل الأمور. ثم انضمَّت إلى قائمة المتضررين من تعديات المستوطنين حين اقتحم شابان أميركيان بطاقيتين وسوالف الطابق العلوي من دارها بحجة أنهما ينفذان وعدا مقطوعا لشعب مختار أراد الله تمليكه أرض فلسطين. وبما أن الست جميلة ليست ضمن قائمة المختارين، فقد سقط حقها في الملكية ودخلت محاكم وقضايا لها أول وليس لها آخر، وظلت قضيتها معلقة بدون حل أو انفراج، فازدادت غضبا وقنوطا، وبات وجهها المتجهم أصلا أكثر تجهما، وباتت لا تحكي إلا إذا سئلت، ولا تبتسم إلا إذا سخرت، ولا تطلب مساعدة إلا إذا استعصى عليها القيام بما يطلب منها وتنفيذ الأمر بيديها.

بهذه الخلفية والنفسية ما كان من السهل اجتذاب الست جميلة للحديث عن مريم أو ابن مريم، والاستفادة مما لديها من معلومات. ولهذا كان لا بد من الدخول من منافذ خلفية حتى لا تشك وتستغلق، وكانت الحجة هي معاينة الدار في طرف الزقاق بعد معاينتي لدار أقاربها في القرية. والحقيقة أن المعاينة بدأت بدار ثم بدارين ثم بعشرة. في البداية كنت أحس بالذنب، لأني آخذ من وقتها وأتعبها في سبيل مشروع وهمي أستخدمه كطعم لاجتذاب السمكة. لكن مع الوقت بدأت أرتاح لصحبتها وأحس أنها هي أيضا تتسلى وتستمتع بما نفعل، خاصة وأني كنت أدعوها إثر كل جولة لأحد المطاعم أو الفنادق، فنأكل ونشرب ونتسلى بمراقبة السياح. لم نكن نتحدث كثيرا، وإذا تحدثنا فلكي ننقد

ونقارن بين هذه الدار وتلك. ومع الوقت وتكرر جولاتنا وجلوسنا في الفنادق والمطاعم بدأت تتبسط في الحديث وتخرج من قوقعتها وتعلق تعليقات ساخرة ذكية وتسأل أسئلة خبيثة ذات أبعاد. وفي يوم ما، وكنا نجلس في مطعم فندق الأقواس السبعة ونرى القدس تحتنا لوحة بنورامية أبدية الجمال وأمامنا أطباق المازة وزجاجة نبيذ، قالت بانسجام وابتسام خفيف: " قل لي المظبوط، انت شو بدك؟" وحدقت بي بعينيها الصغيرتين المكرمشتين المغروزتين في وجهها السمين الطيب، وهي ترسم ابتسامة نصف ساخرة، نصف خبيثة، نصف طيبة، لكنها في كل الأحوال تستدعي الثقة. تلعثمت ودرت بعيني وتشاغلت بالنظر إلى المنظر الجميل، وقلت مداورا وأنا أحاول إبعاد نظرها عني: "أنا بدي القدس." ابتسمت بسخرية أكثر، وقالت بأسى: " ومين ما بده؟ بس المظبوط، احك المظبوط." وشربت من الكأس وأكلت جبنة بطرف السكين، وقالت بثقة : "بإمكانك تحكي وتتبحبح." وضربت صدرها بيدها، وهمست بصدق: "بير الأسرار، احك شو بدك."

ولم أجد بدا من مصارحتها بكل ما لدي وكامل القصة من أولها إلى آخرها، وكيف أن الله وفقني في جميع الأمور إلا الزواج والذرية، وإني الآن بلا صاحب، وبلا قريب ولا محبة... والقلب كئيب يا أختاه، القلب كئيب، والعمر يمر، وما عدت أقدر على اختراق دروب الحب. لكن الحب هو المحور، هو طعم الحياة، هو الدنيا. وضميري مثقل وشكوكي تملأ رأسي. لو لم أعرف أنه ابني، لو لم أشك، لو لم أرجع وأرى الدنيا وهذا المنظر. هذا المنظر وهذه السماء وتلك القبة، ونسيم الصبح وجرس القداس ورائح المسك والقرنفل، ماذا أفعل؟ وأنا أمشي

في عتم الزقاق أحس طفولتي ترتد إلي، ثم شبابي وذكرى مريم. وأنا أمشي وأشم البخور وأسمع نغمات قديمة تصدح في السوق، وأرى وجوها مألوفة رغم الغربة وسلاح الجند، أحس بروحي تسحبني لفضاء حميم، وقلبي يرتعش من اللهفة وبوادر حب. ما عدت أحس وأتجاوب، قلبي صدّى، إحساسي مات، خضت المذابح والأهوال، وألفت الغربة والمنفى وصرت قمامة، لكني هنا أشعر بالأنس وأحس بقلبي يتحرك، وأبكي وأشتاق وأتذكر. هل تذكرني؟ هل تعرفني بعد هذا الفراق وهذا العمر؟ هل تتجاوب؟

نظرت جميلة في وجهي، وكانت مثلي تحت تأثير النبيذ وجمال القدس وانفتاح القلب على همه، وقالت همسا: "شيء غريب! كنت أفكر، يعني خطر لي، بدك أشياء من المخزن!" أي مخزن؟ حملقت بدهشة واستغراب، وقد صدمني تعليقها البعيد كل البعد عن التعاطف والإشفاق، أو حتى الإدانة والتوبيخ. ولاحظت بحزن أني في واد وهي في آخر. أنا في اتجاه، وهي في آخر. أنا أحكي عن مريم والماضي ونغمة مسحوبة من الذكرى وحنين القلب، وهي تفكر بالأرز والسكر وفوط الأطفال! وبعد لحظات، ونحن نحملق في كأسينا ونحاول استيعاب ما سمعناه، قالت همسا: " يعني مريم؟ كله لمريم؟!" سألت بدهشة: " أهناك أهم من مريم؟"لم تجبني وظلت تحملق وتعد النوى وحب الزيتون، فعدت أقول بصوت جريح برحه الشوق: "أهناك أهم من مريم؟"

قالت بجفاف واقتضاب غريب: "طبعا، أكيد، سجين هارب بحاجة لملجأ."

*****

وحكت لي جميلة عن مريم. كان زوجها ما زال حيا حين لجأت إليهما هربا من القرية وأخوتها وكلام الناس، فأسكناها في الدار الفوقا، وظلت هناك حتى ولدت. في البداية لم يأخذا منها أجرا رغم أن الدار كانت تدر عليهما دخلا لا بأس به، خصوصا في المواسم والأعياد حين تمتلئ الفنادق والأوتيلات بما هب ودب من الحجاج والسياح. لكن الأم ظهرت فجأة وبدأت تزور ابنتها وتزودها ببعض الدولارات. ثم اشتغلت في أستوديو تصوير لدى الأرمن وبدأت تدفع أجرا منتظما فاستقر الوضع. وحين ولدت، عملت النسوة على تدبير شهادة ميلاد للطفل. الأم دفعت، والابنة غضت النظر، وجميلة دبرت الأمر في المستشفى ووضعت اسمها واسم زوجها مكان الأبوين. الكثيرون كانوا يعرفون أن الزوجين لا ينجبان، وأن الشهادة مزورة، وأن الطفل لقيط مجهول الأصل، إلا أن هاجس النسوة كان المستقبل وحقوق الطفل والهوية. وهذا ما كان، الزوج مات وترك اسمه والطفل عاش وحمل اسمه.

- واسمي أنا؟

هتفت بحزن. نظرت إلي تلك النظرة، فكرعت الكأس.

- واسم مريم؟!

لم تجبني.

- وأين الاثنان؟

- بعد سنتين، ذهبت لزيارة بيروت وحين عدت لم أجدها، انشقت

الأرض وبلعتها.

- وماذا عن الطفل؟
- اختفى معها.
- وهل تركت شيئا أو أي اثر؟
- لم تأخذ شيئا على الإطلاق. العفش بقي على حاله وكل الأغراض والملابس. وحين يئست من عودتها لملمت الأغراض ووضعتها في السقيفة.
- وهل بلغت؟
- بلغت الأم.
- وماذا عن الشرطة ورجال الأمن؟

حدجتني ثانية بتلك النظرة، وقالت بسخرية مرة:

تقصد الجيش؟

لم أجبها، لكني واصلت البحث، بل بدأته، وهذه المرة في الدار الفوقا المحتلة، رغم الشابين، وبحذر شديد وبرنامج لخطوات البحث.

22

كان لا بد من توخي الحيطة والحذر حتى لا ننكشف أو نضبط أثناء التسلل والتفتيش، فقد كان الشابان قد استصدرا أمرا بامتلاك المكان. كيف ولماذا وبأي شرع أو قانون؟ هذا ما عجزت الست جميلة على إيجاد تفسير له. فما تفسير أن يأتي شابان من نيويورك ويقطنا دار امرأة رغما عنها، ويستصدرا

obeikandl.com

أمرا بامتلاك الدار رغم القوشان بحوزتها وعليه ختم عثماني ثم بريطاني ثم أردني! وكم ذاقت الأمرين من ذاك الحكم وتلك الجيرة. "جيران السوء،" كانت تقول، ووسخ ومشاكل وتهديدات. وحين حاولت أن تناقشهما وتحكي بالمنطق ولغة العقل كان الجواب هو التهديد ووسخ ينصب على الجارة من فوق لتحت. قشور موز وفواكه، وعلب سردين وحجارة، ولولا الحذر والتحدي لهاجرت كما هاجر الألوف إلى المهجر أو اختفت في ظروف غامضة وجرائم تقيد ضد مجهول. أهذا إذن هو طرف الخيط؟ لا بد من البحث حتى أعرف.

لكن البحث هنا أصعب من أي مكان. ولهذا توجب علينا أن نتسلل أثناء غياب الغريبين ونبحث في الدار الفوقا قبل مجيئهما واكتشاف الأمر. ثم اتفقنا على خطة، هي تجلس تحت أمام المدخل تراقب الزاروب والشارع ويدها على الجرس لتنبهني، وأنا أبحث.

ولم يمر اليوم الأول على خير، إذ أنني ما كدت أطأ عتبة الباب حتى سمعت جرس الإنذار يزعق بدوي، فنزلت الأدراج بسرعة حتى لا أصطدم بالغريبين، وإذا بها تصعد لملاقاتي وهي تبتسم وتتأسف، وقالت بخجل: "العتب على النظر، من الخوف واللهفة تراءوا لي." وهزت يدها عدة مرات: " ارجع، ارجع." فرجعت إلى الباب أعالجه حتى فتحته ودخلت الدار.

الدار فسيحة وجميلة، وزجاج ملون في الشبابيك وأقواس ومصاطب

عريضة، ترى منها نخيل الأقصى والقبة الذهبية وبيوت الناس. بيوت متلاصقة حجرية وفتحات إنارة ومشربيات وعرائش معلقة على الأسطح. وأمامي مباشرة غسيل الجيران وستارة لتحجب أهل الدار عن الأغراب. أطلت امرأة ونظرت نحوي بنظرة عدائية مكشوفة، وحين رأتني نظرت أسفل ورأت جميلة على العتبة، ففهمت وابتسمت وناديتها: " يا ست جميلة، ضايع لك شيء؟" فرفعت جميلة رأسها، وقالت بجفاء ساخر : "كل شيء ضايع." نفضت المرأة قميصا آخر وهي تعلقه، وقالت بمرح : "يا ست جميلة ولا يهمك، بكره تلاقيه." ورشقتني بنظرة أليفة وابتسمت بمحاباة واستحسان، وعادت تكرر جملتها: "بكره تلاقيه."

وبدأت البحث. الصالة فسيحة كدور زمان وحولها تصطف الغرف. غرفة لهذا، وغرفة لذاك، وغرفة أخرى فيها صناديق وكمبيوتر، وعلى الجدران صور بالأبيض والأسود وبوسترات تمثل رجالا متجهمين بلحى وسوالف وطواق ورسومات فيها قبضات حديدية وبنادق ونجوم ومشاعل. أما الأثاث فما زال كما وصفته جميلة بالتفصيل. أسِرَّة، وخزائن في غرف النوم، وطقم كنبات في الصالة بخشب الزيتون المصدّف وزجاج الخليل. أما الصناديق والكمبيوتر، فهي شيء جديد. وشيء جديد هو الرائحة، رائحة زفر، ورائحة زيوت وفانيلا وملابس قذرة وجرابات. خليط عجيب لا تعرف كيف تصنفه أو تشمه، فلا هو كريه فيفقدك الوعي، ولا هو مريح فتعتاده. شيء غريب، جو غريب لوجود غريب، كما لو كنت في مقهى قديم في هرتسيليا أو ديزنجوف. رائحة حلوة وفيها زنخ! ثم الصناديق، كتب وسلاح ومنشورات، أي

أبعد ما تكون عن مريم. وفي زوايا العفش والخزائن، لا شيء يدل على أثرها أو اثر الطفل، لكن العفش هو جميلة، صورة منها، وتفصيل الدار هو جميلة وأبو جميلة وجد جميلة. دار رحبة صدرها واسع فيها شبابيك قبلية وزجاج عتيق. ومددت رأسي من الشباك، وناديت جميلة بصوت خفيض فلم تسمع، فتبرعت الجارة ذات المنشر وحبال الغسيل ونادت: "يا ست جميلة، ردي عليه." رفعت جميلة رأسها ولوت كفها، وقالت شيئا لم يصل إلي، فتبرعت الجارة وقالت لي "فتش صناديق السقيفة." وابتسمت لي.

وعدت إلى البحث. وجدت السلم خلف الباب، فحملته وصعدت عليه إلى السقيفة، وهناك وجدت عدة صناديق. أشعلت اللمبة الخفيضة، وفتحت نافذة التهوئة من أجل النور وبعض النسمات، وبدأت بفتح أول صندوق. أول صندوق حاجات الطفل، لكن العث والعفونة أكلا ما أكلا من أشكال. فهذا قميص مثل الغربال، وذاك جاكيت مخرم وحرام مهلهل أكله العث. ثلاثون سنة، خمس وثلاثين، تبلي الحديد والسيارات وإسفلت الطريق، فما بالك إذن بحاجيات الطفل؟ وهل ظل الطفل على حاله؟ أضحى رجلا! لكن الآن عم أبحث؟ أبحث عن أثر وهوية، شهادة ميلاد، شهادة إثبات أن الرجل هو طفلي أنا، وهو وإن حمل اسم الآخر، فهو وريثي وامتداد الغصن من الشجرة. ثم المرأة، هي من أحبّت، أو ذكراها، وخفايا ما كانت في الواقع لا ما فكرت.

أبحث، أبحث، هنا وهناك، في هذا الوعاء أو في الصندوق، ثم صندوق، ثم صندوق، وما من أوراق. والوقت يمر، وصياح الجارة في

المنشر: "وَلَه يا إسماعيل، أوعى توقع." وأنا مخنوق من الرائحة وضغط المكان والحرارة ونفثات العث. أخيرا وجدت في قاع صندوق آخر دفتر نوتات، دفتر تذكير وروزنامة، فيه أسماء الأشهر وعدد الأيام وكل يوم له صفحة. بدأت بالصفحة الأولى، وفيها قرأت: زجاجة حليب، نيدو، سيريلاك، بودرة وكريم وكيلو تفاح. في اليوم التالي قبضة دولارات، ٢٠٠ دولار، ثم إسفنجات للمطبخ وبيض وجبنة. ثم زهورات لمغص الطفل وخبز وزيتون.

ثم ابتدأت بتعليقات هنا وهناك، في جمل قصيرة بين الحاجات والمشتريات.

أحس بدوار من الدنيا. الضغط يفجر لي رأسي. قلبي مقبوض. الطفل يستنزف أعصابي. أكاد اختنق من الوحدة. اشتركت في مكتبة قريبة. آخذ دروسا في العربية، ويقول الأستاذ إني الأشطر. يقول الأستاذ إن من يكتب بلغة ما يكتب بكل لغات الأرض.

أقلب صفحات وتعليقات، ثم صفحات مملوءة بدون تواريخ، أو بالأحرى، سال التاريخ على بعضه كخيوط الزيت. يوم يدخل في مساحة يوم فيتمدد، تفيض المساحات على الأيام وعلى التاريخ. إحدى الصفحات وما يليها:

في يوم ما سيبحث عن الطفل ولا يجده. هل أكرهه؟ يقولون الأمومة كالمعجزة، حب خالص، حنان خالص، تفان وتضحية وامتنان. أنا لا أشعر إلا بالضيق والتمرد. أريد أن أهرب من قلبي. لماذا ارتبط أنا وحدي؟ وهذا الطفل، هذا الإحساس يوجعني، يستعبدني، ويزيد

الضغط على رأسي. قلبي مقبوض. أنا وحيدة.

نقطة، فراغ، عدة أسطر بدون كلمات ثم بداية لمزاج جديد.

عند الأرمن أجد نفسي. بالأمس كان عيد الميلاد. تركت الولد عند جميلة وسهرت هناك. سهرت شربت رقصت ودخت وحين صحوت كنت وحيدة. تذكرت الطفل وبدأت البكاء. التمُّوا علي. ما بك مريم؟ عيشي حياتك. أنت صغيرة. أنت جميلة. لا شيء يهم. ابنك بخير، بكرة يكبر ويصبح رجلا، الابن سند. لا شيء يبقى على حاله إلا الأمومة وصلة الدم. الأمومة؟ يصبح رجلا؟ وماذا عني؟ ماذا أريد؟ ماذا أحس؟ ماذا أفعل؟ أرقص؟ أكتب؟ أم أرعى الطفل؟ أقترض الكتب، أعيد الكتب، وأبحث عن عمل ووظيفة. ماذا أريد؟ ماذا افعل؟

قوائم أخرى للمقبوضات والمشتريات. وصفحات مليئة برصد الطفل:

يضحك، يلعب، يحبو، يمشي وأنا أعبده. هو حياتي. قالت فرتوك، هايك يحبك، فضحكت وقلت أنا لا أحب إلا نفسي وحليب الطفل. هذا الجميل، هذا المعبود كم يؤلمني. يؤلمني الحب. الحب ألم. أمي تقول، مهما قسونا على الأبناء نرجع ونحنّ، نعود ونغفر. أمي غفرت، هل يغفر لي رب السموات؟ الخالة تقول شيئا آخر، تقول الحب هو روح الله، وروح الله هي الراحة. أن نهب النفس لروح الله هي الراحة. سأزور الخالة يوم الأحد.

صياح الجارة ينبهني: "يا الله يا جماعة شو هالتأخير!" لكن الجمل تناديني. نقطة وفراغ ومقبوضات ثم سفر، وجمل قصيرة مبتورة:

زرت الناصرة يوم الأحد. وضعت الولد في حضانة الدير. استعرت كتابا ومراجع. اشتريت حوائج وتذكرة سفر.

وفراغ، فراغ حتى النهاية وآخر صفحة. أبحث ثانية وثالثة عن شيء جديد. أين الورقة؟ شهادة ميلاده أو اسمه؟ ما هو اسمه؟ لم تذكر اسمه ولا مرة. وكذلك جميلة لم تذكره، وأنا نسيت أن أسأل. سأنزل وأسألها، سأتذكر. قلبي حزين. قلبي مقبوض. أدخل في الجو وأحس بها. مريم تملأني، أحس بها. قلبي يعود إلى شبابه، وإحساس حزين كوتر حساس. ينسل الوتر إلى الداخل، يحفر قلبي. قلبي يئن كما العاشق. بعد الستين؟!! أيعود القلب إلى شبابه بعد الستين؟!

أبحث، أبحث، وارتفعت أكوام المنبوشات ثم الصناديق وحرارة اللمبة المنخفضة وحريق الصيف. وزعق الجرس بدوي فظيع وسمعت الجارة تناديني كما لو كانت تنادي ابنا يلعب: "وَلَه يا إسماعيل انزل من فوق. وَلَه يا إسماعيل، يا الله استعجل، أوعى توقع." والجرس يرن، وأنا الهث. أعيد الأشياء إلى الصناديق. "وَلَه يا إسماعيل، يا الله استعجل. أوعى توقع." لكني وقعت، من خوفي وقعت عن السلم، بضع درجات، لكني قمت، وجررت قدمي المفكوشة، والجرس يرن. أغلقت الباب، وهبطت الدرج وأنا أعرج، أو أترنح. وحين وصلت دار جميلة، أسلمت الروح.

*****

انهرت تماما على العشاء، وقلت لها إني السبب، وأنا الضّائع لا ما ضيعت. لكن جميلة تصدت لي، وقالت بأسى: "بل أنا السبب، ولولا عنادي وعقلي اليابس لبقيت مريم، ولكان لي وريث يرث قوشان الدار ويريحني. فحين أموت من يرث الدار؟ من يرث الفوقا والتحتا؟ من يرث قضايا المحاكم ويلاحقها؟ من يخرجهم؟" وقفت اللقمة في حلقي وأنا أسمع. الآن يصير لابن مريم أكثر من راج يتمناه ويفتش عنه وينتظره! الآن أنافس جميلة على وارثها! لكن جميلة تعترف لي – كما اعترفت لها – أنها السبب. سبب ماذا؟ ولماذا الأسى والصوت الحزين؟

قالت: "اسمع، أنا دقة قديمة وتربيتي لا تتحمل سهر الليالي لبنت بنوت. ذهبت للأرمن في كريسماس وبقيت للصبح. وكان زوجي قد فارق منذ أسابيع ولبست الحداد. تركت الولد وذهبت تسهر، والولد يصيح يريد أمه، وأنا حزينة، وقلبي مجروح وضميري ما زال يئن. كنت أحس أني قصرت مع الرجل، لكني سعيدة بتحريري من أعبائه. صدق بالله يا إبراهيم، أن الرجل كان ملاكا. رغم الآلام لا يتذمر، ولا يقول إلا شكرا، تسلم إيدك، ويعطيك العافية يا ست الكل، انت حياتي. أنا ست الكل!! أنا حياته! ما قال لي أحد آخر إني حياته أو ست الكل، ولهذا أحسست بخوف فظيع مما أحسست. رجل ملاك قدّرني رغم عقمي. لم أنجب له ولدا أو بنتا أو فأرة، ولم أكن ست الحلوات، ولا ست الكل، بل يتيمة مكسورة القلب بوجه كئيب نسي الضحكة. أنا لا أضحك. الكل يقول حين تنفرج أساريري: "طلعت الشمس." لكن

خليل كان سعيدا، ويشعرني أني حلوة وأني عظيمة وأميرة. رفع قدري، أنعش قلبي، وملأ دنياي بالبهجة وبحس الأمان حتى مرضه، وحين مرض لازمني الخوف. عدت يتيمة بقلب مكسور، خفت من الدنيا ومن مرضه ومن آلامه، وصور الأشعة وسحب الدم والكيماوي، شيء مرعب، فنسيت الفرح وركبني الغم. وحين مات كنت قد استويت من التعذيب ومن عذابه. أخذت إجازة، ونمت حتى ارتاح. نمت أياما وليال، وحين استيقظت وفتحت شباك المطبخ ورأيت الشمس وشممت رائحة الدنيا وقوار الفل أحسست أني أتنفس لأول مرة منذ سنوات، وأن الشمس حلوة سعيدة، ونسيم الصبح مثل السكر. وأحسست بروحي تكاد تطير، وأنا أطير وأتنفس. ورفعت رأسي، وقلت لفوق: شكرا يا رب، شكرا، شكرا، ثم انتبهت لإحساسي. ماذا أقول؟ أشكر الرب على أخذه؟ كان ملاكا، كان كريما وبقلب كبير. أما أنا فقزمة حقيرة، أنا دودة أرض.

وذهبت إلى الخوري واعترفت ثم تناولت. قال الخوري لا بأس علي. هذا طبيعي. عيشي حياتك. ارفعي رأسك. انت عظيمة. الرب أعطى والرب أخذ. الرب أراد. عيشي حياتك. لكن الرب أراد لي ألا أنعم بالحرية. إذ بدأت مريم تشغلني، تترك الطفل وتغيب وتغيب، والطفل يصيح، وأنا احتار في أمره. أحمله يصيح، أُرضعه يصيح، أغلي بابونج وزهورات، لكن، طبعا، الولد يصيح، يريد أمه. وأنا بالطبع لست أمه، أمه على الورق، لكن صدق، أنا لا أحلف، ذاك الولد كان حياتي، أو أجمل شيء في حياتي. لو ترى عينيه! لو ترى خديه! كان سمينا مثل البطة، وله غمزات في ظهر يديه. أمسك يديه وأبوس أصابعه الحلوة،

فينظر بعيون كالنرجس ونوار اللوز. آه ما أحلاه! آه يا إبراهيم لو رأيته، أنا ما أحببت أحدا مثله. أكثر من ابني، صدقني. لكن، بعدين، عقلي اليابس. اشرب، اشرب. هات القنينة وافتحها وعبي لي الكاس. مالك؟ تعبان؟ رجلك بخير، فكشة بسيطة، بكرة الصبح رح تنساها. إيش كنا نقول؟

قلت همسا: كان الولد مثل البطة، وله غمزات في ظهر يديه، وعيون مفتحة كالنرجس ونوار اللوز. آه يا إبراهيم!

وكرعت الكأس وشربت مثلي ثم سكتنا وغبنا في الصمت. ونظرت إليها بعد حين ورأيت الدمع في عينيها. فمددت يدي أربت يدها، فشدت كفي، وقالت بأسى: " أنا السبب، أنا لم أفهم. لولا عنادي وتربيتي وعقلي اليابس لبقيت مريم وظل لي أحد في الدار. أترى داري؟ دوما فارغة وكئيبة، ولولا الجيران لمتُّ من الوحدة والوحشة. لكن مريم. آه يا مريم! أنا السبب. كنت صغيرة، وتربية راهبات ومكبوتة. أنا لم أفهم. الآن أفهم وأتندم، بل منذ سنين، وبعد الأحزان والتجارب وما مر بنا، ثم الوحدة، أقصد أنا، أفهم مريم. كنت أعاتبها وأولول: ولد مثله مثل الزهرة لا تتركيه ولا لحظة، أنا أتعجب كيف يطاوعك قلب الأم! هل أنت أمٌّ أمْ ماذا؟ وكانت تبكي، تحتضن الطفل وتبكي وتبكي، وهو يبكي. وفيما بعد فهمت الوضع، وقلت لنفسي: إن كنت أنا أشعر بالخوف، إن كنت أنا أحتاج الدفء، إن كنت أنا استثقلت العبء، إن كنت أنا رغم جمودي ووجهي الناشف أشتاق إليه وإلى حضنه، فلماذا أستكثر عليها ما تشعر به؟! أتعرف شيئا؟ أحيانا نضيق بمن نحب،

ونسقط العبء لنتنفس. هل تفهمني؟

هززت رأسي، وتنهدت:

- طبعا أفهم.

واصلت بتأمل واستغراق:

- وفيما بعد نندم ونملّ. هل تفهمني؟

- طبعا أفهم.

- ثم الثمن وحدة فظيعة، برد وصقيع. هل ترى بيتي؟ بيت فارغ بارد قاحل، ولولا وجودك لكنت الآن في عز النوم. لو ظل خليل نفسا في الدار! لو ظل خليل على مرضه، لو ظلت هي، لو ظل الطفل، لما كنت الآن مقطوعة. لكن الآن لا أحد لدي، مثلي مثلك في الهمّ سواء، لكن عدني، احلف بالله وبكل عزيز، احلف، احلف.

قلت بدهشة:

- لماذا أحلف؟

- احلف بالله وعاهدني ألا تنسى. إن وجدت الولد، ابني وابنك، هذا القوشان من نصيبه. أوعى تنسى. خذ القوشان واحفظه لديك، فبيتي مكشوف غير آمن، وإن وجدت ميشيل... أنت تعرف!

همست براحة، وقد برد قلبي واستسلمت:

- تقولين ميشيل؟! طبعا، طبعا، هات القوشان.

*****

في الصباح واصلت البحث. الجارة فوق، تنشر الغسيل أو تتناشر، وجميلة تحت، ترصد الشارع والزاروب، وأنا صعدت، رغم قدمي،

وواصلت البحث.

قبل صعودي، قالت بوجل: " قلبي يدق. لو ضبطونا! أوعى يطخوك!" قلت بأنفة: "أنا لا أخاف، أنا قد الحمل." لكني في الواقع كنت أخاف. يملأني الخوف فلديهم سلاح وأنا أعزل، ولديهم قضاة ومحاكم، ولديهم جيش وحكومة، أما أنا، أما جميلة، أنا في الستين، هي في السبعين، وأنا أعرج. أحس أني حصان سبق انتهى وقته، والشوط طويل، والسبق طويل، وأنا أعرج. لو كنت شابا رشيقا، لو كان قلبي قويا، لو كنت صغيرا مشحونا أومن بشيْ أو آمل. لكن لا بأس، ماذا نخسر؟ لن أخسر شيئا لم أكسبه. وأنا وحدي من غير أهل، من غير وريث، من غير ابن وحبيبة، ماذا أملك؟ إن ما كسبت فلن أخسر. وصعدت ثانية للدار، ونزلت جميلة إلى المدخل.

*****

ذاك الصندوق ماذا يحوي؟ صور وصليب وأيقونات تحت مجلات، ثم إنجيل جديد لم يفتح بعد، ما زال ملفوفا بالسلوفان وبجانبه كرت معايدة في ظرفه. فتحت المظروف ورأيت الكرت. لونه أبيض وعليه أوراق المرجان ودم المسيح، وصليب يحمله ملاك صغير على ظهره. وفي الأسفل، كلمات قليلة بخط كبير وحبر باهت.

" في روح الله نجد الراحة. " خالتك المحبة الأخت اوجني. الناصرة في ٢٦-١٢-١٩٦٩.

إذن اختفت عند الخالة، الأخت اوجني، حيث المنتجع ودار المسنين وأم مريم. وتذكرت الصورة للخالة، وكرسي العجلات خلفه مريم، أو بجواره. الأم هناك عند الخالة، والبنت هناك عند الخالة، ومثل الخالة، مثل الراهبات. وارتحت لفكرة أن تكون مريم مع الراهبات وتعيش بطهر مثل الراهبات. دير الأرمن وسهر الليالي وكريسماس ملأوني بغيظ لم أفهمه. تركت الطفل يبكي للصبح! تركت الطفل عند جميلة وذهبت تسهر، تسهر وتسكر، وجميلة تعاتبها وتقول: كيف يطاوعك قلب الأم! وأنا أقول: كيف تتركه وتتركني! لكني أعرف أن هذا القول محض جنون، لكن إحساسي وتربيتي، أنا مثل جميلة، بل أكثر. أنا إبراهيم. ولهذا أحسست بالراحة لفكرة أن تكون مثل الراهبات والأخت اوجني. لكن فرضا، إن كانت هناك، وكانت قد اعتادت عيشتها هل ترضى بي وتعود إليّ؟ اهدأ، اهدأ، لا تتعجل، خطوة خطوة، فعساك تجد. لكن ماذا؟ ماذا حدث؟ لم أبدأ بعد! صوت الجرس، والجارة تصيح: "وَلَه يا إسماعيل، انزل، انزل، يا الله استعجل، أوعى توقع." والجرس يرن. والجارة تصيح. وأنا ملخوم. وقدمي الموجوعة وأعصابي، وأنا أعرج. ارتطم بكرسي وشماعة. صوت خطوات. أقفل الباب وأرى جميلة في وسط الدرج أقرب إلي من المدخل، والجارة تؤشر بيديها، وتصيح بذعر: "رح تاكل قتلة نصها موت، وَلَه يا إسماعيل!!"

وبكل ثقلها ولهاث السن صعدت درجات أخرى، وهي تلهث: "ارجع، ارجع، اطلع لفوق عند الأنتين." وصعدت الدرج نحو الأنتين، وأنا أصعد، أعرج وأئن، وحلاوة الروح، وقلبي المسكين، لا لن أهبط، لا ليس الآن، اصعد، اصعد، ووصلنا السطح. وحين وصلناه

وقفت تلهث. ونظرت أنا من فوق لتحت حيث كانت، ورأيت طواق ورشاشات وحقائب قماش وسوالف. ورأيت الجارة خلف الغسيل تنظر برعب وقد جمدت. وحين دخلا وانغلق الباب، نزلنا بتلصص من يسرق!

ودخلنا الدار بدون جلبة وأغلقنا الباب. وجلست جميلة على الصوفا بدون كلمة. وبقينا سكوتا بلا حركة كما لو كنا ما زلنا نقوم بفعل التلصص على أهل الدار. هم أهل الدار، ونحن الجيران!

23

صباح جميل وناصرة الجليل تتربع فوق القمة وناقوس القلب. أجيء إليك يا قبلتنا بحثا عن حب كان لنا وعبق الماضي وعودا أخضر. خلفت ورائي المسافات شاسعة تغفو في الظل لأرى نورك، وأغرف من شمسك وحنينك، وأعود صبيا ممهورا عمَّده الشرق.

قالوا مريم كانت هناك في ذاك الدير، والدير ملاصق لجمعية ومخيمات الصيفية للشبيبة وقوى الأجسام. والأم في منتجع للعجزة تابع للدير والجمعية، ومريم هناك، ثم تلاشت، وعادت وظهرت ثانية مع الاستعداد للموسم والصيف الجديد.

وبدأت البحث عن مريم. أين مريم؟ مريم ذهبت. أين ذهبت؟ ذهبت للد. أين ذهبت؟ ذهبت لرأس الناقورة. أين ذهبت؟ ذهبت للحج مع

obeikandi.com

الحجاج للقيامة وجبل الزيتون. وأبحث عنها في كل الجليل؟ وعلى الساحل من رأس الناقورة وحتى النقب. أو أقول لك؟ أنتظرها هناك عند العجوز في كل مساء، فقد تجيء مع بدء الصيف.

ودخلت الدير، ثم المبنى، حيث المشفى وبيت العجزة وامتداد يطل على الساحة والمخيم وحرش اللزاب.

وأرى العجزة، هنا وهناك، ثم الأطباء بالأبيض، وكذا الراهبات، ومكان فسيح كالمسبح، بلاطه يلمع، وخيالي تحتي كالمرآة.

وسألت راهبة الاستقبال، فقالت: من أنت؟ قلت برجاء، أنا قريب جاء من القدس. ابتسمت لي، وقالت: أهلا، أهلا بالأهل، أنت ببيتك، كيف الأحوال؟ قلت الطريق كانت صعبة والرحلة بعيدة رغم القرب، وكان علي أن أتنقل من باص لباص حتى أصلكم، والمحطات ما أكثرها، وكلها مرصوفة بالأغراب. شعرت هناك أني في الغرب. شممت رائحة الغربة، أحسست أني في نيويورك، وخفت كثيرا من التفتيش والعملية. عملية جديدة في حيفا، وقد مررت بأعجوبة. رأيت الشرطة ونقط الجيش تبحث وتفتش عن عربي. لكن، يمكن، بسبب شكلي.... ونظرت إلي مستطلعة، فأردفت بخجل، وكذا عمري، لكن هنا... والتفت حوالي، وأنا أرى كراسي العجلات والنقالات وامرأة تمشي على عكاز، ورجلا مسنا يتطوح، يمشي زحفا وأرى خياله تحت قدميه ويكاد يقع، فقلت بحزن، وكذا عمري. قالت همسا: لا تتشاءم، هنا الأعمار تتجدد. قلت بحيرة: في هذا المكان؟! قالت: انظر، عبر

obeikandi.com

الزجاج تحت الشرفة ماذا ترى؟ قلت: مخيم. قالت: صحيح، هنا العجزة وهناك الشباب، أفهمت الآن؟ طبعا فهمت، لكن الصوت، ما هذا الصوت؟

وخرجت إلى الشرفة أتفرج. ورأيت القيامة تكاد تقوم. أفواج الشبيبة في مجموعات يبنون السلاسل والحبلات، يرصفون الطرق، يدهنون الحديد، يحفرون الأرض يحملون القفف ودلاء الدهان. كان العمل في أوله، والإرشادات تنتقل عبر السماعات. هذه ضجة. ما هذا الضجيج؟ أهذا صحي؟ قالت: في الغرف صمت مطبق وهدوء تام، سترى بنفسك. وقد رأيت، إذ حين وصلت إلى الغرفة ورأيت الأم في مقعدها تغرق في الصمت، عرفت الفرق. عبر الزجاج كان مخيم للشبيبة وفي الغرفة أم صماء لا تتحرك.

قال الطبيب، ليست صماء، في غيبوبة، أو بالأحرى، في عالمها. أحيانا تفيق وتتفاعل، وتسأل عن مريم والأولاد، وتذكر أشياء لا نذكرها، وتحكي وتهرف ما شاء لها الخرف في هذا العمر. في هذا العمر... هذا طبيعي. ونظر إلي يتأملني، فقلت بخوف: أعرف، أعرف. وجلست على طرف الكرسي أتأملها. كانت على كرسي العجلات بلا نظارة، ورأسها مكشوف بشعر خفيف أبيض كالليف، وعروق يديها كالديدان. شيء مخيف، في هذا العمر كيف نصير، مثل النبات وجذوع الشجر! لكن الخوف ليس من الشكل، بل الغفوة، والغيبوبة، وتلف في الوعي وخلايا الدماغ.

هربت من رائحة الموت إلى الشرفة، فتبعني الطبيب وبدأ يسأل، ماذا عن القدس؟ أين وصلتم؟ كيف الأوضاع؟ ماذا تعمل؟ هل أنت قريب؟ كيف الطريق؟ والعملية؟ وهل ضايقوك؟ ألديك أحد هنا في الجليل تنزل عنده؟ وأشار علي بنزل صغير خلف المبنى لا يخضع لرقابة أو تفتيش، وقال: أراك بعد المغرب في المخيم، ففي المساء رقص وغناء وموسيقى. واتفقنا.

لكن الخالة أين هي؟ تلك الخالة... عبر بوابة مندلبوم وما أثاره ذكرها في ذاك الوقت من إشكالات وتعليقات. أذكر تماما ما قلناه وعلقناه وعايشناه. قلنا أشياء لن أنساها وأراها الآن مثل النكتة. قالت: "جنة،" وأقول الآن، فعلا جنة، أهناك جنان في الدنيا مثل الكرمل وعيون الجليل؟ مررت بها وأنا محني خوفا من شرطي يناديني ويقول لي أين التصريح؟ لكن الخوف لم يمنعني، ولا الطريق والعملية. أين الخالة؟

ونقرت الباب بوجل وحذر، فسمعت صوتا قويا يقول: "ادخل،" فدخلت بخوف، رِجل للأمام ورِجل للخلف. ورأيت راهبة طويلة في مثل طولي أو أطول. كانت ما زالت مشدودة رغم الكبر وخطوط السن. والأخرى كانت بنظارة وإطار ضخم، لكن عينيها شاسعتان ونظر حازم. قالت: من أنت، والاسم الكريم وما طلبك؟ قلت الضفة وجبال القدس وحنين القلب إلى القبلة. أنا من ضيعت أحلامي وحبي الكبير والمستقبل. أنا من جاب بقاع الأرض بحثا عن هدف وقضية. أنا من حمل اسم جده وصفات أبيه وما وجد ابنا يرضاه أو يرث اسمه. كانت غلطة، وأنا نادم، هل يرضى يسوع أن أتعذب

وأظل متهما أبديا لا أجد قاض ينصفني ويزيل الحكم؟ إن كان يسوع يرضى بهذا، إذن ما الفرق؟ وأظل أدور الدوائر بحثا عن ماض كان هنا، وامرأة حلوة كانت لي، وابنا لا يعرف سر أبيه؟ ابني ضائع وأمه مريم، وأنا هنا أبحث عن خيط، فدليني.

نظرت للأرض وهي تفكر. هل يرضى يسوع أم لا يرضى؟ هل يغفر لي أم لا يغفر؟ هل ينقذ عاص من ذنبه؟ خفت من الحكم، فجلست على طرف الكرسي ومددت نظري عبر الزجاج إلى الشرفة. وسمعت الشباب بصوت واحد، وهم يهزجون بأغنية كنت اسمعها في روما فيغمرني الحنين وأمل بائس. أغنية صغيرة في الكاسيت، وأنا أسوق عبر الطرقات الجبلية، وأرى الشجر وتفتيح اللوز وظلال الأرز والصنوبر وعبيرا يمتد من المغرب حتى الساحل وضفاف النهر. كانت فيروز تغني للبحر، ومراكبنا تعبر فينا رمل الغربة وامتداد الرحيل. في ذاك الوقت، من ذاك البعد، ما كان رجوعي إلى الجنة إلا حلما، وأملا بلقاء عايشته، ثم تناثر عبر الفلوات وتناثرنا.

وغنى الشباب والسماعات تهدر في الجو، فدمعت عيناي. رأت دمعاتي فاقتربت ومدت يدها وأخذت بيدي، وفتحت الباب إلى الشرفة، وقالت: هنا كانت مريم. قد تأتي اليوم، غدا، بعد غد، أنا لا أعرف، لكن حتما ستجدها هنا إن أنت صبرت، فالأم هنا، وأنا هنا، ودير ما زالت تنزل فيه. في هذا المساء يحتفل الشباب بصب الإسمنت. قد تجيء اليوم، فالمدعوون من كل الجليل ومن الضفة. قد تجدها هنا أو عند الأم، أسألت الأم؟ قلت، صماء! قالت، نوبة، أحيانا تغيب عن

الدنيا وتصبح تمثالا حجريا، وفي اليوم التالي تستيقظ وتحكي بثبات ووعي كامل. جرب، حاول.

قلت: غفرت؟ ابتسمت لي، وقالت بعتاب: أنا من تغفر؟! ثم اخترقتني بعينيها، وقالت همسا: وهل تغفر أنت؟ ومدت يدها تستودعني، فلثمت اليد، وقلت الجنة مهما ابتعدت ستظل هنا، عند الخالة. وحكيت لها ما رددناه في ذاك الوقت، فقالت بسماح: مجرد أسماء، كلها أسماء، لكن الجنة هي الجنة!
وفتحتُ الباب.

24

كان النزل في شارع خلفي لا يبتعد إلا مسافة دقيقتين عن سور الدير. مدخله يشبه مدخل منزل كبير لعائلة كبيرة، وحديقته الصغيرة لا توحي بأي طابع تجاري أو سياحي يذكر. وتفصيل المكان من الخارج لا يختلف كثيرا عن تفصيل أي بيت في شارع سكني هادئ.

قطعت الممر القصير الصغير وقرعت الجرس، فخرج إلي نادل مبتسم، وحمل أمتعتي بدون سؤال ودون جواب، ووقف معي أمام الكاونتر، وكان صغيرا في طرف صالة بيت كبير بلا رسميات ولا إعلانات ولا ضجة، فقلت مخاطبا رجل التسجيل: لا أحمل الإذن ولا التصريح. أنزل نظارته على أنفه وهو يسجل رقم الغرفة، وقال بألفة: وهل سألتك؟ أعرف من أنت. وصلني الخبر. كان الطبيب هنا من

obeikandl.com

لحظة. تشرب قهوة أو عصير برتقال؟ أهلا بالأهل. أنت في بيتك.

وجلس معي في بار صغير نشرب بيرة ونحكي عن الوضع والمستقبل. وخلال ساعة كنت أعرفه وأعرف قصته مع نزله. فالنزل يعود إلى عمه، وعمه هاجر مع النكبة، أي منذ إقامة إسرائيل، فاستولت الدولة على البناء وأصبح ممتلكا حكوميا تؤجره وتخليه حسب القانون، وهو استأجره من الدولة، حسب القانون، وأقام فيه نزلا للأهل وبعض الحجاج في المواسم. وبسبب قربه من سور الدير، فمعظم النزلاء من شاكلتي، وبلا تصريح. وكل من جاءوا من القدس أو الضفة، على مر السنين ومنذ النكسة، نزلوا عنده.

سألت بلهفة:

- منذ النكسة؟!

- منذ النكسة.

وابتسم لي ولمس شاربه الأشيب، وقال مازحا:

- مش باين علي؟

ابتسمت بدوري، وقلت بحزن:

- طبعا باين، معقول ما يبان؟ خلص، كبرنا!

رفع كأسه، وقال صاخبا وبصوت جهور:

- ومالك خايف؟ قوّي قلبك، إحنا لسّه شباب!

شباب؟ شباب! ما به هذا؟ ما بهم هم؟ لماذا أراهم مثل العصافير؟! يحبون الرقص ويعشقون الغناء ولا يدعون مناسبة تمر بلا زفة وسهر وشرب ومواويل! أليسوا منا؟ ألم يحلّ بهم ما حل بنا؟ ألم تضربهم

أعاصير الجو؟ ألم تتكسر مراكبهم على صخر البعد؟

فتل شاربه الأشيب، وقال بثقة:

- إن شاب القلب انتهى أجلك. اضحك وفرفش وخليك سلطان. يا سيدي، عمري من عمرك، صح والا لأ؟ لكن أنا، أوعى تقل لي ابن الستين وابن السبعين، أنا قلبي شباب، وعمري شباب، وكل يوم لي قصة وحكاية. وهذا الأوتيل، سميه أوتيل، يا ما استقبل بنات حلوات مثل الحبق وعيون دباحة وضرب سيوف. وأقول لك سر؟ أوعى تصدق أن الزمن بيهد الحيل. أبدا، أبدا، النفسية يا مولانا، واللي في راسك هوه اللي يصير. ما فيه واحدة إلا عشقتها، حلوة مرة كله واحد، المهم القلب ما يظل فاضي. المهم القلب وشباب القلب، صح والا لأ؟

نظرت إليه بطرف عيني، وقلت بحيره:

- يمكن مظبوط!

قال بحماس:

- والدنيا حلوة للحلوين، بس المرين بستين داهية. تشرب كمان؟ هات يا يوسف قزازة جديدة من الفريزر. حطيتها هناك للأوضة فوق، بس القريب أولى من البعيد. هذا اللي فوق زبون أحمر، يعني من الروس. ممثل فنان الله أعلم، بس المسكين قالوا له تعال عيش حياتك في بلاد العسل. وبدل المسكين ما ياكل عسل احزر شو أكل؟

رفعت عيني وتأملته، فلكزني في كتفي وقهقه بحماس.

- بصل، بصل، وحياتك بصل.

لم أتفاعل وظللت صامتا خوفا من أن ينطلق في الحديث الممل عن الدولة والإجراءات وهموم الجليل. همنا يكفينا ويكفيني، همك مريم!

وعاد يلكزني في كتفي:
– تعرف خيّا؟ يهود السوفييت طلعوا أوسخ من يهود الغرب. أنا عارف ليش؟ كيف تفسر؟ يعني الأحمر بنسى الأحمر لما يشوف قرش؟ هيك السوفييت؟ إذن بالله ليش لخمونا وقالوا لنا لينين، وقالوا ستالين والذي منّه؟ بلا حكي فاضي. بدك المظبوط أنا عمري ما صدقت إلا عيوني. كلام الكتب بعيد عنك للدراويش، أما اللي داروا في الدنيا وشافوا العالم وخبايا الناس ما تمر عليهم هيك حواديث. أحكيلك شيء؟ أنا بعد رجوعي من لبنان بعد الهجرة وكنت لسه صغير، رحت أشتغلت في بيارة قلبوها كيبوتس. تعرف شو كيبوتس؟

هززت رأسي عدة هزات، لكنه صاح:
– لأ، ما بتعرف. فيه كيبوتسات أبيض عالحل، وفيه كيبوتسات أحمر عالحل، وفيه كيبوتسات أبيض وأحمر. وأنا يا سيدي اشتغلت في كيبوتس أحمر عالحل، يعني شيوعي أو اشتراكي أو شو تسميه، زي ما بدك. يعني المهم كانوا أوادم. بس أوعى تقول، هدول أوادم مع بعضيهم، لكن معنا، أوعى تصدق. بس المظبوط كنت آخذ معاشي عالليرة، وعمرهم ما قرطوا ولا مليم، وصاروا ينادوني لناديهم، ويقولوا تعال تثقف معنا، أنت عامل ولازم تشوف كيف العمال. إحنا عمال ونادي عمال وكل اللي نقوله ونعيده عشان العمال. قلنا طيب، معقول كثير، هذا المطلوب. وصرت يا سيدي أخَلِّص شغلي وأروح هناك أسمع ندوات ومحاضرات وتفسير نشرات والذي منّه. شهر وشهرين أو ست شهور وذاب الثلج وطلع المدفون. قالوا لي بيوم، يا الله يا نهاق، اركب أتومبيل الرهّاص وادخل من هون. ادخل على فين؟ قال: مش مهم، أنت بس

ادخل. أدخل من فين؟ فيه سور وسياج وأرض الجيران والفلاحين وبكره يقوموا وينزلوا فينا! قالوا: "عرافيم." سمعتها بأذني مع أن اللي قالها كان يوشوش. بس أنا سمعت. قال: بس ادخل، ادحل أتومبيل الرهّاص فوق الحديد وسياج الشوك. والله ودحلت. كنت لسه صغير وراجع جديد ومتهرب وخايف يرموني عند عميع حدود لبنان. والله ودخلت. أنا دخلت من هون وعينك ما تشوف، ما بعرف كيف ومنين طلعوا، وإذا بالحجار مثل الأنهار من فوق وتحت ويمين وشمال وأنا مش عارف أتخبا فين. واحد وراي كان قبل يومين يقرا من كتاب، ويقول عمال، ويقول توزيع، ويقول فقرا، صار يناديني بصوته العالي: يا لله يا نهاق، يا الله تزحزح، امشي لقدام، امشي وادعس. طب كيف أدعس؟ والفلاحين رجال ونسوان وولاد صغار، طب كيف أدعس؟ وهو ينادي: يا الله يا نهاق، امشي وادعس. وقفت في الطريق ونزلت من فوق، وقلت: مش داعس. وعينك ما تشوف، ما بعرف كيف اشتغل الضرب، ورصاص وحديد والسيارات منين طلعوا؟ وشفت بعيني اللي ما ينشاف، بتعرف هالشيء؟

- طبعا بعرف.
- طيب شو تقول؟
- أقول نشرب.

حملق في وجهي بضع لحظات، وقد خرجت عيناه من وجهه وزبد البيرة يحيط بشفتيه وأنا أشرب، وأقول بهمّ: " أما وقعة! كان ناقصني!" وبعد دقيقة، مسح وجهه، ومسح عينيه، ومسح فمه، وصاح بهمه:

- يا الله يا يوسف، وين البيرة؟ بيرة الروسي المقلعط، عمره ما ذاقها،

إحنا أولى. قال إيش خيّا؟ بجيبوا لي الروس من المسكوب وإحنا نطلع! تطلع روحهم، أنا مش طالع. هيك أنا قررت من أولها ومن بعد اللي شفته عند عمي بجنوب لبنان، أنا مش طالع. صرت أداورهم وأداريهم، أشتغل عندهم وآخذ ليرات وأرجع للناصرة بآخر الليل أنفذ خطة. وخطوة خطوة، ويوم ورا يوم، رجّعت الدار، دار عمي جمال، ملك آجار، أنا مش سائل، بس أنا قاعد آكل وأشرب وأُربي ولاد وأتجوز زي ما بدي. المره ماتت تجوزت غيرها، وصار عندي ولاد قد ما بدك. يعني تقول لي شو الحرية؟ أنا أقول لك. يعني الحياة مرة واحدة وإن راحت عمرها ما بترتد. بدهم الأرض؟ صادروا الأرض. بدهم أملاك؟ صادروا الأملاك. لكن الحياة ودقات القلب، لأ، مش ممكن. أنا مش سائل، عامل حالي أعمى وأطرش ومش شايفهم. يعني براسي مش موجودين. يعني بعمل حسب القانون، قانون الغايب والحاضر، قانون مفصل على كيفك. هم يفصلوا وإحنا نلبس. إحنا غايبين؟ وهم غايبين. هيك عقلي بقول، حسب القانون. بعمل حالي مش شايفهم، فاهم شو بقول؟ يعني ضروري أضرب وأقتل وأعمل طوشة؟ لأ، يا سيدي، بكره ولادي وبكره ولادك ياخدوا الصناديق وياخدوا التصويت والكنيست حسب القانون، قانون مفصل على كيفك، فاهم شو بقول؟

وتلفت حواليه، وصاح بضيق:

– وَلَه يا يوسف وين البيره؟ عمره ما ذاقها، عمرهم انشا الله ما طفحوها. قال إيش؟ يا نهاق امشي وادعس. ادعس عالناس؟ قال بالقانون. طيب بدعس، برجع رفيرس وبظل أدهس، بس بالقانون. فاهم شو بقول؟

ابتسمت له، وابتسم لي وعاد يدلق ما في قلبه:

- المهم القلب، صح والا لأ؟ المهم القلب.

ولم أجبه، كنت أفكر ما إذا كانت مقولاته أقرب للصح، وإن كانت صح، أينا أصوب؟

وكرع الكأس وربت كتفي، وقال بألفة وحميمية:

- طب قل لي ليش ما أكون مبسوط؟ لأ أنا مبسوط. غصب عنهم، أنا هيك مبسوط، وشو ما عملوا رح أظل مبسوط. ضرايب وقوانين وكلمة "عرافيم" ما تخوفني. أنا قاعد هون أشرب بيره، وأستقبل ناس زي حكايتك، وأحكي حواديث، وأشوف نسوان على كيف كيفك. أنا لسه شباب.

سألته مازحا حتى أُسرّي عنه وأطرّي الجو:

- أكيد شباب وإلا فياجرا؟

قهقه بضجيج:

- إلا فياجرا، شو بدك أموت؟

واقترب مني وهمس بضحك يغلبه الحزن:

- يعني بهالعمر إيش ضل فينا؟ بيني وبينك أوعى تنفس، بس يعني الحال، أنت أدرى! لكن القلب....

واقترب كثيرا من وجهي، وهو يحملق:

- لكن القلب، المهم القلب وشباب القلب، صح، وإلا لأ؟

طرقت كأسه وأنا أبتسم، وأقول صح، وأكثر من صح. يا الله نسهر.

25

خرجت مساء مع أبو يوسف إلى الاحتفال بصب الإسمنت. تغدينا معا وشربنا معا وفتحنا القلب، ثم تمددت للقيلولة حتى أسهر، لأن السهر ينهك جسمي. وأنا خارج لمحت الروسي بطرف الممر، فابتسم لي ودمدم كلمات لم أفهمها، لكني التقطت كلمة "شالوم" فتجاهلته. أسرعت الخطى نحو الدرج، وهو خلفي. أسرعت، فأسرع ووصلنا معا أمام الكاونتر، وكان أبو يوسف يسلم مفاتيح الغرف وطلبات الليل للنوبتجي. ابتسم لنا وهو ما زال ينهي الأشغال، وسمعت الروسي يردد له نفس الألفاظ، وألحقها بكلمات لم أفهمها. أهي العبرية أم الروسية أم الإيديش؟ ثم تبينت أنه يلفظ كلمات عربية بشكل مكعبل، بحيث تبدو كعجينة ممطوطة ومبعوجة، ولا تعرف إن كان المقصود بها أن تكون رغيفا أم حدوة! لكني فهمت كلمة "خبيبي"، وفهمت طبعا "أبو يوسف"، وفهمت أيضا أن صياح أبو يوسف حين تبادلنا أحاديث القلب على البيرة، و"عمره ما ذاقها،" و "إنشا الله عمرهم ما طفحوها" لا تصل أسماع ذاك الروسي، إما لأن الروسي زبون هام، أو لأن أبو يوسف يحسب حسابات لا أحسبها، أو ربما، وهذا الأغرب، أن أبو يوسف لا يعني ما يقول حين يفضفض. أشرت إليه، فاقترب مني، وهو ما زال خلف الكاونتر، ووشوشته بخوف: "شوف هذا الروسي لاحقني!" ربت كتفي، وقال بسرعة: "جاي معانا." أحسست بسطل ماء بارد يندلق علي، فاربد وجهي وتجهمت والروسي يصفّر مطروبا أمام الزجاج، ويتفرج على المارة والسيارات. وانتابني إحساس مشابه

لما أحسست به عند جميلة وهم يصعدون درج الطابق وأنا مختبيء عند الأنتين أراقبهم، أتلصص عليهم وأرهبهم كما لو كانوا أهل الدار ونحن الجيران! وراودتني نفسي بالرجوع إلى الغرفة ونسيان الحفل، لكن مجيئي لذاك الحفل كان لمريم، ومريم ستكون في ذاك الحفل، وإن لم أذهب، فما نفع الرحلة ونفع البحث؟ إذن أذهب، ولكن وحدي. أي أن أتخلى عن الصحبة ورفقة أبو يوسف وحواديته وأدعه له؟ شيء بايخ! يعني أدع ذاك الدخيل أن يفصلنا؟ لا، لا يمكن. إذن أذهب لكن بشرط ألا يقترب مني خطوة، ولا أراه أو أرى وجهه. لا يحكي معي ولا أحكي معه، وأنسى تماما أنه موجود على وجه الأرض. وهذا ما كان. مشينا معا تلك الأمتار نحو الساحة، أبو يوسف يمشي في الوسط، وأنا من هنا والروسي هناك، ولا كلمة! أبو يوسف يحكي ويمازح، وأنا أسمع، والروسي يسمع ويهز الرأس ولا يدع مناسبة تفوته إلا وابتسم لي وغمز بعينه، أو رسم علامة استفهام. دمدمت لأبو يوسف أتساءل فشد يدي، وقال همسا: "فودكا، فودكا، ما يكون لك فكر، مش فاضي لك."

مش فاضي لي؟ أي أن لديه ما يكفيه. وهذا ما شرحه أبو يوسف بعد السهرة. ومختصر القول أن ايلاي، وهذا اسمه، كان يعمل في مسرح تشيخوف ثم تقاعد، أو بالأحرى، تقاعدت الدولة، فتقاعد، لأن الدولة ما عادت ترعى الفنانين. أفلست الدولة واختلّت وهبط المسرح. هرب الكتّاب إلى الخارج والفنانون والراقصون، وهربت نينا. ونينا حبيبته الحلوة قبل الإفلاس. ترك زوجته وأولاده ولحق بنينا أيام العز، وأيام العز كان الكتّاب في المسرح شيئا هاما، سلطة ووجاهة

وبيت ومعاش، ونينا الراقصة الصغيرة كانت أصغر من أن تدعم، أو أن الدعم كان صغيرا بحجة الموهبة والإنتاج، فوجدت في عز الكاتب ايلاي ما يرضيها رغم الفارق في العمر والفهم والقناعات. وعاشت معه فقل الإنتاج وهبط وزنه، فبدأ يشرب، وأفلست الدولة وذهب العز فزاد الشرب، وأصبح ايلاي في وضع بغيض، فلا هو بالشاب ليرضيها، ولا هو بالغني ليشبعها، ولا هو مدعوم ليعطيها. وكان الرحيل إلى إسرائيل بديلا مطروحا فلحقت بالركب ولحق بها. لكن نينا اندمجت في السوق، لأن السوق بحاجة لشباب ودماء الشباب ورقص وعري في الحانات، أما ايلاي فماذا لديه سوى قلمه؟ وماذا يكتب عن جو يجهله وبأية لغة؟ والدولة الجديدة لا تدعم ولا تتبنى، بل تدعك لشأنك وطلبات السوق، والسوق تقرر ما المطلوب. وبما أن ايلاي ليس سلعة، أو فلنقل سلعة قديمة لا تتناسب مع روح الجو، فقد لجأ إلى نزل صغير بسعر رخيص بانتظار العودة إلى بلده، أي إلى موسكو، لكن موسكو لا ترضى به، فأصبح ايلاي مثلي ومثلك، حسب القانون، أي هو موجود وغير موجود. وشيء آخر يشبهني به، هو جاء يبحث عن نينا، وأنا جئت أبحث عن مريم. لكن ايلاي بوضع أفضل، فمهما كان هو يهودي وأنا مسلم، وهو بتصريح وأنا بدونه، وهو غير ملاحق بشبح الشين بت وقانون دولة إدعس يا نهاق، كما أنه مبسوط بالفودكا، ويحب الأكل والتبولة ورقص الدبكة، ويريد أن يرقص ويفرفش وينسى نينا.

ابتدأ الحفل بالأكل والشرب والمزيكة، ثم الدبكة وشباب يطيرون فوق المسرح على أنغام الشبَّابة وصفَّق الجمهور، ثم فرقة فيها طبلة وعود وقانون، وشاب يشق عنان السماء بمواويله. طرب الجمهور

واهتزت رؤوس، ودمعت أعين وسال العرق مثل الأنهار. وشربت أنا مثل اللقلق، وطفح الروسي حتى تدحرج تحت الأرجل ثم تماسك، وصار يلوح بفوط السفرة حتى يثبت انه مبسوط ومتجاوب ويحب الكيف ويحب العرب، وأبو يوسف يشده من ظهره، ويقول له: "اقعد، اقعد، خليك ساكت." وأنا أراقب سلطنة هذا وتحسب ذاك وأجد الأمر مثيرا للضحك والحزن معا، فهذا مغتاظ ومتوجس، وذاك يرقص من غير حساب. بدأت مراقبتي بالفضول، ثم بالضحك، ثم حسدته، فهو منطلق ولا يأبه بنظراتي ونظرات الناس. ألأنه غريب لا تقيده مفاهيم الجو؟ ألأنه فنان لا يأبه بالعيب والأصول والوجاهة؟ أم لأنه مرّاق طريق في حضارة لا يفهمها ولا يعرفها ولا يأبه حتى أن يعرف؟ لكنه وهو يلوح بفوط السفرة ويميل هنا ويميل هناك ويدلق كاسات العرق على صحون البزر والفستق يلتفت إلينا ويشد يديه إلى صدره ويتضرع : "معليش يا خبيبي... متآسف." ثم يشرب ويطلق صرخات جبارة ويميل ويلوح ويتجشأ ثم يجلس ويغمض عينيه، ويقول بوله وحرقة قلب: "آه يا نينا!" ثم يتكيء على الطاولة ويمسح دمعات مسروقة، وهو يضحك ويشرب ويصيح: "آ يا خبيبي!"

ابتدأ الرقص، وقام الجمهور إلى الساحة، وقام أبو يوسف وتركني وبقيت أنا وذاك الروسي نشرب ونغب مثل الإسفنج حتى دخنا. ارتمى على الطاولة وارتميت أنا وصرنا نبكي، هو يقول آه يا نينا، وأنا أقول آه يا مريم. ثم تلاشيت. نمت على الطاولة بين الأقداح حتى صحوت على بطني، أحسست بأمعائي تتخبط ونفسي تلعي، فهرعت إلى أقرب شجرة، وهناك أفرغت ما يضايقني ثم صحصحت. بدأت

أصحو من السكرة وأعرف من أنا وماذا أفعل. خجلت من نفسي ومن سكري، فمشيت قليلا بين الشجر حتى استرد وعيي وقواي. وجلست على قمة صخرة بين الأشجار ومن هناك تابعت الجو.

رآني أبو يوسف أعتزل الجو، فظن أني تضايقت من رقصه وإهماله لي، أو أني تضايقت من الروسي، فأراد إصلاح ذات البين وتطرية الجو، فصعد إلى المسرح وخطف المذياع وبدأ بتوزيع التحيات على الموجودين ويشير إلي كي أتجاوب: "يعيش الشباب ومجهود الشباب وألفين سلام لعيون الشباب." ، فصاح الجمهور: يعيش، يعيش. وعاد يردد ويشير إلي كي أتجاوب وأرد عليه: " ويعيش المسؤول عن المخيم كابتن اسحق أبو الشباب وحبيب الشباب." وصاح الجمهور: يعيش، يعيش. وصاح ثالثة، وهو ينظر ويشير إلي وإلى نفسه: "ويعيش الشباب وإحنا معاهم قلوبنا شباب. يا الله يا محمود، شد الطبلة ورقصنا معك على وحده ونص." وامتلأت الساحة بالراقصين، وأبو يوسف يرقص كالفيل ويتطلع إلي ويشير إلي، وأنا ما زلت أترنح وأتحسس بطني وأتجشأ. ثم اقترب من الميكروفون، وقال لاهثا وبصوت أجش: " ولازم كمان نحيي الضيف من الضفة من ريحة القدس، أخونا إبراهيم، تع يا إبراهيم." فانطلقت صيحات الجمهور، وهم ينظرون إلى جهتي ويرددون : يعيش إبراهيم. وبدأت الموسيقى تعزف، والطبلة ترن، والمغني يغني، والناس يردون: طلوا احبابنا طلوا، نسم يا هوا بلادي. وأمسك أبو يوسف بالميكروفون وقد زاده الرقص انفعالا وجمودي وما كان يعلم أن الجمود بسبب السكر والتقيؤ وحيلي المهدود: تع يا إبراهيم! تعال سلم على أهل الدار. وانطلق الجمهور بحماس شديد: عاوزين

إبراهيم، عاوزين إبراهيم. ورأيت الروسي يقف ويصيح، وهو يلوح بفوط السفرة، "وآنا خبيبي!" فشده أحدهم من ظهره وهو يزجره: "اقعد حيلك خلينا نشوف." لكن الروسي لم يقعد إذ اعترض طريقي وأنا أحاول الوصول إلى المسرح بين الطاولات وحشود الناس، وقال ضارعا وهو يلوح: "وأنا خبيبي!" فشده آخر من ظهره، وقال: "اقعد، خلينا نشوف." لكنه استقتل وشد بي، وهو يصيح في شبه بكاء: "أنا خبيبي." فصاح أحدهم بغضب وعجب: "ماله هذا؟ كان ناقصنا؟! مين اللي جابه للحفلة؟ اقعد، اقعد، خلينا نشوف." وسمعته يرتطم بالكرسي ويدلق أقداح العرق على البزر والفستق ويقول بخوف: "آنا متآسف" ثم يشهق، وينوح بلوعة وحرقة قلب: "آه يا نينا!" فشعرت بحزن لا أفهمه.

لكن الحزن تبخر هناك على المسرح، وأنا محاط بعيون الحب. أحسست بقلبي يكاد يذوب. أحسست بروحي تكاد تطير. أحسست أني في الجنة مع أهل الدار. أهؤلاء هم الجنة؟ أهؤلاء هم أهل الدار؟ شباب وكهول وصبايا، وأنا معهم أنسى مريم، بل أذكرها لأني أرى مريم فيهم. بل أراها هناك على الكرسي وطاولة الوسط تراقبني وتقول لي ما كانت تقول: "يا الله فرجيني خيالاتك! أنت مجنون!"، وأنا أقول :"شايف عنزة مثل الغولة لكن أنت أحلى من الغول." وأبو يوسف يلكزني، ويقول لي: "يا الله احك. يا الله تحرك." وفتحت فمي لكي أقول يا أهل الدار، يا حباب القلب، يا خيالنا وروحنا وأساميا، لكني سمعت الروسي يصيح: "آه يا نينا"، وآخر يزجره: "اقعد واسكت خلينا نشوف." وخيال مريم يهوج يموج، ورأسي والجمع وأمعائي، وأنا

ارتجف من الانفعال والخجل الفظيع من الميكروفون وعيون الناس. وقلت كلمات لا معنى لها، قلت بثأثأة مرتبكة ودموعي تسيل: "مش عارف أحكي، سامحوني ..." وانهمرت دموعي فتلعثمت، ووقفت الكلمات في حلقي وانبح صوتي، فتنحنحت، وسكت الجمهور ودمعت أعين، فلكزني أبو يوسف في كتفي، وهمس في أذني يساعدني: "حيي الشباب، حيي الكابتن." فتمالكت نفسي وتطلعت نحو الشباب في الصف الأمامي مباشرة، صبايا وشباب مثل الحبق وقلوب الخس، وهم يتطلعون إلى وجهي بعيون باسمة وحزينة. أهي البسمة؟ أهي الدمعة؟ أم هو الشوق ما حركني ولكزة ابو يوسف في ظهري، إذ وجدت نفسي أصرخ بحماس، من صميم القلب: "يحيا الشباب، ويعيش الشباب، وكابتن اسحق، وإحنا معاهم" ، فصاحوا جميعا كما لو كانوا يستيقظون من الدهشة وانفعال عميق: يعيش، يعيش. همس أبو يوسف في أذني: "وشباب القلب، يا الله، تحرك." فانزاح الخجل وصحت بسرعة وبلا تفكير: "وشباب القلب، يالله تحرك." فصاحوا بحماس، وهم يضحكون: يا الله تحرك. فهمس أبو يوسف في أذني: أما أهبل! هذا العرق والا الفودكا؟

وفي ذاك الجو، ومن خلال الهتاف والضحك والدموع والتعليقات، صاح الروسي: آه يا نينا! فصاحوا جميعا من خلفه: اقعد واسكت، كان ناقصنا؟!!

واشتعلت السهرة من جديد، وارتفع صوت السماعات والزغاريد حتى وصلت قمم الجبال وأعالي الشجر، والناصرة عليت.

26

دخلت مريم فصاح ايلاي، "آه يا نينا!" والتفت إلي، لأني أنا صحت "مريم!" وارتميت بجانبه على الكرسي. لكن نينا لم تلتفت لا لي ولا له، بدأت ترقص. كانت برفقة حيفاوي يعمل مأمورا في المينا، ويهرِّب ويسكي وشوكولاتة. كانت مريم، تشبه مريم في العشرينات، لكنها ليست مريم، لأن مريم مثلي الآن في الستينات، وهذه المرأة ما زالت ابنة ثلاثين وشعرها أشقر. لكن الطول، والوجه، والخصر، وعيون خضراء على عسلي! كانت تلبس تنورة شيفون وتحتها لا شيء، مجرد خيطان، خيط هنا وخيط هناك يستر ما بقي من العورة. لكن العورة ما زالت في كل مكان. أما ايلاي فبدأ يشخر، وأنا مذهول أراقبها بفم مفتوح.

مر بنا كابتن اسحق، ورآنا بشحوب الموتى، فهرع إلينا، وبدأ يسأل، وأنا أقول: "لا شيء، لا شيء،" وايلاي يهذي ويتمتم: "نينا، نينا،" ويرطن كلمات روسية على عبرية على عربية ثم يقهقه مثل المجنون.

واشتعل الرقص. كانوا يغنون الدلعونا والميجنا، ثم انقلبوا وانقلب لسان عريف الحفل وبدأ يرطن، كلمة عربي، كلمة عبراني على روسي، ثم الحبشة! والطبلة ترن ساعة بلدي، وساعة فرنجي، وساعة إيقاع إفريقي وعلى وحدة ونص. ومريم أمامي تتلوى، ساعة بالشال، وساعة بلا شال، وساعة تفرقع بأصابعها مثل الأسبان،

وساعة بصاجات مصرية. ونزل أبو يوسف للساحة، وبدأ يراودها عن نفسه بحركات فجة عربية، ويدبك كالدب، فيتزلزل اسمنت الأرض. ضحك الجمهور، وضحك المأمور الحيفاوي، وتخلى لأبو يوسف عن الساحة، وأخذ يصفق، ومريم تدور بالشال والشيفون والشعر الحرير، وأنا مذهول أراقبها بفم مفتوح.

وارتمى أبو يوسف بجواري وهو يلهث، لكن ايلاي لم يتحرك، وبقي يشرب ويراقبها ويهز الرأس. وهمس أبو يوسف، وهو يضحك:

- بنت الحرام ما بتشبع رقص!

والتفت إلي لأتجاوب، فوجدني جامدا من غير حراك. مد يده وأخذ كأسي وشفط جرعة ومسح عرقه، وهو يلهث ويضحك على نفسه من نفسه. رآني ما زلت أراقبها، وأنا مشدوه، فدفع كتفي بطرف كتفه، وقال بتلغيز:

- شو عاجبتك؟

ولما لم أجبه قال محذرا:

- أوعى تغطس، من بعيد لبعيد.

التفت إليه لأستفهم، فاتبع قوله وهو يغمزني على جاري:

- شايف حاله؟ مثل الشمعة.

ثم دغرني كي أتجاوب:

- وانت مالك؟ دايخ سكران، وإلا بتتذكر أيامك وأيام الشباب؟

ابتسمت بحزن ولم انطق، فدغرني ثانية، وقال بعجب:

- بنت الحرام شو بتشبهها! تشبه مريم قبل القصة وقبل ما تحبل

وتتبهدل.
التفت إليه وفتحت عيني، وسألت بلهفة:
- مريم؟ مريم! أية مريم؟

لوح بيده والأخرى امتدت إلى كأسي وغب جرعة أبقاها في فمه يتلمظها، وأنا ما زلت أنتظره. رآني أحملق في وجهه، وهو ما زال يراقبها، وهي تتلوى في الساحة تحت الأضواء، وعيون الناس، فخفض عينيه وتأملني من عليائه، وقال همسا:
- مريم أيوب، ما بتعرفها؟

لم أعلق، لأني ما عدت أتنفس، وقفت أنفاسي في صدري، وقلبي الضعيف انتفض بعنف وغرقت في عرق بارد، أخذ يتدحرج في ظهري كحبات الرز ونسيم الجليل، ينخر جلدي ويحيل العرق إلى صفحات جليدية. تذكرت يوما أخذتني فيه إلى رام الله والأوتيل الكبير، حيث تجتمع العائلات من كبار القوم والمغتربين. أنفاس الغرب ونسيم الشرق وضوء الغروب من بين الإبر الذهبية وارتفاع الصنوبر فوق غيم الصيف. ساحة ترابية تجللها ظلال اللزاب، وغمام داكن يترنح فوق الممر والقرطاسيا عند المدخل، ثم حشايا من الكريتون بألوان القرفة والنعنع فوق الكراسي الخشبية، وقش مجدول، وزجاج الخليل يلمع في الضوء وحباب البرد حول البيرة، وأغنيات انريكو ماسياس تموج مع الظل ونسيم الغرب من بين الشجر، وأكتاف الناس المندمجين في عالمهم قبل حزيران. كان المغرب ثم المساء حين دخلنا ساحة مسورة مسحورة، فيها أكشاك حجرية وعيون تلمع في الظلمة، وفرقة صغيرة

obeikandi.com

ومغن شاب، وأنا وهي نرقص تانجو ونميل ببطء وتماوج، وهي تدندن مع ذاك الصوت واللحن القديم وأنغام الفرقة الصغيرة تعزف للحب. بدأت أردد كلمات اللحن المعروفة وأؤكد لها أني معها، وأني لها، وأني سأظل لها ذكرى وامتداد خيال. فشرقت بالدمع وهي تردد تلك الكلمات حين الزهرة تذبل وتموت، لأن الأيدي تتنازعها، تتخاطفها، تنهش فيها، فيذوي الجمال ويموت السحر في أحلى جفون.

ونظرت إليها أراقبها وأقارنها وأنعف ما بقي من الذكرى وحنان القلب، ووجدت امرأة تشبهها ترقص في الضوء على وحده ونص، لكن الوحدة مكسورة والهز ركيك. أينك مريم؟ أين جمالك؟ أين عيونك؟ أين الأجواء المسحورة من ريح الغرب تعبر فينا وتنادينا، وقصص تندلع من الذكرى وعشق الرهبان المنسيين عبر الأقبية المدفونة تحت الأنقاض؟ حنانك يا رب! أنا إن برئت من ذاك الحب، فلن ابرأ من دم الابن وعذاب الروح المسفوحة على أرض الوعد.

وفي الطريق إلى الفندق صارحت الرجل بأحزاني، فالتفت إلي، وقال بدهشة: "إذن هو أنت؟ أما حكاية! أما تاريخ!" ثم تذكر ووقف أمامي وأمسك كتفي، وقال بلهفة:

- تتذكر يا خوي ونينا ترقص؟ تتذكر راهبة في البلكون بأعلى طابق في المستشفى؟ راهبة واقفة في الباب هناك.
- لا أتذكر.
- راهبة في الباب!
- لا أتذكر.

- بأعلى طابق في المستشفى، راهبة بالأسود واقفة هناك؟
- لا أتذكر.
- في المستشفى تحت الكشاف ونينا ترقص؟
- كانت ترقص وأنا سكران ومش صاحي.
- يا ابن الناس، كانت مريم!

وبدأت أعود بذاكرتي كي أتذكر، في ذاك الليل، من ذاك البعد وارتفاع البناء فوق أحراش الصنوبر وضجيج المكان، من بين النغمة المشروخة وطبول الرقص فوق صاجات مصرية، وهزّ ركيك لامرأة شقراء تشاغلني، جاءت من موسكو تشاغلني، تسحب عيني من رأسي وتثير لواعج مدفونة من ذاك الوهم، من ذاك الحلم، من ذاك الجدب المتمترس ظهرت مريم، لكن عيوني المنشغلة بالجسد الشاب تحت الأضواء، وغلالة شيفون، والشعر الأشقر، والذكرى، ونزيف القلب ظهرت مريم، ذهبت مريم، عبرت، ولّت، أغلقت الباب.

27

بعد يومين سافرنا معا. أنا إلى القدس لأجد مريم، وايلاي إلى القدس ليتفرج، وأبو يوسف إلى القدس ليتبرك. اتصلنا بالدير، فقيل لنا جاءت مريم لتزور الأم ثم عادت لدير المسكوب حيث اعتكفت. وعلى الفور قرر ايلاي وأبو يوسف مرافقتي بهدف الفرجة والتعرف. ايلاي ليرى دير المسكوب – أو ما نسميه الجسمانية – وأبو يوسف ليصلي في الحرم لأول مرة منذ حزيران، وأنا أبحث عن أم الابن. أنا لا أشك

أني برئت من حب الأم، وأن ما بقي هو الذكرى وحنين القلب، لكن الابن والمستقبل وخلاصة عمري وأحزاني وضياع الروح والمستقبل! ماذا أفعل من غير وريث؟ ماذا أفعل في هذا الدرب المتعرج من غير أنيس؟ أمشي وحدي؟ سئمت الوحدة. أبحث عن سلوى في السلطة أم في الأموال أم في كتبي؟ كل ما كان له معنى فقد المعنى، تمخض عن عبث وأكاذيب. وكأن كل ما صدقناه وآمنا به وتوسلناه أضحى سرابا يا زمن النحس! وهذا الولد يهب روحه لسراب جديد! يضيع حياته في دروب القحط، ويتعلق بخيوط الوهم؟! ألا يكفي جيل قبلي وجيلي أنا والمستقبل! يا أرض النحس؟!

ونظرت إليه وشعرت بحزن. مسكين ايلاي، فهو مثلي لا يجد امرأة ترضى به. هجر زوجته وأولاده ومسرح تشيخوف ولحق بنينا، ونينا هجرته لمن يدفع ويُهرِّب ويسكي وشوكلاتة. وبقي ايلاي في هذا العمر سجين الوحشة، بلا أهل ولا ناس ولا حضن بلاد تتبناه. فماذا يكتب؟ وبأي قلم؟ ولمن والناس هنا غابة! عاش الماضي أيام العز حين تجلت عظمة موسكو، وعاش الكتّاب حلم الثورة وتحرير الشعوب واكتشاف القمر. وقبل القمر كانت أقمار، ونجوم وشموس ومجرات، وكان الأدب أصدق تاريخ للبشرية من تولستوي حتى جوركي، ثم تزحزح قطب الأقطاب وانهار الدب. وها هو الآن يبحث عن مأوى لأحلامه، فاكتشف النقب ثم ديمونة ومذابح صبرا وشاتيلا ومهزلة الخليل. أمن المعقول أن هذه الممسوخ سليل اينشتاين وماركس وايما جولدمان؟! أمن المعقول أنه هو، وما فطر عليه من الطيبة، يأكل غيره؟ كان يفكر، كان يحلق، كان يحلم، ثم أين هبط؟ أمن أجل امرأة تافهة

لا شيء لديها إلا الرقص، وحلم ساذج بنجوم السينما وكاليفورنيا، وكازينو تتعرى فيه البنات إلا من الريش بلاس فيجاس، وهي الملكة تخرج للناس من سقف مضاء بالكشافات، ونجوم صغيرة منثورة كحبات الماس حول أرجوحة حريرية وشلال النور، وشاشة مضاءة في الخلفية لغابات نخيل وزنوج قرود وثعابين وعرب بعمائم وقرابين وهي الملكة، وهي بلقيس، وهو سليمان يغني الأوبرا، وهي ترقص والكاميرا تدور حول سترايساند، مثل توتسي، مثل عمالقة الشاشة والشوكلاتة، وقمم المكياج والسي إن إن، وحيل السينما حين ينقلب الأسد إلى ضفدع، ومن الضفدع يخرج إنسان. ذاك هو المجد، حلم الأحلام بكاليفورنيا، ومن نيويورك حتى ديمونة. وإن كان الحلم بكاليفورنيا غير مؤهل، غير مضمون، فهنا الأمور أحلى وأسهل، لأن العرب مثل القرود في إفريقيا، ورقصات السود وصياح الهنود في معركة ينتصر الأبيض على الأسود وعلى الأحمر وكل الألوان. وهي بيضاء مثل الشمعة، مثل سنو وايت، مثل سترايساند.

وهز برأسه، والتفت إلي، وقال بحسرة:

- شايف؟ معقول؟ مين يصدق!

ورأينا امرأة فلاحة تحمل مجرفة تهوي بها على أرض الصخر، وهناك في الأفق على الهضبة خلف السياج وخزان الماء جرافة حديثة تتلألأ بلون أصفر يزهو في الشمس، وفوق الجرافة مستوطن بالبرنيطة يخوض الكروم نحو الحافة وبيوت النمل.

ووقف السائق ليملأ بنزين السيارة ويشرب كولا، وجلسنا نحن تحت

المظلة نتهوّى ونشرب بيرة. وجاء الجرسون، وهو عربي من القرية، وحكى كلمات عبرية ثم العربية لأبو يوسف، أما أنا فشكلي الممزوج لم يوح له أني عربي. من أنت إذن يا إبراهيم؟ شكلك ممزوج، صوتك ممزوج، لونك ممزوج مع أن غلاف الوثيقة أحمر كالدم!
قال ايلاي، وهو يتأمل قمم الجبال وشجر الزيتون:
- بلدكم حلوة، يا خسارة!

لأول مرة أسمع مثل هذا الكلام من يهودي! بلدنا نحن؟ بلدي أنا؟ بلد أبو يوسف والجرسون؟

توقفت يد الجرسون عن المسح، ونظر إلينا بطرف عينه، ثم استعاد نظراته فوق الفورمايكا والأكواب، وحين انتهى قال بحياد: "بسيدر أدوني؟ بيبا كاشا." ومشى بتلكؤ خلف الظل حتى يسمع.

قال ايلاي،
- ما اسم المرأة؟
قلت همسا:
- مريم أيوب!
ابتسم لي وهز برأسه، وكأن لسان حاله يقول: "حالي من حالك يا صاحب!" فهدر أبو يوسف بصوت ضخم:
- مريم أيوب كانت أحلى. أحلى من نينا بألف مرة!
سأل ايلاي:
- مريم أحلى؟

obeikandl.com

- هوهو، شو تقول؟ ولا فيه نسبة! أحلى من نينا بألف مرة. صح، والا لأ؟

والتفت إلي، وأنا ساهم الطرف:

- صح، والا لأ؟

تمتمت: "صح." والتفت بعيدا كي أُبعد عن ذاك الحديث إذ ما الثمرة؟ ما نفع الكلام! ما نفع الشكوى لمن يشكو ظلم الأحباب! لكن أبو يوسف لم يسكت، وأخذ يحكي ما هب ودب. ساعة مريم، وساعة نينا، وساعة دولة ادعس يا نهاق.

ووقفت سيارة فولكسفاجن فيها مستوطن بطاقية وامرأة بقمطة وثوب طويل وطفلة شقراء مثل اللعبة. جلسوا في الظل قبالتنا وطلبوا شيئا. وجاء الجرسون ووقف يسمع والرجل يحكي ويؤشر على الطاولة والفورمايكا ويشير هنا ويشير هناك والشاب يقول: "بسيدر أدوني، بسيدر، بسيدر،" ثم انطلق وعاد بفوطة وأخذ يمسح، والرجل يقول بعصبية وصوت حانق: "امسح، امسح، كمان وكمان." وخلع النظارة عن أنفه وبدأ يمسحها ويتلفت ويراقبنا بعيون جاحظة لا تطرف.

ضحك ايلاي، وعلق بخبث:

- خايف منا!

قال أبو يوسف بغيظ مكبوت:

- لأ، مني أنا ومن الجرسون.

سأل ايلاي:

- ومن إبراهيم؟!

obeikandi.com

تلكأ لحظة، ثم نظر إلي يتفحصني وهز برأسه. فألح ايلاي:

- ومن إبراهيم؟

ارتبك أبو يوسف وتململ، فانهال باللائمة على ايلاي حتى يهرب من ذاك السؤال وتضاعيفه:

- وانت مالك! يا لطيف ما أكثر أسئلتك! بشوفك صاحي! مش عاداتك!

ابتسم ايلاي:

- ها ها أبو يوسف ما تهرب. أنا يا خبيبي ما بيخوف عشان أنا أشقر، طب وإبراهيم؟

وعاد أبو يوسف ينهره:

- وأنت مالك!

فأصر ايلاي:

- طب وإبراهيم؟

ارتبك أبو يوسف ولم ينطق. ألح ايلاي:

- يعني إبراهيم ما بيخوّف؟

صاح أبو يوسف بتململ:

- في هذا العمر؟

لاحقه ايلاي:

- عمره من عمرك، ما فيه فرق! ليش إبراهيم ما بيخوف؟

صاح أبو يوسف بضراوة:

- لأنه غنى! أغنى منك، مني ومنك، وجيوبه مليانه بالبترول!

ضرب ايلاي سطح الطاولة بكف يده، وصاح بظفر:

- آه، هوهو! مفهوم، مفهوم!

obeikandl.com

فأحسست بدوش ماء بارد ينسكب علي.

ثم سمعنا من خلف الظل والمظلة صراخ المستوطنة، تصيح بخوف:
- لو لو، شولاميت!

ووقف الرجل بالسوالف، وهرع إلى الطفلة وحملها وأمسك يدها يفتحها بعنف، فقال الجرسون بخوف وحرج:
- حبة نوجا! والله العظيم حبة نوجا.
فصاح ايلاي ثانية:
- آها، هوهو! مفهوم. مفهوم!
وضرب الطاولة بكف يده.

28

تركاني في ساحة باب العامود، وذهبا في جولة حول الأقصى. كنت ما زلت متعبا محبطا مهدودا ممزق الأوصال والوجدان مسحوقا من غير أمل. فلا أنا مع ذاك الابن، ولا أنا مع تلك الأم، ولا أنا في عظم القدس. القدس الآن قدس أخرى. بين الأطلال. حلم يتبدد في الحاضر والمستقبل ويطيح بي حتى مضيق باب المندب وجبل طارق. يا من رحلوا عبر الفلوات وتناثرنا، هل من قطرة تحيي الأموات؟ أنظر حولي وأرى غابة وأكتاف بشر تتدافعني، تتلقفي، تمشي، تتعثر، تتبعثر فوق صداعي ونبضات دمي، وأنا أضيع في الساحة، وأهيم كما هام

الفقراء في غرناطة.

ودقت جرسية أعلى البناء، فطارت عصافير الدوري ونعقت غربان. تمثال العذراء في الأعلى يفتح ذراعيه لمن يدنو، وأنا ما زلت أتخبط وسط الساحة، وحولي أشجار المجنونة ولغط السياح.

ومشيت أهبّج وجه القدس بحثا عنها. أمشي في السوق، أصعد أدراجا تحملني لزقاقات كانت ظلي من حر الشمس. في قلب القدس، تحت الأقواس الحجرية والقناطر، وسقوف معقودة مقببة تنبت أعشابا وعصافير كنا نمشي ونرمي البنانير، فتكرج وتكر من أول بوابة دير الروم حتى الأقصى، فيصيح الشيخ: "عيب يا أولاد، عيب يا عفاريت، هون للصلاة، هون مش ملعب." وكنا نختبئ خلف السور ونرى البنانير تتدحرج، تقفز وتنط مثل الدوري وتنقر بلاط المتوضي وساحة عمر نقر عصافير. فيحمل عصاه ويهددنا: "يا الله يا مساخيط، روحوا انضبوا، اذا شافكم الله بسخطكم." ويسد الباب. وها أنا الآن، أمشي، أمشي، خوفا من رب يسخطني، فأسد الباب.

وسمعت كورال جوقة أطفال من طرف السوق، فوقفت أتدارى لصق الجدار حتى مروا. كان الأطفال بملابس بيضاء هفهافة وسعف النخيل وسلال الورد وشموع طويلة مزدانة بشرائط وردية وفرافير. كانت تقود خط الأطفال راهبة تمشي بعصبية وتؤشر بيديها كما المايسترو، وتفتح فمها ثم تحركه على سعته من غير غناء. وكان الغناء يعلو في الجو، فيقف الباعة وتجار السوق وجوقة سياح من روما،

ونساء يبعن الميرمية وباقات النعنع، ورجل يصيح: " يا الله الخروب،" أوقف يديه عن نقر الصاج ووقف ينظر ويبحث عن سائح ليصوره أو يشرب منه. وأنا وقفت أراقبهم حتى مروا، مر الأطفال، ثم الرهبان، ثم الراهبات، ثم الباعة وبياع السوس.

ورأيت امرأة بالأسود تنبت من خلف جدار باب الأسباط وتلحق بالجوقة والموكب، وتمشي بصعوبة نحو البناء وعذراء كنيسة نوتردام. وقفت أراقبها فنادتني: "يا إبراهيم، الحق، الحق." وعبر الرصيف رأيت جميلة. أشرت إليها وأشارت لي حتى أسرع، لكن الضوء والسيارات وضجيج المارة وصخب المرور، فوقفت انتظر الأحمر حتى تغير، وحين وصلت كان الموكب قد دخل البناء واختفى في كنيسة نوتردام.

"ليش تأخرت؟" هتفتْ بحزن: "ليش تأخرت؟ الحق، الحق." وحين رأتني لا أتفاعل أو أرسم علامة استفهام أشارت بيدها نحو البناء حيث الموكب، وقالت بلهاث: "يمكن مريم!" أمسكت يديها وتضرعت: "أكيد مريم؟" "لأ، مش أكيد، يمكن مريم، قال المطران..." ولم أنتظر سماع بقية جملتها، فأسرعت ألحق بالموكب وأصعد درجات البناء وأدخل البهو، وكان السياح وحقائبهم في كل مكان. فسألت امرأة الاستقبال، فأجابت بغيظ: "هون الأوتيل مش الكنيسة، الكنيسة هناك." فدخلت الممر، ثم آخر، ثم أدراجا علوية، ثم الأروقة المضاءة بزجاج الخليل وأصص الخنشار. وحين وصلت كان الخوري يتلو عظته، فمشيت بتلصص لصق الجدار وأنا افحص، في هذا

الصف، في ذاك الصف، بين الراهبات، عند الأطفال، عند المذبح، لكن لا شيء، ولا أي أثر.

وحين خرجت وجدت جميلة في آخر صف تقرأ وتتابع موعظته، فهمست لها: "لأ مش مريم!" فأرخت عينيها وأشاحت حتى لا أعكر صفو الجو، وحين رأتني لا أتحرك همست زاجرة كي أصمت: "انت تأخرت!" وعادت تقرأ في العهد الجديد كلمات الرب.

*****

فتحت نافذة البوابة، وأطلت راهبة شابة، سألت بحذر: "مريم أيوب؟" ورسمت علامة استغراب ثم التفتت، فسمعت رطنا لا أفهمه، ثم تنحت وأطل وجه مجعد لراهبة طاعنة في السن، وسألتني وهي تتفحص في وجهي: "مريم أيوب؟ طبعا زمان! لكن اليوم صارت ماري، تفضل، فوت."

وجلست على حافة مقعد في الحديقة أنتظر قدوم الأخت ماري. كان اللزاب يفرش إبره فوق الممر وأحواض النجيل والقرطاسيا، وراهبة أخرى مسنة تسقي النباتات وتعشّب، التفتت إلي ثم ابتسمت، وعادت تسقي بصمت مطبق وخرير الماء.

نظرت إلى القدس من علو المكان، ورأيت الأقصى والأسوار والجرسيات، وألوف بيوت تتلاصق قرب الأفق حتى الشفق وحدود

الغرب. كان الغروب في أوله وما زال يمشي بتباطؤ، ويخلف خلفه فوق البيوت خيوطا من ذهب وصفائح تلمع في الضوء. من هنا القدس أحلى وأجمل، فيها عبير جبل الزيتون وخشوع الدير وقدس الرهبان. وفي الدباغة، يا دباغة، جلود مصبوغة للسياح وحقائب سفر. ثم البسط ما أكثرها، وملابس مطرزة وبوابيج. وقفت مريم عند الدكان وعاينت الثوب وزنار النار، وقالت بالعربي المكسر، "بكم الفستان؟" قال البائع وهو يحملق ويعاينها: "قد ما بدك. القالب غالب يا حلوة." وحين قاسته ضرب جبينه وصاح بإعجاب: "آه يا عذرا،" فابتسمت لي وابتسمت له ثم استدارت للمرآة.

آه يا عذرا. أين زماني؟ أين مكاني؟ أين التاريخ؟ أين المرآة؟ ثلاثون سنة؟ خمسون سنة؟ من كان يظن أن الزمن يمشي بسرعة ويخلفنا من غير شباب ومرايا؟ وهذه الراهبة لو اقتربت من أي زجاج ماذا سترى؟ زمن ولى؟ عمر غائب؟ شباب أُهدر بين الأسوار؟ لكني أنا عشت حياتي خلف الأسوار، فماذا رأيت؟ لو تعرف مريم، لو تعرف، بين الأسوار، خلف الأسوار، لا فرق كبير أمام المرآة.

ورفعت رأسي لأجدها تقف أمامي تتأملني. وجه محاط بالأبيض تحت الأسود وصليب ضخم، لكن الوجه لم يتغير. نفس العينين، نفس الشفتين واندفاع بسيط للأسنان وطول الوجه. بعض الثنيات الدقيقة عند الخدين وحول العينين، لكن البشرة الرقيقة وصفاء الوجه تبدو أصفى، تبدو مرتاحة بلا أشواق.

وقفت ببطء، وأنا أرجف وقلبي يدق كما الهاون والدمع ضباب. وأصابني صمت أخرس، شوق آسر، حيرة وتحد واستسلام. ماذا سأقول؟ أأقول حنانك يا مريم؟ أأقول فداك يا مريم؟ أأقول الحب والشوق والخوف؟ أأقول بحثت في كل مكان؟ ستقول هربت ولم تنذر. أأقول ضياعي خلف السور؟ ستقول لي عمري المهدور. أأقول أفتش عن مأوى وأهل وولد؟ ستقول الأهل لمن حافظ على عهد الحب. أأقول شبابي وشبابك؟ ستقول شبابي في روحي وهدوء القلب. أأقول ابنك؟ ستقول ابني في كل الناس والبشرية وآلام يسوع. أعرف، أعرف، هذا ما قال في موعظته والعهد الجديد.

مدَّت يدها، وهي تبتسم بلا إحساس وكأني قريب فاجأها من بعد غياب ساعة وساعتين. مددت يدي الاثنتين، وأنا ما زلت أتأملها وقلبي يذوب كما العاشق ودموعي تسيل وتغبشني فأرى العالم من خلف ضباب. أمسكت بيدي وقادتني حيث المقعد تحت اللزاب، وقالت باسمة وبرأفة:

– يا إبراهيم، يا إبراهيم!

وجلست بتؤدة وسحبتني وهي ما زالت تتفحص شعري وعيني وبقع الكبد عند صدغي ومعالم مرض مستعص لأعراض القلب. وهزت رأسها، وكأنها تقول: "آه كم كبرت!" لكني أنا لم أفكر كم هي كبرت، لأنها بالفعل لم تكبر بعد، إلا لمسات، مثل فرشاة دقيقة، ريشة عصفور. وأحسست بالغيرة تغمرني، لأني أجدها مرتاحة وبلا أحزان. وأنا المجنون كنت أفكر أني الجاني وهي ضحية! وطوال

سنين، بل كل العمر، وأنا اجتر ذنبا مغروسا كالسكين في ذاكرتي ولب ضميري يهيء لي أنها عاشت في أسوأ حال، وها هي الآن في أهدأ بال، فمن الجاني؟!

وعادت تهمس وتهز الرأس:

- يا إبراهيم!

انكمشت ودرت على نفسي، وأنا اختبئ من عينيها، وإحساس النقص يتآكلني، وضممت يدي إلى صدري ثم خبأتها في جيبي.

سألت:

- هل عدت؟

فأحسست بغيظ لا أفهمه، وكأنها تسألني لماذا عدت وتسخر مني. ماذا لو عدت؟ أليس حريا بكل غريب أن يعود لبلده من بعد غياب؟ أليس طبيعيا مألوفا أن يرجع راجع من منفاه بحثا عن أهل وهوية؟ أليس من المنطق والمعقول أن يبحث ضائع عن حبه والذكريات والمستقبل؟ هل أحكي لها عن صورتها في جيب الصدر؟ هل أحكي لها كيف دوّرت كل الدنيا بحثا عنها وعن صورتها، وحين وجدت تلك الصورة في العلية بين الركام وغبار العفش أخذتها، خبأتها في صدري حتى أحفظها من العثّ وخرير البرد؟

أخرجت الصورة من جيبي، وقلت همسا:

- وجدت هذه في العلية.

لم تلمسها، رشقتها بنظرة مبتسمة، وقالت بهدوء:

obeikandl.com

- صورة؟!

وبدا من سحبة كلمتها ونغمة الصوت أن الصورة صورة سخيفة، مجرد لا شيء، أو أن الصورة لا تعني إلا ورقة من غير حروف، وبلا تاريخ.

قلت راجيا وبصوت جريح حتى ألفت انتباهها لما عانيت أثناء البحث:
- صورة قديمة كانت هناك تحت الغبار في العليّة، خذي شوفيها.

مدت يدها، ودفعت بيدي بعيدا عنها، وهمست بعتاب:
- صورة قديمة، وما حاجتي الآن إلى صورة؟
أحسست بالطعنة في صدري. فماذا تقصد؟ صورة قديمة؟ أي أن الحب كان قديما وانتهى الآن. أي أن الحب كان زمن الشباب وانتهى الآن. أي أن العهد، في هذا العهد، صار قديما وتلاشى الآن. ماذا إذن يبقى مني ويبقى منها؟ ما جدوى البحث؟

قلت بسرعة حتى أمسك بما بقي لي من ذاك العهد:
- وجدت القوشان وشهادة ميلاد، في غرفة ميشيل آلة تصوير، شهادة ميلاد. هو ابني أنا، أليس كذلك؟

لم تجبني، وظلت بسمتها لا تحكي إلا الأسف والاستخفاف.

قلت بحدة:

– عند جميلة هو والقوشان، أنا اعرفها. قالت لي القصة من الأول. أين ذهبتِ؟ ولماذا الطفل؟ ما ذنب الطفل؟!

لم تنظر إلي، ولا اهتمت، وظلت تبتسم وتهز الرأس. فأمسكت بيدها أضغطها حتى تحس بإحساسي، وكانت اليد أدفأ مني ورقيقة مرتاحة بلا أعصاب. أحسست بيأسي يملأني، وغيظي منها ومن راحتها يجعلني أقوم بعمل بائس. هل أضربها؟ هل أحكي لها؟ هل أشتمها؟ قمت وركعت على ركبتي وشددت بثوبها أستعطفه.

– ابني ميشيل، ابني وابنك. كيف طاوعك قلب الأم؟ ووجهك هذا، وجسمك هذا، وحبك للدنيا والإحساس، كيف هربت؟ ألأني هربت؟ ألأني جحدت؟ ألأن الرجل الأناني فيّ تباطأ؟ ولهذا عاقبت ذاك الطفل. ما ذنب الطفل؟

لم تنظر إلي. كانت تنظر نحو الأفق وغيوم الغرب، والشفق الأحمر يتلظى بلون كالدم، ونسيم صنوبر وحساسين تصدر أصواتا تزعجني ، تتحداني، تملأ أسماعي بالضجة، وسباق فظيع على استغلال آخر قطرة من آخر ضوء نحو المغرب.

قلت أسابق ما بقي من الضوء ومن صوتي:

– قال المطران. قال أشياء لا أفهمها. وابنك هذا أنا لا أفهمه. يحكي عن الريكي والأرواح وقوى الإنسان الخفية وأشياء مخيفة وسخيفة، والفلاحون مثل الماعز وهو مجنون، ابنك مجنون، انزلي شوفيه، يلبس ثوبا مثل الرهبان، ويعيش حياة برية مثل الدراويش وينسى نفسه.

أقول هذا من ميراثك، وماذا عني؟ من يرثني؟ ولماذا لا يهنأ بحياته؟ هل تعرفين هذا كله، أم أن الدير أنساك الناس وأنساك حنانك وحنينك ورباط الدم؟

همست ببطء ويدها على رأسي تربته:

- وإذن هل عدت؟
- ما قصدك مريم، ما قصدك؟

صحت بحرقة، لأني أحسست أنها لا تأبه بإحساسي، ولأن القول لا يعنيها، ابني، حياته، ريكي وأرواح، وهو المجنون ينسى الدنيا وينسى نفسه، وأنا والدنيا وإحساسي وميراث العمر.

- من يرثني؟

صحت فيها وأنا اهتز:

- وأنا، وأنا، من يرثني؟

نظرت إلي نظرة طويلة، لأول مرة، وكانت نظرتها بعيدة، من خلف ستار، وقالت كلمات لم تنطقها لكني فهمت. فهمت ما تضمر من أحقاد. فصرخت بها:

- أنت حقودة. أهذا المسيح وتعاليمه؟ أنا إن أخطأت قولي آثم، قولي جبان، قولي خائن. قولي، قولي، لكن الطفل، ما ذنب الطفل؟!

همست ببطء:

- وما ذنبي أنا؟

obeikandl.com

- فإذن صحيح، أنت حقودة، والانتقام يشفي غليلك. أنا استحق، لكن الطفل؟ ما ذنب الطفل؟

همست بهدوء:

- ما عاد بطفل.

صحت بحرقة:

- لكنه طفل، يلهو بالروح وبالريكي وينسى نفسه. ينسى الإنسان!

نظرت إلي وابتسمت، وسألت بلطف:

- ينسى الإنسان؟!

حرت جوابا، فوقفت وقمت عن التراب وابتعدت قليلا واستدرت حتى التقط أنفاسي وأرد عليها وأفحمها وأقول لها ما يوجعها ويحركها ويجعلها تشعر بما أشعر وتخاف عليه.

- ابنك هذا، لو تعلمين، ابنك هذا، ما لمس امرأة في عمره. ابنك هذا مريض مهووس ومعقد. ابنك هذا، لو تعرفين، لا يعرف رأسه من رجليه. ابنك هذا ما عرف الحب ولا ذاق الحب!

ابتسمت وابتعدت بنظرتها، وكأنها تسخر مني ومن أقوالي، وكأني أقول كلمات فارغة لا معنى لها، بل معناها أني أبله، أني سخيف، أني ساذج، فما معنى الحب بالنسبة لي؟ ما معنى الحب بالنسبة لها؟ أأنا من يحب؟ وتذكرته حين قال لي في العلية: "تبحث عن حب، وكأن الحب هو المرأة!" فصحت بها:

- قولي ما الحب، قولي، قولي.

obeikandl.com

لم تجبني، وعادت تنظر وتبتسم بلؤم، ابتسامة مسحورة خفية تظهر من تحت قناع الوجه. صحت ثانية من يأسي:
- لا تبتسمي، قولي ما الحب. إن كان الحب ليس امرأة، ولا لمسة يد، ولا جسد امرأة تتأوة من ذوب العشق، ولا حب الطفل والأمومة وحنان الأهل، إذن ما الحب؟

لم تجبني. التفت إلى الدير بصومعته وحقدت عليه، وأحسست بسجن يبعدني عني وعنها. ما هذا السجن؟ وبدا كالقلعة في نظري من زمن غاب، بل زمن ولّى وتعثر ثم تباطأ ليعود إلي. وبدا ضخما، أضخم مني، وأنا كالقزم بلا قامة أفترش الأرض. فعدت أتمتم وبلا جدوى:
- إذن ما الحب؟

وظل السؤال معلقا في سماء الدير عند الحافة وحدود الغرب. فمشيت خطوات نحو الممر حتى أذهب، وكانت صورتها في طرف يدي، فلوحت بها، ثم استدرت لأقول لها أن الصورة هي صورتها وذات تاريخ، وأن الصور ذات التاريخ ذات قيمة، بل هي الكنز، وذكرى وحنين وبقايا وبصمات العمر، لكنها كانت تنظر بعيدا عني ولا تأبه بي أو تسمعني. فهمست بحزن وأنا أمشي: صورة قديمة!

ونظرت بعيدا كي أنسى أو أتناسى، ورأيت الشفق وظل السرو بات سوادا مع بدء الليل، ثم الألوان، أحمر قان، أزرق قاتم، ضوء باهر، والكشافات حول القبة تبدو كنمارق مصفوفة وسراج الرب. برج دري

يتلألأ، وفضاء صاف يسحبني نحو القبلة، وعتبات القلب. حنانك يا رب. عفوك يا رب. أنا إن أذنبت افتح قلبي، نوِّر صدري، خذني، عاقبني، عوضني، ورجّع لي الحب.

ونزلت من الدير حتى وصلت طرف الشارع، وركبت تكسي أنزلني عند الأضواء وباب الأسباط. ودخلت الباب، والبوابة، ونزلت الدرج إلى الأسواق، وكانت أبواب الدكاكين مقفلة، وهناك البوابات وبعض تماثيل حجرية، وفلول الليل. وحين اقتربت من القيامة انطلق كورال جوقة أطفال، وعزف بعيد على الأرغون، صاف شفاف كما النسمة ونداء الروح. فجلست على درج المعبد اسمع روحي ونداء الرب. وأقول صلاة أسمعها وأخجل منها. عدني يا رب، عونك يا رب، عدني عودني عوضني، رجع لي الحب.

ومشيت بصمت، وأنا اسمع صوت الأرغون. لكن الصمت بات ضجيجا، إذ مرت ثلة من العسكر والدورية وهدر الموتور في جيب الجيش، وصاح مناد: "أوع يا تحسين، دورية جيش، اطلع، حول، درب الآلام عند الأقصى، دورية جيش!"

ومشيت بصمت، وطغى العسكر.

29

نمنا جميعا في الهوستل عند الرهبان في كازانوفا، لأنه أرخص. قال أبو

يوسف إن ايلاي لن يدفع إلا ملاليم لأنه مفلس، وهو أبو يوسف لن يدفع إلا المعقول، وأنا إن رغبت فعليّ أن أنزل في الأوتيل المقابل ذي الخمسة نجوم، حيث السياح وأكل الخواجات، أما هنا في الكازانوفا، فتأكل وتشرب وتهيّص مثل الطليان، لأن الرهبان أيضا طليان وكل النزلاء من الطليان، أما النبيذ فمن كريمزان والأكل لزانيا ومعكرونة.

لكن فراسة أبو يوسف خابت في الحال حين اكتشفنا أن أجواق نزلاء في ذاك المساء ليسوا جميعا من الطليان والأجانب، بل عرب أقحاح من الضفة ومن إسرائيل. ثم اكتشفت أن العرب من إسرائيل ومن الضفة يملئون المكان كل ليلة خميس، لأن الصلاة في الأقصى يوم الجمعة بطاقة مضمونة إلى الجنة عند الحساب من غير نقاش.

شيء غريب! صلاة الجمعة وأقصى ورهبان وخمر كريمزان؟ هذه هي القدس لمن يعرف ومن لا يعرف. أنت مع الرب في صحوتنا وفي سكرتهم، والرب فسيح كالساحة يتسع لنا ويتسع لهم، ونحن نتسع ولا نسأل، وكذا الرهبان في كازانوفا.

ثم فوجئنا برتل جديد من الفلاحين. الراهب ميشيل، أي ابني أنا، جاء بجوقة ما شاء الله، لأن الطريق سدت بحواجز ترابية ونقاط الجيش، فيوم الجمعة، وهو يوم الصلاة، هو يوم التظاهر والفوضى ورشق الحجارة على الشرطة وقوات الجيش. إذن الكازانوفا ذاك المساء كان خليطا، بل قل صنفين: صنفا من طليان بالشورتات والتي شيرتات والجيتارات، وصنفا من عرب متمدنين جاءوا برؤوس مكشوفة من

غير حطط وبلا قنابيز، لأن القدس هي مدينة وفي المدينة – بعكس القرية – تلبس وتشرب وتهيّص من غير رقيب.

وجلسوا جميعا في قاعة ضخمة فسيحة كانت في يوم من الأيام مكتبة دير أو كنيسة ثم انقلبت، بانقلاب القدس، إلى هوستل. وبدأ العشاء باللزانيا وصلصة بندورة ورفيولي، ثم النبيذ وكعك التفاح. وبعد النبيذ نبيذ آخر، ثم الجيتار لدى الطليان وغناء جميل. شرب أبو يوسف وشرب ايلاي ورأيت ميشيل يشرب أيضا. ثم محمود زوج سكينة تجرأ وشرب وكذا المختار. لكن سكينة ما شربت لأنها حرمة، بل ظلت تنظر باستهجان ولا تجرؤ على قول "اعقل" لأن محمود بدأ يهيّص ويرمي نظرات جريئة نحو الطليان، والتي شيرتات وأفخاذ عارية بالشورتات وحلمات تبدو واضحة تحت القمصان بدون مشدات.

طاولة ميشيل وأهل الخربة قريبة منا، فاقترب ميشيل وسلَّم علي بلطف وأدب، وكذا محمود، وكذا المختار، ثم سكينة، وكانت سكينة قد اختلفت، إذ بدت ممشوقة وجميلة بثوب جديد مطرز اشتراه الزوج حتى يعوض عما قاسته من لكماته وزنار الجلد. لكن سكينة وهي ترى ما لم تعتده ظلت منكمشة ومحشورة بين الحائط وكرسي محمود. وما بين الفينة والأخرى تشير إلى الكأس بطرف يدها، وكأنها تقول: "ما هذا الفحش!" لكن الزوج وقد استرجل بفعل كريمزان أخذ يقهقه بصوت عال، ويصفق ويهمهم ويتواقح بنظراته نحو الطليان. أحست سكينة بغيظ شديد، وهي ترى زوجها محموداً يفقد عقله بفعل كريمزان وعري الأفخاذ، فقامت تتذرع بالحمام وابنها توفيق، وتركت الزوج

يلهو بضجيج حتى يثبت أنه مدني، وأنه معتاد على الغرب والأجانب، لأنه يعمل في الكيبوتسات. إذ ما النبيذ؟ مثل الميّة. وما عري الصدور؟ شيء عادي. وما الجيتارات؟ عود مبعوج بلا ريشة، يعني ربابة. كله عادي. هو متعوّد.

وقام طلياني بفعل الخمر وبدأ يرقص بين الطليان، فأفسحوا المكان لخطواته ونزواته ثم تحديه لزملائه بمباراته. وامتلأت القاعة بالضجيج ونقر الجيتار والتطبيل على الموائد ورنين الكؤوس بالملاعق، مصحوبا بصياح السكارى وصرخات ايلاي: "آ، يا خبيبي." واخذ أبو يوسف يشير لهم ويناغشهم، ويرفع كأسه ويحييهم، وراهب من روما رفع الكأس وحيا العرب، فابتسم ميشيل بلطف وأدب وشرب من الكأس بطرف شفتيه، فأحسست بحزني يتجدد. هذا المجنون ينسى نفسه، وينسى الدنيا، وينسى الإحساس! حتى النبيذ بطرف شفتيه بلا شهوة! أهذا ابني، ابن الحجَّار أم ابن الدير؟ ولماذا الراهب من روما يشرب ويصفق ويغني وابني جامد؟!

وسحب ايلاي فوطة سفرة وأخذ يلوح، فتحمس أبو يوسف ووقف أمام أهل الخربة وبدأ يرقص، فانطلق الحماس وصاح المختار: "أيوه، عليهم، يالله فرجيهم شطارتنا!" وابتدأ السباق من يسبق من؟ هل يسبق أبو يوسف أم الطليان؟ فهاج المختار واعتبر النزال شأنا قوميا قدسيا تتجلى فيه المراجل وسمات القدس العربية، وأخذ يدفع بكتف محمود ويستنهضه حتى لا يبقى أبو يوسف وحده في الحلبة بلا صاحب. لكن محمود وقد أخذ منه السكر، وفقد ما بقي من الحياء وإحساس النقص،

وقف أمامي وأخذ يهز كتفيه بعنف مثل الدبيكة المحترفين. ولهذه الحركة انتبه أبو يوسف وتحفز لخطورة مفعول التقنيات، فهزة أكتاف الفلاح محمود ابن الخربة تفوق هزات ابن الناصرة ذات الشهرة والمدنية، وقبلة سيّاح يعتبرون أن الناصرة أم الدنيا، وموطئ أقدام يسوع المسيح.

وبدأ السباق بين النصراوي والفلاح ونسيا الطليان، فهذا يهز وذاك يدبك ونسيا أنغام الجيتارات، وصار ضجيجهما أشبه بالقصف والاشتباكات وأمور يفرزها جو القدس بعد صلاة يوم الجمعة. لكن صلاة يوم الجمعة لم تبدأ بعد، وكذلك فنون الغربيين ممثلة برقص الطليان، إذ نزلت للحلبة ثلاث بنات، واحدة بالجينز، وأخرى بالشورت، وثالثة بتنورة هندية. وهذه تميل، وتلك تلوح، والشعر الأشقر يتماوج. وبهت الاثنان مما رأيا، وكانا يظنان أن المعركة مع السياح قد حسمت بفضل الدبكة وهزات الكتف، وأن الطليان قد انهزموا، لكن الجو وقد انقلب لصالح الغرب بفضل النسوان، وبات أبو يوسف وصاحبه شبه نكرة، وأصبح دبكهما دبدبة ورقص خناشير، أخذا يصيحان بأهل الخربة "نجدة، نجدة!" لكن النجدة لم تأت، لأني أنا مصاب القلب، وابني أنا مصاب ببرود، وكذا المختار بلا مواهب. ولسوء الحظ، حظ سكينة، ظهرت فجأة وقد عادت للتو من الحمام، ووقفت مشدوهة تراقبهم. تراقب هذا، وتراقب ذاك، وتراقب أفخاذ الطليان والعريانات، وتقول كلمات لا نسمعها ولا تسمعها، لأنها ضاعت في ضجيج الرقص والتنافس ومعركة مختلة بلا توازن بفضل النسوان. فنساء الغرب أشطر بالرقص، ونساء العرب الملتحفات باليوانس لا فن لديهن سوى الزغاريد، فصاح محمود وهو يلهث: "وَلِه يا سكينة، افقعي زغروتة وناوليهم." لكن سكينة لم تفقع،

وظلت تحملق مشدوهة وتبتسم بخوف. فعاد يصيح: "وَلِه يا سكينة قولي ها أي." لكن سكينة المبهورة لم تتجاوب وظلت تنظر وهي تغطي فمها المشدوه بطرف اليانس. وشدت صبية من الطليان تنورتها وأخذت تهز مقفاها بحركة خطيرة أشعلت الجو وانطلق الصفير، فهجم أبو يوسف على سكينة وهو يصيح: "تعالي لهون، يالله تعالي." فبهت محمود، ووقف مكانه وحملق عينيه الحمراوين وهو يرى رجلا آخر يقترب منه، من مملكته، ويتعدى على حرمة بيته بدون مبرر. فما المبرر؟ وهل أي مبرر في الدنيا، حتى السباق مع الطليان والأجانب، يسمح بنزول المصونات لسباق الرقص؟ لا، لا يمكن. ولهذا اقترب من زميله وأخذ ينقره على ظهره، لكن ذاك باندفاع الحماس لشد سكينة لم يحس بشيء. نقره ثانية وثالثة ثم نكشه، ثم شده، ثم صفعه صفعة قوية على رقبته حتى احمرت، فاستدار ذاك وقد فوجئ، ووقف الاثنان مثل الديكة، وقد جحظت عينا كل واحد وسال عرقه وسكينة تهمهم: " يا قشلي!" فاقترب محمود ودفعها، وصاح: "يا قشلك؟! بدل ما تبزقي في وجهه تقولي يا قشلك؟!" صاح أبو يوسف وقد احمر: "تبزق في وجهي يا جربوع؟ أنا يا حيوان؟ مين أنت بس لتبهدلني؟" ، فقال محمود وهو يرفع يده اليمنى: "أنا أحسن منك ومن أبوك ومن سيد سيدك." فصاح أبو يوسف بضراوة: "أحسن مني يا ابن الخربة؟ أما فلاح أمي وأهبل ما بتسوى قرش."

وبهذا اتسع نطاق الحرب، إذ أن مختار الخربة وقف مكانه ورفس الكرسي بقفا رجله، وسحب العقال من جيب الصدر ولوح به فوق رأسه، وصاح بزئير أشبه بالثور: "احفظ كلامك أحسن لك، واحد ما

بتفهم وقليل أصل. وماله الفلاح؟ أحسن منك ومن اللي جابوك يا بتاع اليهود."

وقف أبو يوسف، وقد فوجئ، وبدأ يصرخ مثل المجنون: "انا تبع اليهود؟ أنا تبع اليهود يا ولاد العرص؟ أنا تبع اليهود يا عرب الشوم، يا فلاحين، يا أميين، يا اللي الواحد ما بسوى قرش؟"

صاح ايلاي، وهو يقف في مكانه ويرفع يديه بفوط السفرة: "لا يا خبيبي!" فسحبه المختار من كمه حتى أقعده على الكرسي وصاح فوقه: "اقعد حيلك، مين جابك هون غير هذا العرص! وَلَه يا محمود، اكسر راسه، وخليه يعرف مين الفلاح."

ولم يكذب محمود خبرا، إذ هوى بقبضته على وجه ذاك، وذاك ناوله على أنفه فاندفع الدم، وبدأت ملامح معركة تظهر في الجو بين الأصحاب وزملاء الرقص وبوادر حرب أهلية، فوقف الطليان وهم مشدوهون يسمعون الكلام ولا يفهمون، لكنهم فهموا اللكمة على عظم الأنف، وانبثاق الدم مثل الرشاش، وفهموا أيضا بعض عبارات، لأن أحدهم فهم كلمات وأخذ يترجم ...فلاح عربي، هوهو هاها. يا ابن العرص. اوهو ها ها! وبدأ الطليان في الرطن السريع مثل دجاجات على كومة حب . . بر بر بر بر، وظلوا يحدقون من بعيد لبعيد بفضول شديد، بدون تدخل في شأن الغير. لكن صياحا اندلع في الجو لطفل يصرخ: "يا با، يا با" وكان توفيق قد أفاق من النوم ووجد نفسه في غرفة غريبة بدون أبويه، فجاء يبحث بالبيجاما، ووجد أباه مغطى

بالدم، فبدأ يصرخ: "يابا، يابا!" ووقف بين المقتتلين ورفع يديه، وهو يصرخ: "لأ يا عمي الله يخليك!" ورمى بنفسه على أبو يوسف وهو يلكمه ويتشبث به: "لأ يا عمي!" فهمهم الطليان بحيرة واشفاق: " أوهو، أوهو!" فهتف ايلاي ودموعه تسيل: "آه، يا خبيبي!"

فصاح المختار، "اقعد حيلك، إحنا ناقصين؟ مين جابك هون غير هذا العرص!"
فقلت بغضب: "لأ أنا جبته."
لم يلتفت إلي، واعتبر التدخل والتعليق من باب الذوق ومحاولة يائسة لتهدئة الجو، وظل يتمتم بالشتائم، ويقول بغيظ: "فلاح؟ فلاح؟ ماله الفلاح؟ مالها الخربة؟"

وعاد إلى غضبه من جديد، ورأى المعركة تفتر وتبوخ بفضل شفاعة توفيق الصغير فعاد يصرخ: "وَلَه يا محمود، اكسر راسه، العن أبوه خليه يعرف من الفلاح."

فعدت أناشده لكي يهدأ، وأنا أواسيه: "لأ، يا مختار! عيب يا مختار. امسحها بهاللحية يا مختار!"
لكن المختار لم يمسحها، وأخذ يتفتف ويشتم ويتوعد لايلاي وايلاي يصيح: "لا يا خبيبي!"

والتفتُ إلى ميشيل أتوسل إليه أن يتدخل ويفض المعركة المهينة ويختصر الشر، فوجدته ممتقعا مشدوها وجهه ابيض غادره الدم،

فقلت أناشده:

- اعمل معروف، قل كلمة خير، قل كلمة حق.

فهمهم بذهول، ودار بوجهه:

- أي كلمة حق مع مسطولين!

فملأني الغيظ من بروده، وقلت بتهكم واستهزاء:

- وين الأرواح؟

نظر إلي نظرة بعيدة، وهمهم بذهول:

- راحت من هون.

وترك المكان وذهب بعيدا.

30

في ذاك المساء عاتبته وقلت له: "أنت مسؤول." لم يرد علي، وظل يمشي بسرعة غريبة ورداؤه يطرق ويرفرف عند قدميه، والحبل المدلى من وسطه يهتز بعنف. فأسرعت خلفه وشددته من أردانه وتشبثت به، فأبطأ السير والتفت إلي لفتة صغيرة ثم هدّأ من غلوائه، وبدأ يسير بتهدل ووجهه مشدود أمامه. قطعنا السوق والبوابة وخرجنا من السور إلى الشارع ثم الأضواء، ووقفنا مقابل نوتردام ننتظر الضوء. قلت: "إلى أين؟" لم يجبني، وظل يتطلع أمامه ووجهه مشدود كقناع الشمع.

وحين وصلنا نزلة بوابة باب الخليل، حيث الساحة مثل المسرح

obeikandl.com

والدرابزين فوق النفق والألف طريق، تذكرت وقوفي مع المطران بعد رجوعي وسؤالي عنه وعن مريم. في ذاك المساء سألته عنها وما كنت أظن أن الأمور بهذا الشكل. وقد كنت أظن أن مريم ستعيد إلي براءة ما كان، لكن ما كان لن يرجع لي حتى لو رجع هذا الابن. فما نفع الابن؟ ما نفع الولد إذا تبرأ من دم الأهل؟ ما نفع الدم أذا تجمد وأصبح كالثلج في عروق الناس وخلف أشباحا مبهوتين؟ ما نفع الروح والكنيسة وقبة الصخرة والقيامة إن لم تردع أعمال الناس؟ وها هو محمود وأبو يوسف، جاء أحدهما ليصلي، والآخر جاء ليتبرك بعد حزيران، ووقعا في فخ حفلة سخيفة وخمر كريمزان. وهذا الولد مدعي الروح وقوى الريكي يهرب من أول حفلة دم، ويترك الناس لسخافتهم ولا يتنازل، فيقول الحق. أرقى من الناس؟ أعلى من الناس؟ أجلّ وأسمى؟ فلماذا إذن نزل بهم من خربتهم وجاء بهم حتى الأقصى؟ ولماذا إذن ذهب إليهم في خربتهم وعاش هناك مثل الرعيان؟ لماذا ادعى أنه قادر على كشف الحجاب والمستقبل وشفاء المرضى؟ أهذا ريكي؟ أهذه أرواح؟ أم هذا هروب من دمه، مثل أمه، واعتكاف الدير؟

ونظرت إليه، وكانت أضواء البلدية والسيارات تشعل وجهه، فبدت تجاويف ملامحه أكثر عمقا، ونتوء الحاجب من جهتي أكثر حدة، ورأيت نفسي أتطلع في وجه غريب لا يعرفني، ولا أعرفه وأنه بالاسم، أو غير الاسم، هو ابني أنا، ابن إبراهيم.

قلت: "تكلم! قل ما تضمر. قل شيئا يبرر سكوتك في هذا المساء. كان المفروض أن تتدخل."

همهم بنفور:

- ولماذا أنت لم تتدخل؟

قلت بغضب،

- لأني مريض، لأني كبير، ولأني أضعف من أن أقف بين رجلين مثل التيوس أحدهما يتنطح للآخر.

ضحك بخفة:

- ها أنت تقول، مثل التيوس، وما نفع التدخل بين تيوس؟

تراجعت بحذر:

- لا لم اقصد، أنا قلت: "تيوس" من حيث النطح والتناطح، وهل كان لرجل في سني أن يتصدى للتناطح؟ وقلبي الضعيف هل يتحمل؟ لكنك أنت ابن ثلاثين، وقوي شاب ومتعلم، وعندك قدرات أعرفها، وتعرفها أنت. رأيتك هناك في الخربة تقفز من صخرة إلى شجرة وتنقذ طفلا كان في الباص على الحافة، ولولا إسراعك لإنقاذه لانقلب الباص ومات الطفل. لكنك أنت، جازفت بروحك وحياتك من أجل الطفل، فلماذا اليوم لم تتدخل؟

هز برأسه وتمتم بفتور:

- من أجل الطفل... كما تدخلت.

استدرت إليه:

- طيب، مفهوم. أعرف ما تقصد وتلغز. عدنا للقصة من الأول! يا سيدي، فهمت. والله فهمت. أنا أعرف ذنبي وحفظته عن ظهر قلب، وها أنا أعود لأكفر عما أخطأت، قل لي بالله كيف أكفر؟ أقبل يديك؟ أمسح قدميك؟ أركع أمامك كما ركعت لقدميها؟ لكن ركوعي لم يجد، ورجعت ذليلا ووحيدا لا شيء لدي إلا الأمل في أن ألقاك. وها أنا

ألقاك، فماذا رأيت؟

همهم بحرد:

- وماذا رأيت؟

- رأيت رجلا مثل كل الرجال لا شيء لديه إلا الكلام وهذا الثوب. أنت لا تعدو أن تكون مثل الباقين، مثل كل البشر رجل تائه، نفس معقدة ممرورة، رجل محبط لم يذق الحب. افتح قلبك. افتح صدرك، اخرج من عقدك ومن الثوب وعش في الدنيا. أنت شاب جميل وبعز الشباب، وأية امرأة في الدنيا ستموت عليك. ماذا ينقصك؟ قل لي بالله ماذا ينقصك؟ أمك وفهمنا تركتنا وهربت للدير، لكنك أنت، أنت الرجل، أنت القوي والمتعلم، أنت الموهوب مثل خالي، أنت الفنان. أنت ابني أنا، وأنا الكاتب، شبه كاتب، ولو لم أضع في بلاد الناس والسياسة لكنت الآن أعظم كاتب. هل كنت تظن أن جنونك وحبك للريكي والأرواح شيء غريب عن جذورك؟ أبدا، أبدا، هذا من الفن، وجنون الفن مني ومن خالي ومن جدك في الآستانة. أنت ابن ناس مثل العالم، لديهم أشياء حلوة جميلة، لكنك تخجل بي وبهم. لماذا تخجل؟ نحن أوادم. نحن مساكين نحلم بالحب ونتمناه مثل كل البشر، ومثلك أنت، فهل تنكر؟ أنت منا. أنت مني. أنت ابني. وأنا أريدك أن ترجع لي وتعود إلي، أن تحملني وتحمل عني، فأنا كبرت، وتعبت كثيرا من الدنيا وضياع الحب. خذ ما تريد ورجّع لي الحب. خذ ما تريد.

همهم بشرود:

- وماذا تعطيني سوى النقمة؟

- نقمة؟ نقمة! أنا لن أعطيك سوى النقمة؟ بل كل الحب وإحساسي ومال الدنيا. خذ ما لدي، خذ من عمري، خذ كل الدنيا وعوضني أملا

بلقاء بالدنيا، دنيا جديدة.

- دنيا جديدة؟ أين أجدها؟
- في بسمة طفل. في دنيا الطفل. أهناك شيء في الدنيا أحلى من طفل؟ جنة أطفال، فرح الدنيا، عيد الأعياد. أهناك شيء في الدنيا أحلى من طفل يتمرغ في حضن أبيه؟ أنت فنان، فلتتخيل طفلا في العيد والعيدية ولباسا جديدا ومراجيح. طفلاً صغيراً يصحو من النوم فترى عينيه مثل النرجس. طفلاً صغيراً... آه، يا ابني!

وتذكرت الوصف وجميلة تقول. . . كان سمينا مثل البطة، وله غمزات في ظهر يديه. أمسك يديه وأظل أبوس، أبوس، أبوس، فينظر بعيون كالنرجس ونوار اللوز. آه، يا إبراهيم!

واهتز صوتي وترنح وانبثقت دموع في عيني، لكنه لم يتحرك، بل ظل ينظر أمامه لأضواء الغرب. ماذا يرى؟ ماذا يحلم؟ بماذا يفكر؟ طبعا أرواح. آه، يا همي، ويا كبر أساي. أية أرواح في الدنيا ستعيد إلي هذا الجامد؟

قلت أداريه وأحاول التقرب من أجوائه:

- قلت الأرواح لا تنسانا وتعود إلينا إذا احتجنا، صح، والا لأ؟

لم يتجاوب، فلم أتوقف.

- أنا سمعتك، أنا كنت هناك في غيبوبة لكني سمعت. أتذكر في الخربة ذاك الصباح حين تقاتلنا على سكينة؟

قال بفتور:

- ذاك الموقف!

- أنا كنت هناك ملقى على الأرض، لكني سمعت. سمعتك تقول إن الأرواح تأتي إلينا، وأن الموت ليس نهاية، وأن الروح تعود إلينا إذا نادينا بقلب مفتوح. أليس كذلك؟

- طبعا، أنا قلت.

- فلماذا إذن تتراجع اليوم عما قلته؟!

قال حردا:

- لم أتراجع.

قلت بحرقة:

- لكني أراك هذا المساء شيئا آخر، مثل الميت، جسدا بلا روح. لا تحس بشيء، لا تتفاعل، لماذا اختلفت، قل لي لماذا؟

قال بحدة وقد بدأ يفقد أعصابه:

- لأني غاضب.

- غاضب؟ غاضب! أهذا كلام واحد موهوب؟ أهذا كلام واحد واسع؟ تغضب من حفنة سكارى؟ تغضب من حفنة مسطولين؟ ماذا لو خضت المعارك ورأيت الدم حولك يسبح على جثث الناس؟ ماذا لو رأيت المذابح وكنت معنا بين الأنقاض وجموع الناس تهرب وتهج في الشوارع مثل الكلاب المذعورة من حم القصف؟ تغضب من حفنة سكارى؟ تغضب من سكرة مسطولين؟!

- بل أغضب منك.

- تغضب مني؟ ولماذا تغضب يا ابني؟ أنا ماذا فعلت؟ أنا ماذا قلت؟ لم أتحرك. فلماذا إذن تغضب مني؟

- لأنك تتدخل في شأني وتتجسس علي.

- أتجسس عليك؟

obeikandl.com

- تبحث عني في كل مكان. تبحث عن أمي في القرية وجئت الخربة بحثا عنها وبين الأنقاض عند جميلة وخالتي اوجني وصورة أمي في العلية من بعد سنين. تبحث عن أمي في الجليل وها أنت الآن تبحث في القدس، فماذا تريد؟ تريد أمي؟ هي لا تريدك. تريد رجوعي؟ أنا لن أرجع. تريد مني أن أرضى بك؟ أنا لن أرضى. أنا قلت لك في ذاك اليوم أنا لي خطي. أنا لي روحي. أنا لي حياتي. دعني وشأني. لماذا تريد أن ترجعني لماض أنساه؟ أمي ماتت. دخلت الدير. وحين أراها، أرى أختا لي، أختي الكبرى، وأراك أنت رجلا غريبا مقهورا لا يعنيني يريد أن يتشبث بالقشة، وأنا القشة. بالنسبة لك فأنا قشة. هذا بالذات بالنسبة لك. لكني أنا لست بقشة. أنا بني آدم. أنا جسم وروح. أنا لي أعماق. أتظن أنك في الحاضر تنسى الماضي؟ أتظن أن جراح الناس تبرد وتبوخ بمرور الوقت؟ أتظن أن هموم الناس ومآسيهم تخفت وتخف إن أنت اعتذرت؟

هتفت بذهول:

- فإذن حاقد!

هتف بحدة:

- لم لا أحقد؟ لكني الآن لا أحقد عليك ،بل أرجو منك أن تنساني وتنسى أمي وتدعنا كلينا لعالمنا، عالمنا نحن. نحن نسيناك. ابعد عنا. دعنا بسلام.

- ابعد عنها أو ابعد عنك؟

- بل ابعد عني وعن أمي. ألا يكفينا ما قاسيناه؟ حل عن ديني.

تمتمت بدهشة شبيهة بالذعر:

- أحلّ عن دينك؟ ما هو دينك؟

قال بغضب:

- أنت مالك ومالي ومال ديني! هل لك عندي؟ حلّ عن ديني ودعني لشأني.

تمتمت بذعر:

- لا، لا يمكن! أنت ابني، أنت الأمل، أنت حياتي. إن أنت ذهبت فمن يبقى؟

- يبقى أبو يوسف والمخمور عاشق نينا، وكذلك تبقى الجرافات، أنسيت هناك الجرافات؟

يقصد أموال الجرافات. يقصد أموال المناشير. يقصد أموالي في الغربة من حرب الخليج، فحزنت عليه، لأني رأيت أنه حاقد، بل تأكدت أنه محدود ككل الرجال بلا تسامح. لكنه شاب، وماذا أتوقع في هذا العمر من ابن شاب؟

وعاد يلح بصوت مشحون:

- أنا لي حياتي، ابعد عني، دعني ارتاح.

قلت بحسرة:

- لماذا ترتاح؟ هل أتعبتك؟

- طبعا، أتعبتني. أتظن الدم يصبح ماء؟ لكن الماضي يلاحقنا ويظل فينا يحددنا ويجعل منا صورة لصورة.

تشبثت به:

- إذن فالدم لا يتغير!

- بل يتغير، لأن الدنيا تغيرنا حسب خطانا. وخطانا شيء، ودماؤنا

obeikandl.com

شيء. في قلبي شيء من الدنيا لكن الدنيا ليست أنت.
قلت بذهول:
- أنا لا أفهم.
قال بإحساس:
- أنا أشفق عليك، أرثي حالك، وأحيانا أحس بعاطفة لا أشعرها إلا ومضات، فأخمدها، لأني لو عدت إلى الماضي سيعود إلي.
- وماذا لو عدنا إلى الماضي؟
وضع يده على أعلى الصدر، وابتسم بحزن:
- أنا أعود إلى الماضي؟ أنا أعود؟!

والتفت بعيدا عن وجهي، وهو يتمتم ويهز برأسه ويتحسر. .: "انا أعود إلى الماضي وعذاب الطفل؟" وتذكرت جميلة وما قالته عن بكائه. يبكي، يبكي. احمله يصيح، أرضعه يصيح، أغلي بابونج وزهورات والولد يصيح، الولد يصيح يريد أمه. لكن أمه ذهبت للدير. تركت الدنيا وما فيها ولجأت للدير. وها هو الابن يفعل ذلك ويلجأ للدير. وماذا في الدير سوى الراحة؟ لكن هذا، ابني هذا، لا هو في الدير ولا في الدنيا، مثلي ضائع، أين مقره؟

قلت متأملا ومحاولا جره لحديث موزون بلا عواطف وبلا حدة، إذ أن العواطف تبعده مسافة أميال، تذكره بماض لا ينساه، بل يعمل بجهد حتى ينساه.
- أمك في الدير تجد الراحة. وفي يوم ما كتبت تقول في روح الله نجد الراحة.

التفت إلي:

- أمي كتبت؟ ومتى كتبت؟

لم أجب عن السؤال وتجاهلته، لأني سأضطر لمفاتحته بما فعلته في العلية والسقيفة عند جميلة بحثا عنها وتلك الأوراق. وعدت أكرر:

- أمك في الدير وجدت راحة، لكنك أنت، لا أنت في الدير ولا في الدنيا، فماذا تفعل بين البينين؟

ابتسم بسخرية مرة:

- بين البينين!

والتفت إلي وابتسم لي لأول مرة:

- بين البينين؟ تعبير حلو! بين البينين؟ من أين جئت بهذا التعبير؟

قلت مندفعا بحرارة حتى أكسبه إلى صفي فيهتم بي ويصغي إلي:

- لأني كاتب. ألم أقل إني كاتب لكن الدنيا أخذتني والسياسة وبلاد الناس؟ ولو لم أضع في السياسة وبلاد الناس لكنت الآن أعظم كاتب.

ابتسم لي:

- أعظم كاتب؟

- ولم لا أكون؟ ماذا ينقصني من الكاتب؟ فلدي الفن، ولدي خيال، ولدي تعابير حلوة. لم لا أكون؟ أنا كاتب، وأنت فنان، ولدينا خيوط مشتركة.

هز برأسه:

- بين البينين!

- ولهذا أفهم إحساسك لأني كاتب.

عاد يكرر:

- بين البينين!

obeikandl.com

- ولهذا أحس بإحساسك.

سأل بتلغيز:

- لأنك كاتب؟

حرت جوابا، فأعاد السؤال:

- لأنك كاتب؟

قلت بحرارة وحرقة قلب:

- ولأني أنت، وأنت أنا.

هز برأسه وقال بهدوء:

- لا لست أنا.
- وإذن من أنت؟

التفت إلي:

- أتريد حقا أن تعرف؟
- طبعا أريد أن أعرف.
- وتريد أن تعرف بصراحة؟
- طبعا أريد أن أعرف.
- وبكل صدق وأمانة؟
- مئة بالمئة.
- ولن تتراجع؟
- لن أتراجع.
- وستقبل بي كما أقبل بك؟
- يا ريت، يا ريت!
- لا تتسرع. هل تقبل بي من بعيد لبعيد؟
- ماذا تقصد؟

obeikandl.com

- أقصد تبعدني عن همك وتدعني لشأني وحياتي.
- لا، لا يمكن. أنا لن ادعك. أنت ابني.
- أرأيت الآن؟ وها أنت تريد ألا تعرف.
- بل طبعا أريد أن أعرف.
- وماذا تريد أن تعرف؟ قل بصراحة، وبشكل بسيط وبلا تعقيد. ماذا تريد أن تعرف؟

صمت وتهت في أفكاري. أردت أن أقول إني أريد أن أعرف لِمَ يحقد علي وهو السابح في دنيا الروح. أردت أن أقول إني أريد أن أعرف لِمَ لا ينسى ماضي الأحزان وهو القادر. أردت أن أقول إن الدنيا لا تعني شيئا بدون الحب، وأن الحب ليس امرأة كما كنت أقول، بل أم وأب وأخت وأخ وكل الناس والبشرية وهذا يعرفه ونتفق عليه، لكني لا أفهم لِمَ يسخر من مسطولين ولم يتدخل لفض النزاع، وجعل من سهرتنا مهزلة أمام الطليان. أيكون الحب وتكون الروح في العيادة وحين يخرج إلى دنيا الناس ينسى التعاليم ويتمرد على معنى الحب؟! إن كان الحب ليس حقيقة، وليس ممارسة في الدنيا، فهو صورة، صورة نعلقها للسياح في النوتردام والكازانوفا. أهذا هو الحب؟ وإن لم يكن، فلماذا تنكّر لسكينة تلك الليلة؟ ولماذا لم يتدخل لفض النزاع في الكازانوفا؟ ولماذا يقسو على ضعفي ولا يرحمني وأنا النادم؟ ولماذا جازف بحياته من أجل الطفل ثم توقف؟ ما هذا الخلط؟ أنا لا أفهم.

قلت بهدوء، وكانت أصوات السيارات قد هدأت مع هدوء الليل، ونسيم القدس يحمل عطرا من ندى أيلول، وبرد يتغلغل في عظمي وعظام القدس. ذاك الأيلول، آخر أيلول، آخر أيام صيف حارق

وعذاب البحث.

- أنا لا أفهم، ولا أريد أن أفهم، لأن الفهم يعيق الحب.

سأل بجمود:

- أهذا قرارك؟

قلت بتصميم،

- أنا لا أعدك. أنا لن ادعك. أنت ابني. أنت هو الحب.

ورجعنا بصمت للهوستل ولم نتبادل إلا كلمات.

obeikandl.com

العشاء الأخير

*****

على الفطور رفضا الصلحة ثم اتفقا مثل الأطفال، ووقف الطليان يتفرجون على القبلات والسلامات والضحكات، وهم يعجبون، لكننا لم نتعجب. في البداية قال أبو يوسف بحرد الأطفال: "مين هذا الأمي حتى يقول أنا تبع اليهود؟!" والثاني قال:"مين هذا الواطي حتى يقول إني فلاح ما بسوى قرش؟" ثم اتفقا في غمضة عين، لكن أثناء ذاك الحوار برد الفطور وأكله الناس وذهب السياح كل في جهة ولم يروا حفل الصلحة، فهذا إلى السوق، وذاك إلى المهد، وتلك إلى كنيسة العيزرية وجبل الزيتون. ومشوا أسرابا أسرابا معهم كاميرات، ومعهم دولارات، ومعهم صبايا مثل اللوز. فقلت أداعب محمود بخبث حتى يذكر كريمزان الأمس: "يا الله، الحق، معهم حلاوة طحينية!" فقال بتزمت: "مش فاضي، اليوم صحيت. رايح للجامع أتوضا."

وذهبوا جميعا للوضوء حتى يصلوا صلاة الجمعة في حرم القدس. وكانت القدس مثل الزفة. أمم وأمم، وسعي القدم، وشموع ومباخر وعصافير وجو أزرق. شمس ساطعة في أيلول رغم المثل: أيلول مبلول. لكن أيلول ذاك الموسم كان حريقا إذ بدأ الرشق بالحجارة وأحذية الناس. طارت نعال، طارت سبابيط مثل الغربان وأجنحة

الشؤم وبدأ الرصاص كزخ المطر وحبات الرز. ركض السياح مثل الدجاج حين يفرعط، وهرب الرهبان واختبأوا كل في دير، وبحثت عن ابني بين الناس مثل الضائع يبحث عن إبرة بين القش. وكان الناس مثل المجانين، هذا يهرب، وذاك يلطش، وذاك يصرخ، وامرأة تصيح وتستنجد. وأنا اركض بين السياح وبين الكاميرات والصحفيين أبحث عن ابني وأبو يوسف والمجموعة. ثم المختار رأيته وحده بدون محمود ولا سكينة، فوقفت أصيح: "وين الجماعة، وين راحوا؟" لم يسمعني وظل يركض بين الشباب ثم تعثر ووقع على الأرض. لكن سكينة انبثقت له وسحبت كتفه وهي تتلفت وتتوعد: "وَلَه يا توفيق! والله لأشرب من دمك!" لكن توفيق ذاب سريعا واختفى أثره. ذاب معَ الناس والاشتباكات، وقنابل غاز ثم المولوتوف، وشرطة تضرب بالهراوات من فوق الخيل. "وين أبو توفيق؟" صاحت سكينة، وهي تشير من بين الناس: "وابني توفيق يعدمني إياه، وله يا توفيق!"

ورأيت جميلة في الشباك تشير إلي وتصيح بصوت كالمخنوق: "اطلع من هون، تعال اطلع." سحبت سكينة من يدها وأنا أقصد بيت جميلة. ركضت معي مسافة خطوات ثم وقفت وصاحت بغضب: "وابني توفيق؟" وعادت تتلفت حواليها: "وَلَه يا توفيق!" وجميلة تصيح: "اطلعوا من هون، أوعوا الشرطة، يا الله تعالوا!" لكن سكينة لم تطلع. ضربت يدي وهي تحملق كالمجنونة: "ابني توفيق وأبو عيالي، أنا مش طالعة." وعادت تتلفت وتتوعد: "وَلَه يا توفيق، يعدمني اياك، والله لأشرب من دمك."

صعدت إلى الدار، دار جميلة، ورأيت المشهد من أعلى. أمم وأمم، وسعي القدم، وقنابل غاز، وصياح الناس، وشباب ملثم وحجارة. وابنها توفيق على طرف السور بين الشباب والحجارة ورصاص الجيش. صرخت أناديه: "وَلَه يا توفيق!" لكن توفيق لم يسمعني، كان يناول أحد الشباب حجارة صغيرة، فيضعها ذاك في المقلعة ثم ينشّن على وجه حصان فأصابه. قفز الحصان قفزة سريعة وبدأ يدور حول نفسه مثل المجنون، فانقلب الشرطي من فوقه، وانفلت الحصان من غير لجام وأخذ يدعس على هذا وذاك ثم هذه ويرفس ويصهل ويزمجر. والشاب هناك في أعلى السور ملأ المقلعة بحجر جديد ونشّنها على جوقة جنود. أصابت أحدهم، فسال الدم ونظر الجندي وأشار إليه، فصوب أحدهم رشاشه وقتله بدم بارد. ارتمى الشاب فارتمى توفيق فوق الجثمان وأخذ يبكي فسحبه شاب بالكوفية، وقال له ما لم أسمعه. ربت رأسه وخلع الكوفية عن الميت وألبسها له. ورأيت سكينة ترى توفيق يلبس كوفية مثل الكبار، فأخذت تلطم: "ول يا قشلي." أشرت لجميلة: "شوفيها كيف رح تنجن!" سحبتني جميلة من كتفي وقالت بوضوح: "يا الله ننزل." التفت إليها كالملهوف، وأشرت للشارع والساحة وفلول الناس تركض وتهج، والصفارات وفرق الإسعاف وشرطة وجنود وصهيل الخيل، وقلت بجزع: "ننزل هناك؟!" قالت بحزم وبلا تردد: "يا الله ننزل." وحملت شنطة فيها أدوات المستشفى وسبيرتو ويود وهي تهرول نحو الدرجات. حملت الشنطة من يدها، وأنا أفكر أني جبان مثل مريم وابن مريم، فأنا لا أراه بين الباقين، اختفى أثره مثل الرهبان في دير ما أو في كنيسة. لكن لا بأس، ما زال النهار في أوله وفوضى الأحداث، ووقوفي هناك منع عني رؤية أبو يوسف والمختار وزوج سكينة، فكيف

إذن أميز ابني من ذاك البعد وأرى بوضوح كل التفاصيل؟ ابني ميشيل ليس جبانا. ابني ميشيل سحب رداءه وفك حبله وجعل من العقدة أنشوطة وانتشل الطفل. جازف بروحه وحياته من أجل الطفل، ولا بد الآن سيرى سكينة وابن سكينة ويقوم بعمل لن ننساه. لكن ابني أنا لا أعرف كيف أفسره. متى يجرؤ ومتى يزعل، ومتى يقترب ولا يهرب. ابني مزاجي. ابني معقد، ابني محبط. ابني لا أعرف ماذا أقول، هل هو ابني أم ابن الدير؟!

ورأيت توفيق يمسك حجرا ويلقي به من أعلى السور فصرخت: "الولد، لا، لا يمكن، هذا لسه صغير!" شدتني جميلة من كتفي وقالت: "اسمع. بأيام الغفلة ما حدا صغير. يا الله تحرك. الناس بتموت." وشعرت بخزي لأني قصّرت، وأحسست بقلبي ينخزني، ولأن جميلة تسبقني وأنا أركض وأنزل الدرج بلا صحاوة، وشنطتها تطرق بالأرض وأعلى الدرجات ثم بفخذي.

ودخلنا الجموع، فضعت وضعنا، لكن جميلة بالأسود التفتت إلي، وهي العارفة بالزواريب وقالت: "من هون، من هون اقرب." سألتها بصراخ: "رايحين على فين؟" صرخت مثلي وقد بدأت تفور: "يا الله تحرك، الناس بتموت!" وقطعنا زقاقا حجريا وأنا ألهث. مسافة خطوات، وإذا بنا تحت الأقصى وأعمدة السور والحجارة، ودخان كثيف ومقاليع وأصوات الناس ثم الكاميرات والصحفيين والرشاشات، ودخان الغاز يصل إلينا من فوق السور ومن تحت السور، لكن جميلة انتحت بي وقالت: "افتح، يا الله افتح." ففتحت الشنطة على الواقف وهي امامي. سحبت شاشا وقنينة كحول واعطتني قطعة وقالت "شم."

سألت بدهشة: "ما هذا الشيء؟" وضعت الشاشة على فمها ولم تجبني واستدارت، واستدرت أنا ثم هرولت، ودخلنا سيلا بشريا، طوفان بشر. هذا يدفع وذاك يهرب، وسكينة تصيح، وهي تؤشر لابنها من فوق: "وَلَه يا توفيق، واللهِ لأشرب من دمك!"

انبثق محمود من بين الناس وشد سكينة: "ليش تخليه؟!" صاحت بجزع: "ما خليته! والله العظيم ما خليته، هوه اللي هرب." رفع يديه وكور قبضتيه ودمدم من بين أسنانه: "والله النسوان. ." ولم يكمل. انطلق للخلف ليصعد للسور حيث ابنه. وفي لمحة عين عادت إلي ذكرى الخربة وميشيل يهب إلى النجدة وإنقاذ الطفل. لكن ميشيل لم يظهر بعد، لم أره هناك، لم أره هنا، لم أره بين الصحفيين والسيارات والنقالات وفرق الإسعاف. لم أره بين المضروبين ولا الضاربين ولا الممرضين ولا ركض الناس. لم أره هناك، لم أره هنا، إلى أين ذهب؟ كل المجموعة من حولي حتى الطليان، إلا ابني! حتى ايلاي سمعته يصرخ بصوت مبحوح: "يا أبو يوسف!" لكن أبو يوسف لم يظهر، وكذا المختار، وكذا محمود، لكن سكينة كانت تشير حيث توفيق والشبيبة، وتصيح: "الولد، راح الولد. يا قشلي عليك يا سكينة." والتفتت إلي تطلب نجدة وتشد بكتفي وتولول: "اعمل معروف، اعمل حاجة." اسقط في يدي، فماذا أفعل في هذا الجو؟ أنا اقدر عليه؟ هل أنا قدّه؟

سحبتني جميلة من كمي، وقالت: "افتح." فتحت الشنطة، وأنا ارتجف وأرى مصابين ودما أحمر ورائحة اليود وشاش وكحول وسبيرتو. وعادت تمشي وأنا في الخلف وتقول: "افتح"، تمشي خطوات وتقول:

"افتح." وأنا افتح من غير صحاوة بلا تفكير. افتح، افتح. ثم تعودت! ما عاد الخوف يلازمني. ما عاد الدم يصدم عيني فقد اعتدته، وجروح بليغة أراقبها وأحملق فيها، وكأن الجرح شيئا عاديا مألوفا، والرشاشات شيء عادي، وصراخ الناس شيء عادي، وقتلى وجرحى ومصابين والحجارة ورصاص الجند شيء عادي. ما هذا الشيء؟ لم تخدرت؟ لماذا ما عدت أحس بشيء؟ لماذا صرت أسمع الطلقة فلا أنقز؟ لماذا ما عدت أشم اليود ولا الغازات وغبار الأرض؟ لماذا اعتدت على الجرحى وعلى شبح الموت! ما عاد الموت شبحا أسود. صار منا. صار فينا. صرنا بلا خوف. كيف تعودت، يا بلد النحس!!

ورجعت بي ذكرى أيلول، ذاك الأيلول. ذاك الأيلول غير هذا، بين الأخوة وبلاد الأهل. ثم بيروت وحرب الأخوة وبلاد الأهل. ثم الخليج وحرب الأخوة وبلاد الأهل. وأنا مع من؟ كفرت بهذا، وكفرت بذاك، وعدت إلى الوالد والمنشار والمحاجر. ثم الخليج والجرافات وسيول النفط. هذا ما قال: "الجرافات!" وها هو يتخلى عن جوي وجو الأخوة والجرافات. لكن ايلاي، حتى ايلاي، وقف يصرخ: "يا أبو يوسف." وابني المفقود، ابني الضائع لا أثر له، فأين تخبّأ؟ عند أمه؟ في الكازانوفا؟ بين الرهبان؟ أينك يا ابني يا أملي وميراث العمر؟

واندفعت موجة من البشر أمام الشرطة وحدوات الخيل. سحبتني جميلة من كمي لصق الحائط لكن ايلاي ظل مكانه، وهو يصرخ: "يا أبو يوسف،" فضربه شرطي على رأسه بالهراوة، فسقط على الأرض واختفى أثره، والخيل تشب وجموع تصيح، وأياد مصحوبة بهراوات

ودعس الأرجل. فصرخت بحزن: "ايلاي، ايلاي!" وهجمت عليه لأسحبه من تحت الدعس، لكن جميلة جرتني لصق الحائط، وصاحت بغضب: "أنت مجنون؟!" أشرت إلى الأرض، وصرخت "ايلاي!" فلم تفهم، وصاحت علي وزجرتني "أوقف منيح. خليك واقف ما تتحرك." ووقفت بحزن، وأنا انظر حيث المسكين تحت الأقدام وأبو يوسف يلهث خلفي، وينادني: "وين راح ايلاي؟" أشرت إلى الأرض، فصاح بغضب: "وقع عالأرض قدام عينك؟ ليش تخليه؟" فلطمت سكينة من خلفه: "والله العظيم ما خليته، هوه اللي هرب."

وبعد دقائق انفرج الجو من ناحيتي ورأيت ايلاي يسبح بالدم. ركع أبو يوسف بجواره وأخذ يهزه: "ايلاي، ايلاي! قوم يا الله نروح." لكن ايلاي كان عجينة، مثل الخرقة، جسد بلا روح ولا معالم. فصاح أبو يوسف من خوفه ورؤية معالم مشوهة، بقايا إنسان، وأخذ يولول: "وَلَه يا ايلاي، قم يا الله نروح استنيتك، ليش رحت بعيد؟" أمسكت به، وقلت أصحيه: "يا أبو يوسف، هذا مفارق!" دفعني وقال: "لأ، مش ممكن، مش ممكن يموت." "يا أبو يوسف شوف جروحه، سيبك منه، هذا مفارق." التفت إلي وقال بحدة: "أنت من القدس ومش حاسس. إيش بدي أقول إذا سألوني وين راح ايلاي؟ أقولهم راح تحت الرجلين؟ أقولهم راح وما حدا حاسس؟ أقولهم راح وأنا راجع من غير رفيق؟ كيف بدي أرجع للناصرة من غير رفيق؟ يا ريتني ما شفته ولا عرفته. يا ريت ما سحبته وجرجرته. أنا قلت له تعال يا الله نصلي، وشوف آخرتها. تحت الرجلين! كيف بدي أنسى هالمنظر؟ كيف بدي أرجع للناصرة من غير رفيق؟ قل لي شو أعمل؟ إيش بدي أقول؟"، فقلت له:

"قول المرحوم فارق في القدس."

"لأ، مش مرحوم. وَلَه يا ايلاي، قوم يا الله نروّح، وَلَه يا ايلاي! وَلَه يا ايلاي!" وأنا أشده حتى أواسيه وهو يشد بطرف الميت وجميلة تشد وتسحبني وتقول "افتح، يا الله افتح، الناس بتموت." التفت إليها وأنا أشير نحو الميت "هذا ايلاي، شوفي شو صار له!" سحبت الشنطة من يدي، وقالت بحزم: "الحي أفضل من الميت، هات الشنطة." وانسكب اليود على الشاشة، وانسكب الدم ودموع الغاز والقنابل، وسكينة تصيح: "وَلَه يا توفيق. انزل ، انزل، يعدمني اياك." وأنا أدور وأتلفت بحثا عن ابني بين الناس. نظرت هنا ونظرت هناك ورأيت محمود على طرف السور يركض وينادي على ابنه، ورصاص الجند والحجارة والسيارات وصوت الإسعاف والطيارات تحلق في الجو. رفعت رأسي وتراجعت ورأيت فوجا من طيارات قادت يوما حرب فييتنام، فقلت ابشر، صرنا فييتنام، صرنا جخة!

وطارت طيارة فوق السور وحام نظري وأنا مبهور بدورتها مثل الحوام، طيارة ورق، مثل الأفلام وأنا مشاهد. أشاهد فيلما أمريكيا يحفل بالحركة وبالتشويق فلماذا إذن وقف الصحفي وأخذ صورة، وذاك يسجل، وآخر يصرخ هات الأفلام؟ وأنا أركض خلف جميلة بلا أدنى خوف، وكأن الصورة والمشهد ليس حقيقة، بل في الأفلام، والتلفزيون، مثل السينما. صرنا فرجة!

نظر محمود فوق رأسه وخاف من الصوت. رجع خطوات إلى الخلف،

ثم خطوة إثر خطوة، فاختل توازنه وهوى مثل الريشة. ريشة كبيرة، سوداء تموج من خلف الغاز، فطارت الحطة عن عنقه مثل شراع في مجرى الريح وسقط على الأرض. صاحت سكينة: "يا قشلي" وهرعت إليه كالمجنونة وصارت فوقه: "وَلَه يا محمود يا أبو عيالي، يا الله تحرك." فقال: "سكينة!" ثم استلقى من غير حراك. قالت جميلة: "هاتوا الشنطة، هاتوا سبيرتو، أعطوني اليود." فعطس وسعل، فانفرج الجو. لكن انفراج يوم الجمعة مثل المزحة، شيء خبيث، سراب خادع. تظن الأمطار ستتوقف، لا تتوقف. تظن الجفاف سيرحمنا، لا يرحمنا. تظن الربيع والصيف والشتاء وهطول الثلج، لكن لا ربيع ولا صيف ولا ثلج، كل المواسم تتغير مثل الديكور ويظل المشهد على حاله والعاب الموت. ننتظر المطر فلا يسقط، نصلي لجفاف يحرقنا، نصلي للرب فيسخطنا ونسد الباب. لكن الباب مثل جهنم، مثل القميم، مثل القمقم.

أنا يا مولاي لا أكفر بك، لكني أكفر من ضعفي واتكالي عليك، فلماذا اللعب بحياة الناس ودموع الناس ودم الناس؟ لماذا تأخذنا ولا تعطي؟ ولماذا سكينة المسكينة من دون الناس؟ سكينة إذن بدأت تلطم. شخر محمود شخرة أخيرة وهي تلطم. وحين حملوه على نقاله ورأت جرحه مثل مغارة نسيت توفيق وصارت تلطم: "وَلَه يا محمود، يا أبو عيالي، كيف تتركني؟ قوم يا ابن الناس وما ترملني، قوم يا ابن الناس." والتفتت تبحث عن المختار، وكان هناك قيد خطوة، فمدت يدها وأشارت إليه فقال برأفة: "قومي يا وليِّه يا مستورة راح لنصيبه."

فأخذت تصيح وتشد الشعر ونزعت اليانس عن رأسها وأطاحت به وهي تولول: "وَلَه يا محمود، يا أبو عيالي، قم يا ابن الكلب، ما ترملني!" فصاح المختار: "عيب يا وليِّه وحدي الله، هذا الشهيد لأجل فلسطين، وحدي الله!"

التفتت إليه كالمجنونة "لأجل فلسطين؟ ليش فلسطين رح ترحمني؟ مين يطعمني؟ مين يسقيني؟ من يستر عرضي ويحميني؟ وَلَه يا محمود، يا تاج راسي."

تمتمتُ بدهشة في عبي: "يا تاج راسك؟ وزنار الجلد؟!" لكن سكينة ما كانت إلا امرأة تبكي رجلا ورغيف الخبز.

اقتربت منها أواسيها، وأقول لها إن الدنيا لن تنساها، وفعّال الخير لن ينسوها، وكذا المختار، وأبو يوسف، وأنا وجميلة. فصاحت بصوت كالصارخ: "'فعّال الخير؟ يا مصيبتك السودا يا سكينة، فعّال الخير؟ يا سخامك الكحلي يا سكينة، فعّال الخير؟ يا ريتني مت ولا كنت صليت."

صاح المختار: "عيب يا وَليِّه. هون في الأقصى؟ بس انضبي."

نشجت بنحيب: "خليني أصيح وأفش قلبي، خليني أصيح."

فرفع المختار صوته بالأمر: "بس يا وليِّه. حرام يا وليِّه. محمود شهيد

لأجل الأقصى. لو واحده غيرك بتزغرت."

دفعته جميلة بالشنطة وقالت له: "زيح." وجلست بجوار سكينة على الأرض، وقالت بأسى "أيوه يا بنتي، صيحي يا بنتي، قولي اللي بقلبك وما تخافي زي كل الناس." واحتضنت تلك حتى نقلوه.

*****

بحثت عن ابني بين الأشلاء، بين الأنقاض وخلف السور، ولم أجد إلا الحطط وبقايا الناس، ودما اسود بدأ يتجمد تحت الشمس. نظرت إلى السماء، وكان الغروب قد بدأ يسدل أجنحته، وصمت القبور يلف الساحة وأجواء السوق، وكل الدكاكين مغلقة، والسيارات تمشي ببطء من غير ضجيج، أو أني أنا لكثرة ما سمعت من الجلبة وأصوات الناس ما عدت أحس.

فرغت الساحة من الناس إلا مني ومن جميلة. ذهب أبو يوسف للجليل من غير ايلاي، وأخذ المختار سكينة وتوفيق إلى الخربة، وأنا وجميلة بقينا في السوق نجلس على حافة درج عتيق، ننظر للساحة ولا نرى إلا الأشباح وأحداث اليوم.

قالت لي:

- قوم، يا الله نرجع.

قلت:

- إلى أين؟

obeikandl.com

- تعال اطلع عندي تاكل لقمة.
- أنا آكل وسكينة تجوع؟!
- تعال اغسل وجهك، واغسل إيديك.
- اغسل يديّ فهل تنظف؟

قالت بأمل:

- خليك متفائل وما تيأس.

أنا لا أيأس؟ كيف؟ لماذا؟ انقلبت صلاة يوم الجمعة إلى حفلة دم، ومات محمود، وراح ايلاي مثل الطلقة في زفة عرس، وسكينة لطمت وما خلت ولا نقطة دمع بعينيها وفوق هذا وذاك ابني مفقود، وأنا تائه، وسأبدأ البحث من الأول، وقد كنت أظن أني وجدته، لكنه غاب واختفى أثره. أمن المعقول أن يكون حيا ولا أراه أو اسمع عنه؟ أمن المعقول أن يكون في القدس ولا يركض مثل الباقين. لم أره هناك، لم أره هنا، لم أره بين المضروبين والصحفيين وفرق الإسعاف وفرق النجدة، وحين مات ايلاي وحملوا محمود على نقالة لم أره بين شباب النقل، ولا حمل جريحا على كتفه، ولا قفز لشجرة أو صخرة لإنقاذ طفل أو طفلة، فأين ذهب؟ هل جرح أم اعتقل أم استشهد؟ بعد كل البحث يقتل ابني؟ أنا لا اصدق بأنه موجود ولا يظهر. إن كان موجودا ولم يظهر فلماذا اختفى؟ أين اختبأ؟ هل في دير مثل الرهبان أم في كنيسة؟ وماذا تنفعه الكنيسة وهو الشكاك ولا يعرف غير الريكي وقوى الأرواح؟ دين الأرواح؟ بلا حكي فاضي. ريكي وعلاج الفلاحين؟ للفلاحين. وهو الفنان، وهو القوي ابن الثلاثين وبعز الشباب لم يذق الحب. ألهذا يحرد ويتمرد؟ ألهذا يحقد ويحاسب مثل الباقين؟ ألهذا يقول إنه غاضب؟

يغضب مني؟ فما ذنب الناس؟ أنا إن أذنبت، ما ذنب الناس؟ ما ذنب سكينة المسكينة؟ ما ذنب الطفل؟ ما ذنب ايلاي وأبو يوسف، ما ذنب الحب؟ إن كان الحب سلعة رخيصة، فلماذا صلاة يوم الجمعة وأجراس القدس؟ لماذا ألوف المساجد والجرسيات وقداس يروح وقداس يجيء، وأنا اجلس على حافة درج القيامة عند المغرب أسمع كورال جوقة أطفال، وأقول بقلبي إن الله لن ينساني، وإني سألقاه وألقاها، وحين ألقاه فلن أسال عما يفعل أو لا يفعل، عما يعرفه ولا أعرفه وما لا أريد أن أعرفه لأن الفهم يعيق الحب. أنا قلت له تلك الليلة، بكل الإخلاص، أنا لن أدعك، أنت ابني، أنت هو الحب. لكني الآن أسأل نفسي، ما نفع الابن؟ أهذا هو الحب؟ ما نفع الابن إذا تبرأ من دم الأهل؟ ما نفع الدم إذا تجمد وخلف أشباحا مبهوتين؟ يهرب منا؟ يعود إليها؟ يلجأ للدير كما لجأت، وأنا أدور كل الطرقات بحثا عنها أو بحثا عنه، وأحلم بلقاء يجمعنا فيلتمّ الشمل. أيكون هناك؟ أيكون هنا؟ أم أني فقدته ودفنته كما دفن ايلاي ودفن محمود ودفن شباب عمر سكينة في خربتها وباتت تنتظر وتتوسل فعّال الخير؟ أنا إن كفرت، أنا إن شككت، أنا إن هذيت، فلأن البحث هدّ كياني، والشعر شاب، والقلب ذاب، وخيال الكاتب يسحبني ويناديني، ويقول السماء بدأت تصحو في عز الخريف، وأوراق النرجس والنعنع بدأت تخضر، وشعاع أزرق يتلألأ في غيمة برد. هل صادروه أم اعتقلوه أم أن الأم المعتكفة في أعلى الدير سحبته لفوق؟ وإن سحبته ونسي الدنيا وسكان الأرض، فلماذا إذن جاء إليهم وذهب إليهم في خربتهم ثم جاء بهم لرحاب القدس؟ لماذا إذن تنكر لدمي وأنا أبوه، وهم أهله، وما حل بنا ليس جريمة، بل جهنم وعذاب القبر. أهذا هو الابن؟ ما نفع الابن! أهذا هو الحب؟ ما نفع الحب!!

ونظرت لفوق حيث القمة وجبل الزيتون، ورأيت الليل قد بدأ هناك من جهة الشرق، ورأيت أضواء البلدية والكشافات حول الأقصى تنير طريقي. التفت إليها أواسيها، فرأيت وجها مهموما تنعكس عليه أضواء القدس، فقلت لها بصوت خافت، "يالله نمشي؟"
التفتت إلي تسأل ما قلت، فقلت ببطء:
" ناكل لقمة."

ومشينا معا نحو الزاروب.

obeikandl.com